الدّاء والدّواء

أو

الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي

للإمام ابن قيم الجوزية

دار العقيدة للتراث

سلسلة التراث المحقق بدار العقيدة

الداء والدواء

أو الجواب الكافي

لمن سأل عن الدواء الشافي

لابن القيم

الطبعة الأولى

٢٠٠٢م - ١٤٢٣هـ

رقم الإيداع:

الترقيم الدولي:

دار العقيدة

الإسكندرية: ١٠١ ش الفتح - باكوس ت: ٥٧٤٧٣٢١

القاهرة: ٣ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة ابن القيم[1]

اسمه ونسبه:

هو الإمام المحقق الحافظ الأصولي شيخ الإسلام شمس الدين أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي المشهور بـ: «ابن قيم الجوزية» نسبةً إلى المدرسة التي أنشأها محيي الدين أبو المحاسن يوسف بن عبد الرحمن بن علي بن الجوزي المتوفى سنة 656 هـ لأن أباه كان قيماً عليها.

ولادته:

وُلِد رحمه الله في السابع من شهر صفر سنة 691 هـ.

نشأته وطلبه للعلم:

نشأ في بيت علم وفضل، وفي جو علمي في كنف والده الذي أخذ عنه علم الفرائض. وسمع الحديث من الشهاب النابلسي، والقاضي تقي الدين بن سليمان، وأبي بكر بن عبد الدائم، وعيسى المطعم، وإسماعيل بن مكتوم، وفاطمة بنت جوهر، وغيرهم.

(1) مصادر ترجمته: أبجد العلوم (3/ 138)، البداية والنهاية (14/ 234)، البدر الطالع (2/ 143)، بغية الوعاة (1/ 62) ذيل طبقات الحنابلة (2/ 447) الدرر الكامنة (4/ 21)، الوافي بالوفيات (2/ 270)، شذرات الذهب (6/ 168) الرد الوافر (ص68)، طبقات المفسرين (2/ 93)، النجوم الزاهرة (10/ 249).

وأخذ العربية عن ابنْ أبى الفتح البعلىِّ، فقرأ عليه «الملخص» لأبى البقاء، ثم قرأ «الجرجانية» ثم ألفية ابن مالك، وأكثر «الكافية الشافية» وبعض «التسهيل» وقرأ على الشيخ مجد الدين التونسى قطعةً من المقرّب لابن عصفور.

وتلقى الأصول والفقه على الشيخ صفى الدين الهندى، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والشيخ إسماعيل بن محمد الحرانى، فقرأ عليهم «الروضة» لابن قدامة المقدسى ، و«الأحكام» للآمدى، و«المحصل» و«المحصول» و«الأربعين» للرازى، و«المحرّر» لابن تيمية الجد.

رحـلاتـه:

قدم ابن القيم - رحمه الله - القاهرة غير مرة، وناظر، وذاكر. كما قال المقريزى. قال ابن القيم: «وذاكرت مرة بعض رؤساء الطب بمصر»(١) وقال: «وقد جرت لى مناظرة بمصر مع أكبر من يشير إليه اليهود بالعلم والرياسة»(٢).

وزار بيت المقدس، وأعطى فيها دروساً، قال: «ومثله لى قلته فى القدس»(٣).

وكان -رحمه الله- كثير الحج والمجاورة كما ذكر هو فى بعض كتبه.(٤)

علاقته بشيخه ابن تيمية ومنهجه:

بدأت ملازمته بشيخ الإسلام ابن تيمية منذ عودته من مصر سنة 712 هـ واستمرت إلى وفاة الشيخ سنة 728 هـ. وهو إذ ذاك فى ريعان شبابه، وذروة قوته، واكتمال مدركه، فتلقى عنه علماً جماً، وقرأ عليه فنوناً كثيرة.

---

(1) إغاثة اللهفان (1/ 17).
(2) هداية الحيارى (ص87).
(3) بدائع الفوائد (3/ 245).
(4) مدارج السالكين (1/ 57).

قـال الصـفـدى: «قـرأ عليـه قطعـة من «المحـرّر» لجده المجـد، وقـرأ عليـه من «المحـصـول»، ومن كـتـاب «الأحكام» للسـيـف الآمـدى، وقـرأ عليـه قطعـة من «الأربعين» «والمحصل» وقرأ عليه كثيراً من تصانيفه»[١] اهـ.

وأهم ما استفاده منه: دعوته إلى الأخذ بكتاب الله تعالى الكريم، وسنة رسوله الصحيحة، والاعتصام بهما، وفهمهما على النحو الذى فهمه السلف الصالح، وطرح ما يُخالفهما، وتجديد ما دَرَسَ من معالم الدين الصحيح، وتنقيته مما ابتدعه المسلمون من مناهج زائفة ومذاهب باطلة.

وكل من اطلع على مؤلفاته يتبين له مدى تأثير شيخه عليه وعلى آرائه، ومع ذلك كله لم يكن ابن القيم - رحمه الله - نسخةً طبق الأصل من شيخه، بل كان متفنناً فى علوم شتى وهذه آثاره شاهدة على ذلك.

تـلاميـذه :

1- ابن رجب الحنبلى ، الحافظ الزاهد العمدة الثقة، لازم مجلس ابن القيم إلى أن مات سنة 795 هـ.

2- ابن كثير، الحافظ الفقيه المتقن المفسر، قال: «وكنت من أصحب الناس له وأحبِّ الناس إليه»[٢].

3- ابن عبد الهادى، المحدث الإمام الحافظ، قال الذهبى عنه: والله ما اجتمعت به قط إلا واستفدت منه، توفى سنة 744 هـ.

4- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد القادر بن محيى الدين عثمان بن عبد الرحمن النابلسى الحنبلى، صحب ابن القيم، وتفقه به، وقرأ عليه أكثر تصانيفه، توفى سنة 797 هـ.

---

(1) الوافي بالوفيات (21/ 270).

(2) البداية والنهاية (14/ 234).

5- ومنهم ولده إبراهيم، ذكره الذهبي في معجمه «المختص»: تفقه بأبيه، وشارك بالعربية، وسمع وقرأ، واشتغل بالعلم، قال ابن كثير: كان فاضلاً في النحو والفقه على طريقة أبيه. توفي سنة 767 هـ.

6- الفيروز آبادي صاحب «القاموس المحيط».

ثناء العلماء عليه:

1- قال ابن كثير -رحمه الله-: «سمع الحديث، واشتغل بالعلم، وبرع في علوم متعددة، ولا سيما علم التفسير والحديث الأصلين، ولما عاد الشيخ تقي الدين ابن تيمية في الديار المصرية في سنة ثنتي عشرة وسبعمائة لازمه إلى أن مات الشيخ، فأخذ عنه علماً جمّاً، مع ما سلف له من الاشتغال، فصار فريداً في بابه في فنون كثيرة، مع كثرة الطلب ليلاً ونهاراً، وكثرة الابتهال، وكان حسن القراءة والخُلُق، وكثير التَّوَدُّد لا يحسدُ أحداً ولا يؤذيه، ولا يستغيبُه ولا يحقد على أحد، وكنت أصحب الناس له، وأحب الناس إليه، ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادةً منه، وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جداً، ويمدُّ ركوعه وسجوده ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك رحمه الله، وله من التصانيف الكبار والصِّغار شيءٌ كثير، وكتب بخطه الحسن شيئاً كثيراً، واقتنى من الكتب ما لا يتهيأ لغيره تحصيل عُشره من كتب السلف والخلف».[1]

2- قال ابن رجب -رحمه الله- : «وكان رحمه الله ذا عبادة وتهجد، وطول صلاة إلى الغاية القصوى، وتألُّه ولهج بالذكر، وشغف بالمحبة، والإنابة

(1) البداية والنهاية (14/ 234).

والاستغفار، والافتقار إلى الله والانكسار له، والاطراح بين يديه على عتبة عبوديته، لم أشاهد مثله فى ذلك، ولا رأيت أوسع منه علماً، ولا أعرف بمعانى القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه، وليس هو المعصوم، ولكن لم أر فى معناه مثله».[١]

3- وقال ابن ناصر الدمشقى: «وكان ذا فنون من العلوم، وخاصة التفسير والأصول من المنطوق والمفهوم، وقال: قال أبو بكر محمد بن المحب فيما وجد بخطه: قلتُ أمام شيخنا المزى: ابنُ القيم فى درجة ابن خزيمة؟ فقال: هو فى هذا الزمان، كابن خزيمة فى زمانه» اهـ.[٢]

تصانيفه:

صنف -رحمه الله- تصانيف كثيرة، بلغت نيفاً وستين كتاباً فى مختلف العلوم، منها ما هو كبير يقع فى مجلدات، ومنها ما هو فى مجلد، وجميعها جيد مفيد فى بابه.

*فله فى الفقه وأصوله: إعلام الموقعين عن رب العالمين، والطرق الحكمية فى السياسة الشرعية، وإغاثة اللهفان فى مكائد الشيطان، وتحفة المودود فى أحكام المولود، وأحكام أهل الذمة، والفروسية.

*وفى الحديث والسيرة: تهذيب سنن أبى داود وإيضاح علله ومشكلاته، وزاد المعاد فى هدى خير العباد.

---

(1) ذيل طبقات الحنابلة (2/ 448).
(2) الرد الوافر: ص 35-36.

* وفى العقائد: اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، والصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، وشفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، وهداية الحيارى من اليهود والنصارى، وحادى الأرواح إلى بلاد الأفراح، وكتاب الروح.

* وفى الأخلاق والرقائق: مدارج السالكين، وعدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، والداء والدواء، والوابل الصيب من الكلم الطيب.

* وفى العلوم المختلفة: التبيان فى أقسام القرآن، وبدائع الفوائد، والفوائد، وجلاء الأفهام فى الصلاة والسلام على خير الأنام، وروضة المحبين، وطريق الهجرتين وباب السعادتين، ومفتاح دار السعادة. وغيرها من الكتب النافعة.

وفاته:

توفى -رحمه الله- وقت عشاء الآخرة ليلة الخميس فى الثالث والعشرين من شهر رجب سنة 751 هـ ودفن بدمشق بمقبرة الباب الصغير. رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

كتبه

أبو مالك محمد بن حامد بن عبد الوهاب



بسم الله الرحمن الرحيم

سئل الشيخ الإمام العلامة المتقن الحافظ الناقد شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الشيخ تقى الدين أبى بكر المعروف بابن القيم الجوزية زاده الله من فضله: ما تقول السادة العلماء أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين فى رجل أبتلى ببلية وعلم أنها إن استمرت به أفسدت عليه دنياه وآخرته وقد اجتهد فى دفعها عن نفسه بكل طريق فما يزداد إلا توقداً وشدة فما الحيلة فى دفعها وما الطريق إلى كشفها فرحم الله من أعان مبتلى والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه أفتونا مأجورين رحمكم الله تعالى. فأجاب الشيخ الإمام، العالم، شيخ الإسلام، مفتى المسلمين، شمس الدين أبو عبد الله بن أبي بكر أيوب إمام المدرسة الجوزية رحمه الله تعالى.

لكل داء دواء:

الحمد لله أما بعد فقد ثبت فى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال: «**ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء**»[١]. وفى صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله**»[٢].

وفى مسند الإمام أحمد من حديث أسامة بن شريك عن النبى ﷺ قال: «**إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء علمه من علمه وجهله من جهله**»[٣] وفى لفظ: «**إن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء أو دواء إلا داءً واحداً**، قالوا: يا رسول الله ما هو؟ قال: **الهرم**». قال الترمذى: هذا حديث صحيح[٤].

دواء العىّ السؤال:

وهذا يعم أدواء القلب والروح والبدن وأدويتها وقد جعل النبى ﷺ الجهل

---

(1) صحيح: رواه البخارى(5678) الطب، أحمد (3568)، وابن ماجه (3438)(3439) الطب .
(2) صحيح: رواه مسلم (2204) السلام، أحمد (14187) .
(3) صحيح : رواه أحمد (17988)، وابن ماجه (3436) الطب وقال الألبانى : صحيح. انظر صحيح سنن ابن ماجه (2789).
(4) صحيح : رواه أحمد (17986)، ورواه الترمذى (2038) الطب ، وأبو داود (3855) الطب، وصححه الألبانى عنده، وابن ماجه (3436) الطب.

داء وجعل دواءه سؤال العلماء فروى أبو داود في سننه من حديث جابر بن عبد الله قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حجر فشجه في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم، قالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء فاغتسل فمات، فلما قدمنا على النبي ﷺ أخبر بذلك، فقال: «**قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا فإنما شفاء العيّ السؤال إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده**»(١)، فأخبر أن الجهل داء وأن شفاءه السؤال.

القـــرآن شـفــاء

وقد أخبر سبحانه عن القرآن أنه شفاء فقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت:44] وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:82] و﴿من﴾ هنا لبيان الجنس لا للتبعيض فإن القرآن كله شفاء كما قال في الآية المتقدمة فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب فلم ينزل الله سبحانه وتعالى من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد قال: انطلق نفر من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها حتى نزلوا على حي من أحياء العرب فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم فلدغ سيد ذلك الحي فسعوا له بكل شئ لا ينفعه شئ، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا، لعله أن يكون عند بعضهم شئ، فأتوهم فقالوا: يا أيها الرهط إن سيدنا لدغ وسعينا له بكل شئ لا ينفعه شئ فهل عند أحد منكم من شئ؟، فقال بعضهم: والله إني لأرقي ولكن والله لقد استضفناكم فلو تضيفونا فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لي جعلاً، فصالحوهم على قطيع من الغنم فانطلق يتفل عليه ويقرأ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:2] فكأنما نشط من عقال فانطلق يمشي وما به قلبة فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه فقال بعضهم: اقتسموا، فقال الذي رقى: لا نفعل حتى نأتي النبي ﷺ فنذكر له

---

(1) حسن: رواه أبو داود في كتاب الطهارة (336،337) وحسن الألباني الروايتين إلا أنه حسن الرواية الأولى دون قوله: «إنما كان يكفيه...» والحاكم (1/ 178)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (572)، وأحمد في المسند (3048)، الدارمي في الطهارة (752).

الذى كان، فننظر ما يأمرنا. فقدموا على رسول الله ﷺ فذكروا له ذلك، فقال: «**وما يدريك أنها رقية؟**» ثم قال: «**قد أصبتم اقتسموا واضربوا لى معكم سهماً**»[(١)].

فقد أثر هذا الدواء فى هذا الداء وأزاله حتى كأنه لم يكن وهو أسهل دواء وأيسره ولو أحسن العبد التدواى بالفاتحة لرأى لها تأثيراً عجيباً فى الشفاء ومكثت بمكة مدة يعترينى أدواء ولا أجد طبيباً ولا دواء فكنت أعالج نفسى بالفاتحة فأرى لها تأثيراً عجيباً فكنت أصف ذلك لمن يشتكى ألماً فكان كثير منهم يبرأ سريعاً.

ولكن ههنا أمر ينبغى التفطن له وهو أن الأذكار والآيات أو الأدعية التى يستشفى بها ويرقى بها هى فى نفسها نافعة شافية ولكن تستدعى قبول المحل وقوة وهمة الفاعل وتأثيره فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل أو لعدم قبول المنفعل أو لمانع قوى فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء كما يكون ذلك فى الأدوية والأدواء الحسية فإن عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء وقد يكون لمانع قوى يمنع من اقتضائه أثره فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول فكذلك القلب إذا أخذ الرقى والتعاويذ بقبول تام وكان للراقى نفس فعالة وهمة مؤثرة أثر فى إزالة الداء.

الدعاء يدفع المكروه:

وكذلك الدعاء فإنه من أقوى الأسباب فى دفع المكروه وحصول المطلوب ولكن قد يتخلف أثره عنه إما لضعفه فى نفسه بأن يكون دعاء لا يحبه الله لما فيه من العدوان وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء فيكون بمنزلة القوس الرخو جداً فإن السهم يخرج منه خروجاً ضعيفاً وإما لحصول المانع من الإجابة من أكل الحرام والظلم ورين الذنوب على القلوب واستيلاء الغفلة والشهوة واللهو وغلبتها عليها.

كما فى «مستدرك الحاكم» من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة**».

دعاء الغافل:

«**واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه**»[(٢)].

(1) صحيح: رواه البخارى (5736) فى الطب، ومسلم (2201).
(2) حسن: رواه الترمذى (3479) فى الدعوات، والحاكم (1/ 493)، وحسنه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (3479) وفى الصحيحة (596).

فهذا دواء نافع مزيل [للداء] ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوته وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها.

كما فى «صحيح مسلم» من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾** [المؤمنون51] **وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾** [البقرة172]، **ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب! يارب! ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك؟!**»(1).

وذكر عبد الله بن الإمام أحمد فى كتاب «الزهد» لأبيه «أصاب بنى إسرائيل بلاء فخرجوا مخرجاً فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم: أنكم تخرجون إلى الصعيد بأبدان نجسة وترفعون إلى أكفاً قد سفكتم بها الدماء وملأتم بها بيوتكم من الحرام، الآن حين اشتد غضبى عليكم! ولن تزدادوا منى إلا بعداً».

وقال أبو ذر: يكفى من الدعاء مع البر، ما يكفى الطعام من الملح.

فصل

الدعاء من أنفع الأدوية

والدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يدفعه ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن كما روى الحاكم فى صحيحه من حديث على بن أبى طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض**»(2).

للدعاء مع البلاء مقامات:

وله مع البلاء ثلاث مقامات: **أحدها**: أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه. **الثانى**: أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء فيصاب به العبد ولكن قد

---

(1) صحيح: رواه مسلم (1015) الزكاة، وأحمد (8148)، والترمذى (2989) تفسير القرآن.
(2) ضعيف جداً: رواه الحاكم (1/ 492)، وابن عدى فى الكامل (6/ 172)، وأبو يعلى (2/ 31)، والقضاعى فى مسند الشهاب (143)، وقال الحاكم صحيح ووافقه الذهبى.

يخففه وإن كان ضعيفاً، **الثالث:** أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه».

وقد روى الحاكم في صحيحه من حديث عائشة ﵂ قالت: قال نبي رسول الله ﷺ : «**لا يغني حذر من قدر والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة**»[1]، وفيه أيضاً من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «**الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء**»[2]، وفيه أيضاً من حديث ثوبان عن النبي ﷺ : «**لا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**»[3].

فصل

الإلحاح في الدعاء

ومن أنفع الأدوية الإلحاح في الدعاء وقد روى ابن ماجه في سننه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»[4] .

وفي صحيح الحاكم من حديث أنس عن النبي ﷺ : «**لا تعجزوا في الدعاء فإنه لا يهلك مع الدعاء أحد**»[5]، وذكر الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ : «**إن الله يحب الملحين في الدعاء**»[6].

وفي كتاب الزهد للإمام أحمد عن قتادة قال: قال مورق: ما وجدت للمؤمن مثلا إلا رجل في البحر على خشبة فهو يدعو يا رب يارب لعل الله عزوجل أن ينجيه[7].

---

(1) إسناده ضعيف: رواه الحاكم في المستدرك (1/ 492)، والبزار بنحوه (1/ 199)، وابن عدي في الكامل (3/ 213) والقضاعي في مسند الشهاب (859،861)، مجمع الزوائد (29171).

(2) ضعيف: رواه أحمد (21539)، والحاكم (1/ 493) والطبراني في الكبير (20/ 102).

(3) حسن: رواه الحاكم في المستدرك (1/ 493)، وابن ماجه (90) المقدمة، وأحمد في المسند (21881) وفي الفتن (4022) وقال الحاكم صحيح، ووافقه الذهبي وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (73).

(4) حسن: رواه البخاري (658) الأدب، والترمذي (3373) الدعوات، وابن ماجه (3827) الدعاء، وأحمد في المسند (9408) وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (3100).

(5) ضعيف جداً: رواه الحاكم في المستدرك (1/ 494) وابن حبان (2398) والعقيلي (267) وابن عدي (5/ 13) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (6246).

(6) موضوع: رواه البيهقي في شعب الإيمان (2/ 1108، 1109) وابن عدي في الكامل (7/ 2621)، والعقيلي (467)، وفي الضعيفة (637) وقال الألباني في ضعيف الجامع (1710) موضوع.

(7) الزهد: للإمام أحمد حديث رقم (1).

فصل

من آفات الدعاء

ومن الآفات التى تمنع ترتب أثر الدعاء عليه أن يستعجل العبد ويستبطئ الإجابة فيستحسر ويدع الدعاء وهو بمنزلة من بذر بذراً أو غرس غرساً فجعل يتعاهده ويسقيه فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله.

وفى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول دعوت فلم يستجب لى**»[١].

وفى صحيح مسلم عنه: «**لا يزال يستجاب للعبد مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل**، قيل: يا رسول الله وما الاستعجال؟ قال: **يقول: قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجاب لى فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء**»[٢].

وفى «مسند أحمد» من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل**؟ قالوا: يا رسول الله كيف يستعجل؟ **قال: يقول قد دعوت لربى فلم يستجب لى**»[٣].

فصل

أوقات الإجابة:

وإذا جمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب وصادف وقتاً من أوقات الإجابة الستة وهى الثلث الأخير من الليل وعند الأذان وبين الأذان والإقامة وأدبار الصلوات المكتوبات وعند صعود الإمام يوم الجمعه على المنبر حتى تقضى الصلاة من ذلك اليوم وآخر ساعة بعد العصر وصادف خشوعاً في القلب، وانكساراً بين يدى الرب، وذلاً له وتضرعاً ورقة. واستقبل الداعى القبلة، وكان على طهارة ورفع يديه إلى الله، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنى

---

(1) صحيح: رواه البخارى (6340) الدعوات، ومسلم (2735) الذكر والدعاء، ومالك فى الموطأ (495) النداء للصلاة، وأحمد (8903)، وأبى داود (1484) الصلاة، والترمذى (3387) الدعوات، وابن ماجة (3853) الدعاء.

(2) صحيح: رواه مسلم (2735) فى الذكر والدعاء.

(3) حسن: رواه أحمد (12596) فى المسند.

بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ ثم قدم بين يدى حاجته التوبة والاستغفار، ثم دخل على الله وألح عليه فى المسألة وتملقه ودعاه رغبة ورهبة وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده وقدم بين يدى دعائه صدقة فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبداً ولا سيما إن صادف الأدعية التى أخبر النبى ﷺ أنها مظنة الإجابة أو أنها متضمنة للاسم الأعظم.

أدعية مأثورة:

فمنها ما فى السنن وصحيح ابن حبان من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن كفواً أحد، فقال: «**لقد سأل الله بالاسم الذى إذا سئل به أعطى وإذا دعى به أجاب**»[١]، وفى لفظ: «**لقد سألت الله باسمه الأعظم**».

وفى السنن وصحيح ابن حبان أيضاً من حديث أنس بن مالك أنه كان مع رسول الله ﷺ جالساً ورجل يصلى ثم دعا فقال: اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام ياحى ياقيوم، فقال النبى ﷺ: «**لقد دعا الله باسمه العظيم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى**» وأخرج الحديثين الإمام أحمد فى مسنده[٢].

وفى «جامع الترمذى» من حديث أسماء بنت يزيد أن النبى ﷺ قال: «**اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين** ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:163] **وفاتحة آل عمران** ﴿الٓمٓ ① اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾» قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح[٣].

---

(1) صحيح : رواه أحمد (21874)، وأبو داود (1493) الصلاة، والترمذى (3475) الدعوات، وابن ماجه (3857) الدعاء وابن حبان (2383) موارد، وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود رقم (1493).

(2) صحيح : رواه أحمد (12200)، وأبى داود (1495) الصلاة، والترمذى (3544) الدعوات، وابن ماجه (3858) الدعاء، والنسائى (1300) السهو، وابن حبان)2382) موارد وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (1495) وصحيح موارد الظمآن.

(3) حسن : رواه أبو داود (1496) الصلاة، والترمذى (3478) الدعوات، وابن ماجه (3855) الدعاء وسنن الدارمى (3389) فضائل القرآن، وحسنه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (1496).

وفى «مسند الإمام» أحمد و«صحيح الحاكم» من حديث أبى هريرة، وأنس بن مالك، وربيعة بن عامر، عن النبى ﷺ أنه قال: «**ألظّوا بياذا الجلال والإكرام**»[1]. يعنى تعلقوا بها، والزموها، وداوموا عليها.

وفى «جامع الترمذى» من حديث أبى هريرة ﷺ: أن النبى ﷺ كان إذا أهمه الأمر رفع رأسه إلى السماء وإذا اجتهد فى الدعاء قال: «**يا حى يا قيوم**»[2]،وفيه أيضاً من حديث أنس بن مالك قال: كان النبى ﷺ إذا كربه أمر قال: «**يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث**»[3].

وفى صحيح الحاكم من حديث أبى أمامة عن النبى ﷺ أنه قال: «**اسم الله الأعظم فى ثلاث سور من القرآن: البقرة، وآل عمران، وطه**»، قال القاسم: فالتمستها فإذا هى آية ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[4].

وفى «جامع الترمذى» و«صحيح الحاكم» من حديث سعد بن أبى وقاص عن النبى ﷺ قال: «**دعوة ذى النون إذ دعا وهو فى بطن الحوت ﴿أن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾** [الأنبياء:87]، **إنه لم يدع بها مسلم في شئ قط إلا استجاب الله له**» قال الترمذى: حديث صحيح.[5]

وفى «مستدرك الحاكم» أيضاً من حديث سعد عن النبى ﷺ: «**ألا أخبركم بشئ إذا نزل برجل منكم أمر مهم فدعا به يفرج الله عنه؟ دعاء ذى النون**»[6]، وفى صحيحه أيضاً عنه أنه سمع النبى ﷺ وهو يقول: «**هل أدلكم على اسم الله الأعظم؟ دعاء يونس**»، قال رجل: يا رسول الله هل كانت ليونس خاصة؟ فقال: ألا تسمع قوله

(1) صحيح: رواه البخارى (2/ 1/ 256) فى التاريخ، الترمذى (3524، 3525) وأحمد (17143) والحاكم (1/ 498) وصححه الألبانى وانظر الصحيحة (1536).

(2) ضعيف جداً: رواه الترمذى (3436) الدعوات، قال الألبانى: ضعيف جداً انظر ضعيف الترمذى.

(3) حسن: رواه الترمذى (3524) الدعوات، وله شاهد عند الحاكم (1/ 509) وحسنه الألبانى فى صحيح الترمذي (3524) وصحيح الجامع (4777).

(4) حسن لغيره: رواه الحاكم في المستدرك (1/ 506) والطبرانى (8/ 282) الكبير، وابن ماجه (3856) انظر الصحيحة للألبانى (746).

(5) صحيح: رواه الترمذى (355) الدعوات، وأحمد فى المسند (1465) وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (3505) وانظر الكلم الطيب (122/ 79).

(6) صحيح: رواه الحاكم (1/ 505) وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (2605).

تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:88] فأيما مسلم دعا بها فى مرضه اربعين مرة فمات فى مرضه ذلك أعطى أجر شهيد وإن برأ برأ مغفوراً له[١].

وفى الصحيحين من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «**لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب الأرض ورب العرش الكريم**»[٢].

وفى «مسند الإمام أحمد» من حديث على بن أبى طالب رضي الله عنه قال: «علمنى رسول الله ﷺ إذا نزل بى كرب أن أقول: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين»[٣].

وفى مسنده أيضاً من حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إنى عبدك بن عبدك بن أمتك ناصيتى بيدك ماض فى حكمك، عدل فى قضاؤك، أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو علمته أحداً من خلقك، أو أنزلته فى كتابك او استأثرت به فى علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى، ونور صدرى، وجلاء حزنى وذهاب همى، إلاَّ أذهب الله عزوجل همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحاً** فقيل: يارسول الله، ألا نتعلمها؟ قال: **بلى ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها**»[٤]، وقال ابن مسعود: ما كرب نبى من الأنبياء إلا استغاث بالتسبيح.

وذكر ابن أبى الدنيا فى كتاب «المجابين فى الدعاء» عن الحسن قال كان رجل من أصحاب النبى ﷺ من الأنصار يكنى أبا معلق وكان تاجراً يتجر بمال له ولغيره ويضرب به فى الآفاق وكان ناسكاً ورعاً فخرج مرة فلقيه لص مقنع فى السلاح، فقال له: ضع ما معك فإنى قاتلك، قال: ما تريد من دمى؟ شأنك بالمال،

---

(1) منكر: رواه الحاكم (1/ 506).
(2) صحيح: رواه البخارى (6345) الدعوات، ومسلم (2730) الذكر والدعاء، وأحمد (2013).
(3) حسن: رواه أحمد (703)، الحاكم (1/ 508) المستدرك.
(4) صحيح: رواه أحمد (3712)، و الحاكم (1/ 509)، وصححه الألبانى فى الصحيحة (199).

قال: أمـا المال فلى ولست أريد إلا دمك. قـال: أما إذا أبيت فذرنى أصلى أربع ركعات. قال: صل ما بدا لك. فتوضأ ثم صلى أربع ركعات، فكان من دعائه فى آخـر سجـدة أن قـال: ياودود يا ودود، يـا ذا العرش المجـيـد ، يا فـعـالاً لما تريد، أسـألك بـعـزك الذى لا يرام، وبملكك الـذى لا يضـام ، وبنورك الذى مـلأ أركـان عـرشك، أن تكفـينى شـر هذا اللص، يا مـغـيث اغثنى. ثلاث مرات، فـإذا هو بفـارس قـد أقبل بيده حربة قـد وضعـهـا بين أذنى فرسه فلما بصر باللص أقبل نحوه فطعنه فقتله، ثم أقبل إليه فقـال: قم. فقلت: من أنت بأبى أنت وأمى فقد أغاثنى الله بك اليوم ؟ فقـال: أنا ملك من أهل السمـاء الرابعة دعوت بدعـائك الأول فسمعت لأبواب السماء قعقعة ثم دعوت بدعائك الثانى فسمعت لأهل السماء ضجة ثم دعوت بدعائك الثالث، فقيل لى: دعـاء مكروب فسألت الله أن يولينى قتله»، قـال الحسن: فمن توضأ وصلى أربع ركـعـات ودعـا بهـذا الدعـاء استجيب له مكروباً كان أو غير مكروب.

فـصـل

ظروف الدعاء

وكثيراً ما نجد أدعية دعا بهـا قوم فاستجيب لهم ويكون قد اقترن بالدعـاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله أو حسنة تقدمت منه جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكرا لحسنته أو صادف وقت إجابة ونحو ذلك فاجيبت دعوته فيظن الظان أن السر فى لفظ ذلك الدعاء فيأخذه مجرداً عن تلك الأمور التى قارنته من ذلك الداعى وهذا كـما إذا استعمل رجل دواء نافعاً فى الوقت الذى ينبغى على الوجه الذى ينبغى فانتفع به فظن غيره أن استعمال هذا الدواء بمجرده كاف فى حصول المطلوب كان غـالطاً وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس ومن هذا أنه قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر فيجاب فيظن الجاهل أن السر للقبر ولم يعلم أن السر للاضطرار وصدق اللجأ إلى الله فـإذا حصل ذلك فى بيت من بيوت الله كان أفضل وأحب إلى الله.

فصل

شروط الدعاء المستجاب:

والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح والسلاح بضاربه لا بحده فقط فمتى كان السلاح سلاحاً تاماً لا آفة به والساعد ساعد قوى والمانع مفقود حصلت به النكاية فى العدو ومَتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير فإذا كان الدعاء فى نفسه غير صالح أو الداعى لم يجمع بين قلبه ولسانه فى الدعاء أو كان ثم مانع من الإجابة لم يحصل الأثر.

فصل

الدعاء والقدر:

وها هنا سؤال مشهور، وهو: أن المدعو به إن كان قد قدر لم يكن بد من وقوعه دعا به العبد أو لم يدع وإن لم يكن قد قدر لم يقع سواء سأله العبد أو لم يسأله فظنت طائفة صحة هذا السؤال فتركت الدعاء وقالت: لا فائدة فيه وهؤلاء مع فرط جهلهم وضلالهم متناقضون فإن طرد مذهبهم يوجب تعطيل جميع الأسباب فيقال لأحدهم: إن كان الشبع والرى قد قدرا لك فلابد من وقوعهما أكلت أو لم تأكل وإن لم يقدرا لم يقعا أكلت أو لم تأكل وإن كان الولد قدر لك فلابد منه وطأت الزوجة أو الأمة أو لم تُطأ وإن لم يقدر ذلك لم يكن فلا حاجة إلى التزوج والتسرى، وهلم جرا فهل يقول هذا عاقل أو آدمى؟! بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الأسباب التى بها قوامه وحياته فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالأنعام بل هم أضل سبيلا وتكايس بعضهم وقال الاشتغال بالدعاء من باب التعبد المحض يثيب الله عليه الداعى من غير أن يكون له تأثير فى المطلوب بوجه ما ولا فرق عند هذا المتكيس بين الدعاء وبين الإمساك عنه بالقلب واللسان فى التأثير فى حصول المطلوب وارتباط الدعاء عندهم به كارتباط السكوت ولا فرق .

وقالت طائفة أخرى أكيس من هؤلاء بل الدعاء علامة مجردة نصبها الله سبحانه وتعالى أمارة على قضاء الحاجة فمتى وفق العبد للدعاء كان ذلك علامة

له وأمارة على أن حاجته قد انقضت وهذا كما إذا رأينا غيماً أسود بارداً فى زمن الشتاء فإن ذلك دليل وعلامة على أنه يمطر.

قالوا: وهكذا حكم الطاعات مع الثواب والكفر والمعاصى مع العقاب هى أمارات محضة لوقوع الثواب والعقاب لا أنها أسباب له وهكذا عندهم الكسر مع الانكسار والحرق مع الإحراق والإزهاق مع القتل ليس شئ من ذلك سبباً البتة ولا ارتباط بينه وبين ما يترتب عليه إلا بمجرد الاقتران العادى لا التأثير السببى وخالفوا بذلك الحس والعقل والشرع والفطرة وسائر طوائف العقلاء بل أضحكوا عليهم العقلاء.

والصواب أن ها هنا قسماً ثالثاً غير ما ذكره السائل وهو أن هذا المقدور قدر بأسباب ومن أسبابه الدعاء فلم يقدر مجرداً عن سببه ولكن قدر بسببه، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور وهذا كما قدر الشبع والرى بالأكل والشرب، وقدر الولد بالوطء وقدر حصول الزرع بالبذر وقدر خروج نفس الحيوان بالذبح، وكذلك قدر دخول الجنة بالأعمال ودخول النار بالأعمال، وهذا القسم هو الحق وهذا الذى حرمه السائل ولم يوفق له.

الدعاء من أقوى الأسباب:

وحينئذ فالدعاء من أقوى الأسباب فإذا قدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال: لا فائدة فى الدعاء كما لا يقال لا فائدة فى الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال وليس شئ من الأسباب أنفع من الدعاء ولا أبلغ فى حصول المطلوب.

عمر يستنصر بالدعاء:

ولما كان الصحابة ﷺ أعلم الأمة بالله ورسوله ﷺ وأفقههم فى دينه كانوا أقوم بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم وكان عمر بن الخطاب ﷺ يستنصر به على عدوه وكان أعظم جنديه وكان يقول لأصحابه: لستم تنصرون بكثرة وإنما تنصرون من السماء وكان يقول إنى لا أحمل هم الإجابة ولكن هم الدعاء فإذا ألهمتم الدعاء فإن الإجابة معه وأخذ الشاعر هذا المعنى فنظمه فقال:

لو لم تُرِدْ نَيْل ما أرجو وأطلبه   من جود كفيك ما عودتني الطَّلَبا

فمن ألهم الدعاء فقد أريد به الإجابة فإن الله سبحانه يقول: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ [غافر:60] وقال: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ [البقرة:186].

وفي سنن ابن ماجة من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»[1]. وهذا يدل على أن رضاءه في سؤاله وطاعته وإذا رضي الرب تبارك وتعالى فكل خير في رضاه كما أن كل بلاء ومعصية في غضبه.

وقد ذكر الإمام أحمد في «كتاب الزهد» أثراً: «**أنا الله لا إله إلا أنا، إذا رضيت باركت، وليس لبركتي منتهى، وإذا غضبت لعنت، ولعنتي تبلغ السابع من الولد**».

ولقد دل العقل والنقل والفطرة وتجارب الأمم على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها على أن التقرب إلى رب العالمين وطلب مرضاته والبر والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر فما استجلبت نعم الله تعالى واستدفعت نقمته بمثل طاعته والتقرب إليه والإحسان إلى خلقه.

ارتباط الخير والشر بالعمل:

وقد رتب الله ـ سبحانه ـ حصول الخيرات في الدنيا والآخرة وحصول الشرور في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال ترتب الجزاء على الشرط والمعلول على العلة والمسبب على السبب وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع فتارة يرتب الحكم الخبري الكوني والأمر الشرعي على الوصف المناسب له كقوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**﴾ [الأعراف:166] وقوله: ﴿**فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ**﴾ [الزخرف:55] وقوله: ﴿**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا**﴾ [المائدة:38] وقوله: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ**

---

(1) سبق تخريجه ص 11 .

وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:35] وهذا كثير جداً.

وتارة يرتبه عليه بصيغة الشرط والجزاء كقوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال:29] وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة:11]، وقوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن:16] ونظائره.

وتارة يأتي بلام التعليل كقوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص:29] وقوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:143].

وتارة يأتي بأداة «كي» التي للتعليل كقوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر:7] وتارة يأتي بباء السببية كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران:182] وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:105] وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:39]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [آل عمران:112].

وتارة يأتي بالمفعول لأجله ظاهراً أو محذوفاً كقوله تعالى: ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة:282] وكقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:172] وقوله: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ [الأنعام:156] أي كراهة أن تقولوا.

وتارة يأتي بفاء السببية كقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس:14] وقوله: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة:10] وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون:48] ونظائره.

وتارة يأتي بأداة «لما» الدالة على الجزاء كقوله: ﴿فلما آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف:55]، ونظائره.

وتارة يأتي «بإن» وما عملت فيه، كقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء:90]، وقوله في ضد هؤلاء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء:77].

وتارة يأتي بأداة لولا الدالة على ارتباط ما قبلها بما بعدها كقوله: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:143،144].

وتارة يأتي بـ«لو» الدالة على الشرط كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [النساء:66].

وبالجملة فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتب الجزاء بالخير والشر والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب بل ترتب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحها ومفاسدها على الأسباب والأعمال.

ومن تفقه هذه المسألة وتأملها حق التأمل انتفع بها غاية النفع ولم يتكل على القدر جهلا منه وعجزاً وتفريطاً وإضاعة فيكون توكله عجزاً وعجزه توكلاً بل الفقيه كل الفقيه الذي يرد القدر بالقدر ويدفع القدر بالقدر ويعارض القدر بالقدر بل لا يمكن للإنسان أن يعيش إلا بذلك فإن الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر والخلق كلهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر.

وهكذا من وفقه الله وألهمه رشده يدفع قدر العقوبة الأخروية بقدر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة فهذا وزان القدر المخوف في الدنيا وما يضاده سواء، فرب الدارين واحد، وحكمته واحدة، لا يناقض بعضها بعضاً، ولا يبطل بعضها بعضاً، فهذه المسألة من أشرف المسائل لمن عرف قدرها ورعاها حق رعايتها والله المستعان.

لكن يبقى عليه أمران بهما تتم سعادته وفلاحه

أحدهما: أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير وتكون له بصيرة في ذلك بما يشاهده في العالم وما جربه في نفسه وغيره وما سمعه في أخبار الأمم قديماً وحديثاً.

التاريخ تفصيل لما جاء عن الله:

ومن أنفع ما فى ذلك تدبر القرآن فإنه كفيل بذلك على أكمل الوجوه وفيه أسباب الخير والشر جميعاً مفصلة مبينة ثم السنة فانها شقيقة القرآن وهى الوحى الثانى ومن صرف إليهما عنايته اكتفى بهما عن غيرهما وهما يريانك الخير والشر وأسبابهما حتى كأنك تعاين ذلك عياناً وبعد ذلك إذا تأملت أخبار الأمم وأيام الله فى أهل طاعته وأهل معصيته طابق ذلك ما علمته من القرآن والسنة ورأيته بتفاصيل ما أخبر الله به ووعد به وعلمت من آياته فى الآفاق ما يدلك على أن القرآن حق وأن الرسول حق وأن الله ينجز وعده لا محالة فالتاريخ تفصيل لجزئيات ما عرفنا الله ورسوله به من الأسباب الكلية للخير والشر.

فصل

مغالطة النفس حول الأسباب:

الأمر الثانى: أن يحذر مغالطة نفسه على هذه الأسباب وهذا من أهم الأمور فإن العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له فى دنياه وآخرته ولابد ولكن تغالطه نفسه بالاتكال على عفو الله ومغفرته تارة وبالتسويف بالتوبة تارة وبالاستغفار باللسان تارة وبفعل المندوبات تارة وبالعلم تارة وبالاحتجاج بالقدر تارة وبالاحتجاج بالأشباه والنظائر تارة وبالاقتداء بالأكابر تارة أخرى.

خطأ فى فهم الاستغفار:

وكثير من الناس يظن أنه لو فعل ما فعل ثم قال أستغفر الله زال الذنب وراح هذا بهذا، وقال لى رجل من المنتسبين إلى الفقه: أنا أفعل ما أفعل ثم أقول سبحان الله وبحمده مائة مرة وقد غفر ذلك أجمعه كما صح عن النبى ﷺ أنه قال: «**من قال فى يوم سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر**»[1]، وقال لى آخر من أهل مكة: نحن إذا فعل أحدنا ما فعل ثم اغتسل وطاف بالبيت أسبوعاً قد مُحى عنه ذلك، وقال لى آخر: قد صح عن

---

(1) صحيح: رواه البخارى (6405) الدعوات، ومسلم (2691) الذكر والدعاء، وأحمد (10305)، وابن ماجه (3812) الأدب.

النبي ﷺ أنه قال: «**أذنب عبد ذنباً فقال: أي رب أصبت ذنباً فاغفر لي فغفر له ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنباً آخر، فقال: أي رب أصبت ذنباً فاغفر لي فقال الله عزوجل: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي فليصنع ما شاء**»[1] وقال: أنا لا أشك أن لي رباً يغفر الذنب ويأخذ به وهذا الضرب من الناس قد تعلق بنصوص من الرجاء واتكل عليها وتعلق بها بكلتا يديه وإذا عوتب على الخطايا والانهماك فيها سرد لك ما يحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته ونصوص الرجاء وللجهال من هذا الضرب من الناس في هذا الباب غرائب وعجائب كقول بعضهم: وكثر ما استطعت من الخطايا إذا كان القدوم على كريم وقول الآخر: التنزه من الذنوب جهل بسعة عفو الله، وقول الآخر: ترك الذنوب جرأة على مغفرة الله واستصغار لها. وقال محمد بن حزم: رأيت بعض هؤلاء من يقول في دعائه اللهم إني أعوذ بك من العصمة**!!**

التعلق بالجبر:

ومن هؤلاء المغرورين من يتعلق بمسألة الجبر وأن العبد لا فعل له البتة ولا اختيار وإنما هو مجبور على فعل المعاصي.

التعلق بالإرجاء:

ومن هؤلاء من يغتر بمسألة الإرجاء وأن الإيمان هو مجرد التصديق والأعمال ليست من الإيمان وأن إيمان أفسق الناس كإيمان جبريل وميكائيل.

الخطأ في الحب:

ومن هؤلاء من يغتر بمحبة الفقراء والمشايخ والصالحين وكثرة التردد إلى قبورهم والتضرع إليهم والاستشفاع بهم والتوسل إلى الله بهم وسؤاله بحقهم عليه وحرمتهم عنده ومنهم من يغتر بآبائه وأسلافه وأن لهم عند الله مكانة وصلاحاً فلا يدعوه حتى يخلصوه كما يشاهد في حضرة الملوك، فإن الملوك تهب لخواصهم ذنوب أبنائهم وأقاربهم، وإذا وقع أحد منهم في أمر مفظع خلصه أبوه وجده لجاهه ومنزلته.

(1) صحيح: رواه البخاري (7507) التوحيد، ومسلم (2758) التوبة، وأحمد (7888) في المسند.

الاغترار بالله:

ومنهم من يغتر بأن الله عز وجل غني عن عذابه وعذابه لا يزيد في ملكه شيئاً ورحمته له لا تنقص من ملكه شيئاً فيقول أنا مضطر إلى رحمته وهو أغنى الأغنياء ولو أن فقيراً مسكيناً مضطراً إلى شربة ماء عند من في داره شط يجري لما منعه منها فالله أكرم وأوسع، والمغفرة لا تنقصه شيئاً والعقوبة لا تزيد في ملكه شيئاً.

الاغترار بالفهم الفاسد للقرآن والسنة:

ومنهم من يغتر بفهم فاسد فهمه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسنة فاتكلوا عليه كاتكال بعضهم على قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾[الضحى:5]، قالوا: وهو لا يرضى أن يكون في النار أحد من أمته وهذا من أقبح الجهل وأبين الكذب عليه فإنه يرضى بما يرضى به ربه عز وجل والله تعالى يرضيه تعذيب الظلمة والفسقة والخونة والمصرين على الكبائر فحاشا رسوله أن لا يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى.

وكاتكال بعضهم على قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[الزمر:53] وهذا أيضاً من أقبح الجهل، فإن الشرك داخل في هذه الآية فإنه رأس الذنوب وأساسها، ولا خلاف أن هذه الآية في حق التائبين، فإنه يغفر ذنب كل تائب من أي ذنب كان ولو كانت الآية في حق غير التائبين لبطلت نصوص الوعيد كلها وأحاديث إخراج قوم من الموحدين من النار بالشفاعة.

وهذا إنما أتى صاحبه من قلة علمه وفهمه فإنه سبحانه هاهنا عمم وأطلق فعلم أنه أراد التائبين وفي سورة النساء خصص وقيد فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[النساء:48] فاخبر الله سبحانه أنه لا يغفر الشرك وأخبر أنه يغفر ما دونه ولو كان هذا في حق التائب لم يفرق بين الشرك وغيره.

وكاغترار بعض الجهال بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾[الانفطار:6] فيقول: كرمه. وقد يقول بعضهم: أنه لقّن المغتر حجته وهذا جهل قبيح وإنما غره به الغرور وهو الشيطان ونفسه الأمّارة بالسوء وجهله وهواه

وأتى سبحانه بلفظ ﴿الْكَرِيمِ﴾ وهو السيد العظيم المطاع الذى لا ينبغى الاغترار به ولا إهمال حقه فوضع هذا المغتر الغرور فى غير موضعه واغتر بمن لا ينبغى الاغترار به.

وكاغترار بعضهم بقوله تعالى فى النار: ﴿لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [الليل:15،16] وقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:24] ولم يدر هذا المغتر أن قوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل:14] هى نار مخصوصة من جملة دركات جهنم ولو كانت جميع جهنم فهو سبحانه لم يقل: لا يدخلها، بل قال: ﴿لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى﴾ ولا يلزم من عدم صليها عدم دخولها فإن الصلى أخص من الدخول ونفى الأخص لا يستلزم نفى الأعم.

ثم إن هذا المغتر لو تأمل الآية التى بعدها لعلم أنه غير داخل فيها فلا يكون مضموناً له أن يجنبها.

وأما قوله فى النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:24] فقد قال فى الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:133] ولا ينافى إعداد النار للكافرين أن يدخلها الفساق والظلمة ولا ينافى إعداد الجنة للمتقين أن يدخلها من فى قلبه أدنى مثقال ذرة من الإيمان ولم يعمل خيراً قط.

وكاغترار بعضهم بالاعتماد على صوم يوم عاشوراء أو يوم عرفة حتى يقول بعضهم: صوم يوم عاشوراء يكفر ذنوب العام كلها ويبقى صوم عرفة زيادة فى الأجر ولم يدر هذا المغتر أن صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم وأجل من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء وهى إنما تكفر ما بينهما إذا اجتنبت الكبائر.

فرمضان إلى رمضان والجمعة إلى الجمعه لا يقويان على تكفير الصغائر إلا مع انضمام ترك الكبائر إليها، فيقوى مجموع الأمرين على تكفير الصغائر.

فكيف يكفر صوم يوم تطوع كل كبيرة عملها العبد وهو مصر عليها غير تائب منها هذا محال على أنه لا يمتنع أن يكون صوم يوم عرفة ويوم عاشوراء مكفراً لجميع ذنوب العام على عمومه وتكون من نصوص الوعد التى لها [illegible] وموانع ويكون إصراره على الكبائر مانعاً من التكفير فإذا لم يصر [illegible] لتساعد الصوم وعدم الإصرار وتعاونهما على [illegible]

والصلوات الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدين متعاونين على تكفير الصغائر مع أنه سبحانه قد قال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء:31] فعلم أن جعل الشئ سبباً للتكفير، لا يمتنع أن يتساعد هو وسبب آخر على التكفير ، ويكون التكفير مع اجتماع السببين أقوى وأتم منه مع انفراد أحدهما وكلما قويت أسباب التكفير كان أقوى وأتم وأشمل.

حسن الظن بالله:

وكاتكال بعضهم على قوله ﷺ حاكياً عن ربه: «**أنا عند حسن ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء**»[1] يعنى ما كان فى ظنه فإنى فاعله به ولا ريب أن حسن الظن إنما يكون مع الإحسان فإن المحسن حسن الظن بربه أنه يجازيه على إحسانه ولا يخلف وعده ويقبل توبته.

وأما المسئ المصر على الكبائر والظلم والمخالفات فان وحشة المعاصى والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه وهذا موجود فى الشاهد فإن العبد الآبق المسيئ الخارج عن طاعة سيده لا يحسن الظن به ولا يجامع وحشة الإساءة إحسان الظن أبداً فإن المسئ مستوحش بقدر إساءته وأحسن الناس ظناً بربه أطوعهم له كما قال الحسن البصرى: إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل.

وكيف يكون يحسن الظن بربه من هو شارد عنه حال مرتحل فى مساخطه وما يغضبه متعرض للعنته قد هان حقه وأمره عليه فأضاعه وهان نهيه عليه فارتكبه وأصر عليه وكيف يحسن الظن بربه من بارزه بالمحاربة وعادى أولياءه ووالى أعداءه وجحد صفات كماله وأساء الظن بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ وظن بجهله أن ظاهر ذلك ضلال وكفر؟!! وكيف يحسن الظن بمن يظن أنه لا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى ولا يرضى ولا يغضب؟!.

وقد قال الله تعالى فى حق من شك فى تعلق سمعه ببعض الجزئيات وهو السر من القول: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ

(1) صحيح: رواه البخارى (7405،7505) التوحيد، ومسلم (2675) الذكر والدعاء، وأحمد (8833)، والترمذى (2388) الزهد، وابن ماجة (3822) الأدب.

﴿الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت:23] فهؤلاء لما ظنوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيراً مما يعملون كان هذا إساءة لظنهم بربهم فأرداهم ذلك الظن، وهذا شأن كل من جحد صفات كماله ونعوت جلاله ووصفه بما لا يليق به، فإذا ظن هذا أنه يدخله الجنة كان هذا غروراً وخداعاً من نفسه وتسويلاً من الشيطان لا إحسان ظن بربه.

فتأمل هذا الموضع وتأمل شدة الحاجة إليه وكيف يجتمع فى قلب العبد تيقنه بأنه ملاقى الله وأن الله يسمع كلامه ويرى مكانه ويعلم سره وعلانيته ولا يخفى عليه خافية من أمره وأنه موقوف بين يديه ومسئول عن كل ما عمل وهو مقيم على مساخطه مضيع لأوامره معطل لحقوقه وهو مع هذا يحسن الظن به وهل هذا إلاَّ من خدع النفوس وغرور الأمانى ؟!.

وقد قال أبو أمامة سهل بن حنيف: دخلت أنا وعروة بن الزبير على عائشة ﵂ فقالت: لو رأيتما رسول الله ﷺ فى مرض له وكانت عنده ستة دنانير أو سبعة دنانير فأمرنى رسول الله ﷺ أن أفرقها، قالت: فشغلنى وجع رسول الله ﷺ حتى عافاه الله ثم سألنى عنها فقال: **«ما فعلت؟ أكنت فرّقت الستة دنانير»**، فقلت: لا والله لقد شغلنى وجعك، قالت: فدعا بها فوضعها فى كفه فقال: **«ما ظن نبى الله لو لقى الله وهذه عنده»** وفى لفظ: **«ما ظن محمد بربه لو لقى الله وهذه عنده»**[1].

فيالله ما ظن أصحاب الكبائر والظلمة بالله إذا لقوه ومظالم العباد عندهم فإن كان ينفعهم قولهم: حَسَّنَّا ظنوننا بك أنك لن تعذب ظالماً ولا فاسقاً فليصنع العبد ما شاء وليرتكب كل ما نهاه الله عنه وليحسن ظنه بالله فإن النار لا تمسه، فسبحان الله ما يبلغ الغرور بالعبد؟! وقد قال إبراهيم لقومه: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات:86-87] أى ما ظنكم به أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟.

حسن الظن هو حسن العمل:

ومن تأمل هذا الموضع حق التأمل علم أن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أنه يجازيه على أعماله ويثيبه عليها ويتقبلها منه فالذى حمله على حسن العمل حسن الظن فكلما حسن

---

(1) رواه أحمد فى المسند (24212)، والهيثمى فى مجمع الزوائد (10/ 240) والبيهقى (6/ 357) وابن حبان فى صحيحه (5/ 89).

ظنه بر به حسن عمله وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز كما فى حديث الترمذى والمسند من حديث شداد بن أوس عن النبى ﷺ قال: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله**»[1].

وبالجملة فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة وأما مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتى إحسان الظن.

الفرق بين حسن الظن والغرور:

فإن قيل: بل يتأتى ذلك ويكون مستند حسن الظن سعة مغفرة الله ورحمته وعفوه وجوده وأن رحمته سبقت غضبه وأنه لا تنفعه العقوبة ولا يضره العفو.

قيل: الأمر هكذا والله فوق ذلك وأجل وأكرم وأجود وأرحم ولكن إنما يضع ذلك فى محله اللائق به فإنه سبحانه موصوف بالحكمة والعزة والانتقام وشدة البطش وعقوبة من يستحق العقوبة فلو كان معول حسن الظن على مجرد صفاته وأسمائه لاشترك فى ذلك البر والفاجر والمؤمن والكافر ووليه وعدوه فما ينفع المجرم أسماؤه وصفاته وقد باء بسخطه وغضبه وتعرض للعنته ووقع فى محارمه وانتهك حرماته بل حسن الظن ينفع من تاب وندم وأقلع وبدل السيئة بالحسنة واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة ثم أحسن الظن بعدها فهذا هو حسن ظن والأول غرور والله المستعان.

ولا تستطل هذا الفصل فإن الحاجة إليه شديدة لكل أحد يفرق بين حسن الظن بالله وبين الغرور به قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ**﴾ [البقرة:218] فجعل هؤلاء أهل الرجاء لا البطالين والفاسقين.

وقد قال تعالى: ﴿**ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [النحل: 110] فأخبر سبحانه أنه بعد هذه الأشياء غفور رحيم لمن فعلها.

فالعالم يضع الرجاء مواضعه والجاهل المغتر يضعه فى غير مواضعه.

---

(1) ضعيف: رواه أحمد (16674)، والترمذى (2459) صفة القيامة، وابن ماجة (4260) الزهد، وضعفه الألبانى فى ضعيف سنن ابن ماجة (4933) وفى ضعيف الجامع (4305).

فصل

الذين اعتمدوا على عفو الله فضيعوا أمره ونهيه

وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه فضيعوا أمره ونهيه ونسوا أنه شديد العقاب وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند.

قال معروف: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق.

وقال بعض العلماء: من قطع عضواً منك فى الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم لا تأمن أن تكون عقوبته فى الآخرة نحو هذا.

وقيل للحسن: نراك طويل البكاء، فقال: أخاف أن يطرحنى فى النار ولا يبالى.

وكان يقول: إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة، يقول أحدهم: إني أحسن الظن بربي وكذب، لو أحسن الظن لأحسن العمل.

وسأل رجل الحسن فقال: يا أبا سعيد كيف نصنع بمجالسة أقوا[illegible]فوننا حتى تكاد قلوبنا تطير، فقال: والله لأن تصحب أقواماً يخوفون[illegible] أمناً خير من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف.

وقد ثبت فى الصحيحين من حديث أسامة بن زيد قال[illegible]سول الله ﷺ يقول: «**يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار ف[illegible] بطنه فيدور فى النار كما يدور الحمار برحاه، فيطوف به أهل النار، ف[illegible] يا فلان ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه**»(١).

وذكر الإمام أحمد من حديث أبى رافع قال: مَرَّ رسول الله ﷺ بالبقيع فقال: «**أُفٍّ لَكَ**» فظننت أنه يريدنى فقال: «**لا، ولكن هذا قبر فلان بعثته ساعياً إلى آل فلان فَغَلَّ نمرة فَدُرِّع الآن مثلها من نار**»(٢).

---

(1) صحيح: رواه البخارى (3267) بدء الخلق، ومسلم (2989) الزهد والرقائق، وأحمد (21277، 21293) فى المسند.

(2) حسن: رواه أحمد (26651)، والنسائى(862) فى الإمامة والهيثمى فى المجمع (3/ 53) وحسنه الألبانى فى صحيح سنن النسائى.

وفي مسنده أيضاً من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : «**مررت ليلة أسرى بى على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت: من هؤلاء؟ قالوا: خطباء من أمتك من أهل الدنيا كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم**»(١).

وفيه أيضاً من حديثه قال: قال رسول الله ﷺ : «**لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: هؤلاء الذين كانوا يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم**»(٢).

وفيه أيضاً عنه قال: كان النبى ﷺ يكثر أن يقول: «**يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبى على دينك**، فقلنا يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا، قال: «**نعم إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كيف شاء**»(٣).

وفيه أيضاً عنه أن رسول الله ﷺ قال لجبريل: «**مالى لم أر ميكائيل ضاحكاً قط؟ قال: ما ضحك منذ خلقت النار**»(٤).

وفى «صحيح مسلم» عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار فيصبغ فى النار صبغة ثم يقال له: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب. ويؤتى بأشد الناس بؤساً فى الدنيا من أهل الجنة فيصبغ فى الجنة صبغة فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط؟ هل مر بك شدة قط، فيقول: لا والله يارب ما مر بى بؤس قط ولا رأيت شدة قط**»(٥).

وفى «المسند» من حديث البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولمّا يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير وفى يده عود ينكت به الأرض فرفع رأسه

---

(1) صحيح: رواه أحمد (11801، 12445).
(2) صحيح: رواه أحمد (12927)، وأبو داود (4878)، وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح أبى داود (4878) وكذا ذكره فى الصحيحة برقم (533).
(3) صحيح: رواه أحمد (11697 ، 13284)، والترمذى (2140)، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى (2140) والحاكم فى المستدرك (1/ 525).
(4) ضعيف: رواه أحمد (12930)، والهيثمى فى المجمع (10/ 385).
(5) صحيح: رواه مسلم (2807) صفات المنافقين، وأحمد (12699، 13048) فى المسند.

فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر» -مرتين أو ثلاثاً- ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يجئ ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: اخرجي أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان فتخرج تسيل كما تسيل القطرة منْ في السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟، فيقولون: روح فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهى به إلى السماء السابعة فيقول الله عزوجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه إلى الأرض فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله -عز وجل- فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو محمد رسول الله، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله -عزوجل- فآمنت به وصدقت، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فافرشوا له من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره.

قال: ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول: أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول: من أنت فوجهك الوجه الذي يجئ بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجئ ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتغرق في جسده فينزعها كما يُنزع السفود من الصوف المبتل فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة

عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها؟ فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: روح فلان بن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا فيستفتح فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:40] فيقول الله - عزوجل: اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى فتطرح روحه طرحاً ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:21] فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدرى فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدرى، فيقولان له: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدرى، فينادى مناد من السماء أن كذب عبدى فافرشوا له من النار وافتحوا له باباً إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح، فيقول: أبشر بالذى يسوؤك هذا يومك الذى كنت توعد فيقول: من أنت فوجهك الوجه الذى يجئ بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة»[1].

وفى لفظ لأحمد أيضاً: «ثم يقيض له أعمى أصم أبكم فى يده مرزبة لو ضرب بها جبلاً كان تراباً فيضربه ضربة حتى يصير تراباً ثم يعيده الله كما كان فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شئ إلا الثقلين»، قال البراء: «ثم يفتح له باب من النار ويمهد له من فراش النار».

وفى «المسند» أيضاً عنه قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذا بَصُرَ بجماعة فقال: «على ما اجتمع هؤلاء» قيل: على قبر يحفرونه ففزع رسول الله ﷺ فبدر بين يدى أصحابه مسرعا حتى انتهى إلى القبر فجثى على ركبتيه فاستقبلته بين يديه لأنظر ما يصنع فبكى حتى بلّ الثرى من دموعه ثم أقبل علينا فقال: «أى إخوانى لمثل هذا اليوم فاعدوا».

(1) صحيح: رواه أحمد (18063)، وأبو داود (3212) الجنائز، والنسائى (2056) الجنائز، وابن ماجه (1548) الجنائز، وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود، وانظر أحكام الجنائز (156-159).

وفى «المسند »من حديث بريدة قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ يوما فنادى ثلاث مرات: «**يا أيها الناس تدرون ما مثلى ومثلكم؟**»، قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «**إنما مثلى ومثلكم مثل قوم خافوا عدوا يأتيهم فبعثوا رجلا يترايا لهم فأبصر العدو فأقبل لينذرهم وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه فأهوى بثوبه: أيها الناس أتيتم، أيها الناس أتيتم**» ثلاث مرات[١].

وفى صحيح مسلم من حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ : «**كل مسكر حرام وإن على الله -عز وجل- عهداً لمن شرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال**، قيل: وما طينة الخبال؟ قال: **عرق أهل النار أو عصارة أهل النار**»[٢].

وفى المسند أيضاً من حديث أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ : «**إنى أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطَّتَ السماء وحق لها أن تَئطَّ ما فيها موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك ساجد، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عزوجل**»، قال أبو ذر: والله لوددت أنى شجرة تُعْضَدُ[٣].

وفى «المسند» أيضاً من حديث حذيفة قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة فلما انتهينا إلى القبر قعد على ساقيه فجعل يردد بصره فيه ثم قال: « **يضغط المؤمن فيه ضغطة تزول منها حمائله ويملأ على الكافر ناراً**» والحمائل: عروق الأنثيين[٤].

وفى «المسند» أيضاً من حديث جابر قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ حين توفى فلما صلى عليه رسول الله ﷺ ووضع فى قبره وسوى عليه

---

(1) حسن: رواه أحمد فى المسند (22439) وإسناده صحيح، والهيثمى في المجمع (2/ 188).

(2) صحيح: رواه مسلم فى الأشربة (2002) وابن ماجه فى الأشربة (3388) وسنن النسائى فى الأشربة (5709)، وأحمد فى المسند (14466).

(3) حسن: رواه أحمد (21005) والترمذى (2312) وابن ماجه (4190) الزهد، وحسنه الألبانى دون قوله: «والله لوددت ...»، انظر صحيح ابن ماجه للألبانى (3397) وصحيح الجامع (2449).

(4) حسن: رواه أحمد (22947).

سبح رسول الله ﷺ فسبحنا طويلاً ثم كبر فكبرنا فقيل: يا رسول الله لما سبحت ثم كبرت فقال: «**لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرج الله عنه**»(١).

وفى صحيح البخارى من حديث أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا وضعت الجنازة واحتملها الرجال على أعناقهم فإن كانت صالحة قالت: قدمونى: قدموني وإن كانت غير صالحة قالت: يا ويلها أين تذهبون بها؟ يسمع صوتها كل شئ إلا الإنسان ولو سمعها الإنسان لصعق**»(٢).

وفى مسند الإمام أحمد من حديث أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «**تدنوا الشمس يوم القيامة على قدر ميل، ويزاد فى حرها كذا وكذا، تغلى منها الرءوس كما تغلى القدور، يعرقون فيها على قدر خطاياهم، منهم من يبلغ إلى كعبيه ومنهم من يبلغ إلى ساقيه ومنهم من يبلغ إلى وسطه، ومنهم من يلجمه العرق**»(٣).

وفيه عن ابن عباس عن النبى ﷺ: «**كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن؟ وحنى جبهته يستمع متى يؤمر فينفخ**»، فقال أصحابه: كيف نقول؟ قال: «**قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا**»(٤).

وفى «المسند» أيضاً عن ابن عمر يرفعه: «**من تعظم فى نفسه أو اختال فى مشيته لقى الله تعالى وهو عليه غضبان**»(٥).

وفى الصحيحين عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن المصورين يعذبون يوم القيامة ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم**»(٦).

وفيهما أيضاً عنه عن النبى ﷺ: «**إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار**

(1) صحيح: رواه أحمد (14459) (14611) والهيثمى فى مجمع الزوائد (3/ 46) وابن حجر فى تعجيل المنفعة (1014).

(2) رواه البخارى (1314) الجنائز، (أحمد (11158)، النسائى (1909) الجنائز.

(3) حسن: رواه أحمد (21682)، والحاكم فى المستدرك (4/ 571)، والطبرانى فى الكبير (8/ 322).

(4) صحيح: رواه أحمد(3001 ، 10655)، والترمذى (2431، 3243)، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى.

(5) صحيح: رواه أحمد (5959)، والبخارى فى الأدب المفرد (549) باب الذكر، وصححه الألبانى فى صحيح الأدب المفرد وانظر الصحيحة (543).

(6) صحيح: رواه البخارى (5951) اللباس، ومسلم (2108) اللباس والزينة، والنسائى (5361) الزينة.

فمن أهل النار، فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله -عزوجل- يوم القيامة»[١].

وفيهما أيضاً عنه عن النبي ﷺ : «إذا صار أهل الجنة فى الجنة، وأهل النار فى النار جئ بالموت حتى يوقف بين الجنة والنار ثم يذبح، ثم ينادى مناد: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت. فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم»[٢].

وفى «المسند» عنه قال: «من اشترى ثوباً بعشرة دراهم فيها درهم حرام لم يقبل الله له صلاة ما دام عليه» ثم أدخل أصبعيه فى أذنيه ثم قال: «صمتا إن لم أكن سمعت النبى ﷺ يقوله»[٣].

وفيه عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال: «من ترك الصلاة سكراً مرة واحدة فكأنما كانت له الدنيا وما عليها فسلبها ومن ترك الصلاة سكراً أربع مرات كان حقاً على الله أن يسقيه طينة الخبال»، قيل: وما طينة الخبال يا رسول الله؟ قال: «عصارة أهل جهنم»[٤].

وفيه أيضاً عنه مرفوعاً: «من شرب الخمر مرة لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً فإن تاب تاب الله عليه، فلا أدرى فى الثالثة أو فى الرابعة قال: فإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من ردغة الخبال يوم القيامة»[٥].

وفى «المسند» أيضاً من حديث أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ :«من مات مدمناً للخمر سقاه الله من نهر الغوطة»، قيل: وما نهر الغوطة؟ قال: «نهر يجرى من فروج المومسات يؤذى أهل النار ريح فروجهن»[٦].

---

(1) صحيح: رواه البخارى (1379) الجنائز، ومسلم (2866) فى الجنة ونعيمها، وأحمد فى المسند (5098).

(2) صحيح: رواه البخارى (6548) الرقاق، ومسلم (2850) فى الجنة ونعيمها، وأحمد (5957، 5986).

(3) ضعيف: رواه أحمد (14111)، والهيثمى فى المجمع (10/ 292)، وضعفه الألبانى رحمه الله تعالى فى ضعيف الجامع (5420).

(4) حسن: رواه أحمد (6621) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح: ورواه الحاكم في المستدرك (4/ 146).

(5) صحيح: رواه أحمد (6606) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح والحاكم فى المستدرك (1/ 30) والنسائى (5670)، وصححه الألبانى فى صحيح سنن النسائى (5686).

(6) ضعيف: رواه أحمد (19075)، والحاكم (4/ 146) فى المستدرك.

وفيه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: **«يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فإما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدى فآخذ بيمينه أو آخذ بشماله»**[١].

وفى «المسند» أيضاً من حديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: **«إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه وضرب لهن رسول الله ﷺ مثلا كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً فأنضجوا ما قذفوا فيها»**[٢].

وفى الصحيح من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«يضرب الجسر على جهنم فأكون أول من يجوز، ودعاء الرسل يومئذ: «اللهم سلم سلم، به كلاليب مثل شوك السعدان، تخطف الناس بأعمالهم منهم الموبق بعمله، ومنهم المخردل ثم ينجو، حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده، وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يخرج ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله، أمر الملائكة أن يخرجوهم فيعرفونهم بعلامة أثار السجود وحرم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود، فيخرجونهم قد امتحشوا فيصب عليهم من ماء يقال له ماء الحياة فينبتون نبات الحبة فى حميل السيل»**[٣].

وفى صحيح مسلم عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة: رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال: ما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى قتلت، قال: كذبت، ولكن قاتلت ليقال هو جرئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار. ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتى به فَعَرَّفَهُ نعمه فعرفها، فقال: ما عملت فيها؟ قال:**

(1) ضعيف: رواه أحمد (19216)، والترمذى (2425) فى صفة القيامة عن طريق آخر، وابن ماجه (4277) فى الزهد، وضعفه الألبانى رحمه الله فى ضعيف الجامع (6432). وفى ضعيف سنن ابن ماجه (4985).

(2) صحيح: رواه أحمد (3808) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، والهيثمى فى المجمع (10/ 189)، والطبرانى فى الكبير (10/ 261).

(3) صحيح: رواه البخارى فى الرقاق (6204) وأحمد (7660).

تعلمت فيك العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن فقال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال هو عالم، فقد قيل، وقرآت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار. ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال: ما عملت فيها؟. فقال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار، وفى لفظ «فهؤلاء أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة»[١].

وسمعت شيخ الإسلام بن تيمية يقول: كما أن خير الناس الأنبياء فشر الناس من تشبه بهم من الكذابين وادعي أنه منهم وليس منهم فخير الناس بعدهم: العلماء والشهداء والصديقون والمخلصون وشر الناس من تشبه بهم يوهم أنه منهم وليس منهم.

وفى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ : **«من كانت عنده لأخيه مظلمة فى مال أو عرض فليأته فليستحلها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده دينار ولا درهم فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته فأعطيها هذا وإلا أخذ من سيئات هذا فطرحت عليه ثم طرح فى النار»**[٢].

وفى الصحيح من حديث أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: **«من أخذ شبراً من الأرض بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين»**[٣].

وفى الصحيحين عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **«ناركم هذه التى يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، قالوا: والله إن كانت لكافية قال: فإنها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها»**[٤].

---

(1) صحيح: رواه مسلم (1905) الإيمان، وأحمد (8078).
(2) صحيح: رواه البخارى (6534) الرقاق، وأحمد (9332، 10195)، والترمذى (2419).
(3) صحيح: رواه البخارى (3196) بدء الخلق، ومسلم (1610)، وأحمد (5706).
(4) صحيح: رواه البخارى (3265) بدء الخلق، ومسلم (2843) فى الجنة وصفة نعيمها، وأحمد (7283)، والترمذى (2589)، وابن ماجة (4318).

وفى «المسند» عن معاذ قال: أوصانى رسول الله ﷺ فقال: «**لا تشرك بالله شيئاً وإن قتلت أو حرقت، ولا تَعُقَّنَّ والديك، وأن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك، ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمداً، فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله، ولا تشربن خمراً، فإنه رأس كل فاحشة، وإياك والمعصية، فإن المعصية تحل سخط الله**»[1].

والأحاديث فى هذا الباب أضعاف أضعاف ما ذكرنا فلا ينبغى لمن نصح نفسه أن يتعامى عنها ويرسل نفسه فى المعاصى ويتعلق بحسن الرجاء وحسن الظن.

قال أبو الوفاء بن عقيل: احذره ولا تغتر به فإن قطع اليد فى ثلاثة دراهم وجلد الحد فى مثل رأس الإبرة من الخمر وقد دخلت امرأة النار فى هرة[2]، واشتعلت الشملة ناراً على من غلها وقد قتل شهيداً[3].

وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية حدثنا الأعمش عن سلمان بن ميسرة عن طارق بن شهاب يرفعه قال: «**دخل رجل الجنة فى ذباب، ودخل رجل النار فى ذباب، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئاً، فقالوا لأحدهما: قرب. قال: ليس عندى شئ قالوا له: قرب ولو ذباباً، فقرب ذباباً فخلوا سبيله، فدخل النار. وقالوا للآخر: قرب فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئاً من دون الله عز وجل، فضربوا عنقه فدخل الجنة**»[4]، وهذه الكلمة الواحدة يتكلم بها العبد يهوى بها فى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب.

وربما اتكل بعض المغترين على ما يرى من نعم الله عليه فى الدنيا وأنه لايغير

---

(1) إسناده صحيح: رواه أحمد (21570)، والحاكم (4/ 41) وقال الذهبى سنده واه، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(2) صحيح: رواه الحديث عند البخارى (3318)، ومسلم (2619) وابن ماجه (4256) وأحمد فى عدة مواضع.

(3) صحيح: عند البخارى (6707)، ومسلم (115).

(4) رواه أحمد فى الزهد.

ما به ويظن ذلك أنه من محبة الله له وأنه يعطيه في الآخرة أفضل من ذلك وهذا من الغرور، وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رِشْدين بن سعد، عن حرملة بن عمران التجيبي عن عقبة بن مسلم، عن عقبة بن عامر، عن النبي ﷺ قال: «**إذا رأيت الله عز وجل يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج** ثم تلا قوله عز وجل: ﴿**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ**﴾ [الأنعام:44]»[1].

وقال بعض السلف: إذا رأيت الله يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على معاصيه فاحذره فإنما هو استدراج منه يستدرجك به وقد قال تعالى: ﴿**وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [الزخرف:33-35].

وقد رد سبحانه على من يظن هذا الظن بقوله: ﴿**فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا**﴾ [الفجر:15-17] أي ليس كل من نَعَّمْتُهُ وَوَسَّعْتُ عليه رزقه أكون قد أكرمته، ولا كل من ابتليته وضيقت عليه رزقه أكون قد اهنته، بل أبتلي هذا بالنعم، وأكرم هذا بالابتلاء.

وفي «جامع الترمذي» عنه ﷺ : «**إن الله يُعطي الدنيا مَنْ يُحِبُّ ومَنْ لا يُحِبُّ ولا يُعطي الإيمان إلا مَنْ يُحِبُّ**».

وقال بعض السلف: رب مستدرج بنعم الله عليه وهو لا يعلم، ورب مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم، ورب مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم.

(1) صحيح: رواه أحمد (16860)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (561).

فصـل

الاغتـرار بالدنيـا

وأعظم الناس غروراً من اغتر بالدنيا وعاجلها فأثرها على الآخرة ورضى بها من الآخرة حتى يقول بعض هؤلاء: الدنيا نقد والآخرة نسيئة والنقد أنفع من النسيئة.

ويقول بعضهم: ذرة منقودة ولا درة موعودة. ويقول آخر منهم: لذات الدنيا متيقنة ولذات الآخرة مشكوك فيها ولا أدع اليقين بالشك.

وهذا من أعظم تلبيس الشيطان وتسويله والبهائم العجم أعقل من هؤلاء، فإن البهيمة إذا خافت مضرة شئ لم تقدم عليه ولو ضربت وهؤلاء يقدم أحدهم على عطبه وهو بين مصدق ومكذب.

فهذا الضرب إن آمن أحدهم بالله ورسوله ولقائه والجزاء فهو من أعظم الناس حسرة، لأنه أقدم على علم وإن لم يؤمن بالله ورسوله فأبعد له.

وقول هذا القائل النقد خير من النسيئة.

جوابه: أنه إذا تساوى النقد والنسيئة فالنقد خير وإن تفاوتا وكانت النسيئة أكثر وأفضل فهى خير فكيف والدنيا كلها من أولها إلى آخرها كنفس واحد من أنفاس الآخرة.

كما فى «مسند الإمام أحمد» والترمذى من حديث المستورد بن شداد قال: قال رسول الله ﷺ : «**ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يدخل أحدكم إصبَعَهُ فى اليم فلينظر بم يرجع**»(1).

فإيثار هذا النقد على هذه النسيئة من أعظم الغبن وأقبح الجهل وإذا كان هذا نسبة الدنيا بمجموعها إلى الآخرة فما مقدار عمر الإنسان بالنسبة إلى الآخرة فأيما أولى بالعاقل: إيثار العاجل فى هذه المدة اليسيرة وحرمان الخير الدائم فى الآخرة أم ترك شئ صغير حقير منقطع عن قرب ليأخذ مالا قيمة له ولا خطر له ولا نهاية لعدده ولا غاية لأمده؟.

---

(1) صحيح: رواه أحمد (17547، 17548، 17559)، والترمذى فى الزهد (2323)، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى (2323).

فأما قول الآخر لا أترك متيقناً لمشكوك فيه.

فيقال له: إما أن تكون على شك من وعد الله ووعيده وصدق رسله، أو تكون على يقين من ذلك، فإن كنت على يقين من ذلك فما تركت إلا ذرة عاجلة منقطعة فانية عن قرب، لأمر متيقن لا شك فيه ولا انقطاع له.

وإن كنت على شك فراجع آيات الرب تعالى الدالة على وجوده، وقدرته ومشيئته، ووحدانيته، وصدق رسله، فيما أخبروا به عن الله وتجرد وقم لله ناظراً أو مناظراً، حتى يتبين لك أن ما جاءت به الرسل عن الله فهو الحق الذى لا شك فيه وأن خالق هذا العالم ورب السموات والأرض يتعالى، ويتقدس، ويتنزه عن خلاف ما أخبرت به رسله عنه. ومن نسبه إلى غير ذلك فقد شتمه وكذبه، وأنكر ربوبيته وملكه، إذ من المحال الممتنع عند كل ذى فطرة سليمة، أن يكون الملك الحق عاجزاً أو جاهلاً لا يعلم شيئاً أو لا يسمع، ولا يبصر ولا يتكلم، ولا يأمر ولا ينهى، ولا يثيب ولا يعاقب، ولا يعز من يشاء، ولا يذل من يشاء، ولا يرسل رسله إلى أطراف مملكته وجوانبها ولا يعتنى بأحوال رعيته بل يتركهم سدى ويخليهم هملاً، وهذا يقدح فى ملك آحاد ملوك البشر ولا يليق به، فكيف يجوز نسبة الملك الحق المبين إليه؟!.

وإذا تأمل الإنسان حاله من مبدأ حالة كونه نطفة إلى كماله واستوائه تبين له أن من عنى به هذه العناية ونقله في هذه الأحوال وصرفه فى هذه الأطوار لا يليق به أن يهمله ويتركه سدى، لا يأمره ولا ينهاه ولا يعرفه حقوقه عليه ولا يثيبه ولا يعاقبه ولو تأمل العبد حق التأمل لكان كل ما يبصره وما لا يبصره دليلاً له على التوحيد والنبوة والمعاد وأن القرآن كلامه.

وقد ذكرنا وجه الاستدلال بذلك فى كتاب «إيمان القرآن» عند قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة:38-40] وذكرنا طرفا من ذلك عند قوله: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:21] وأن الانسان دليل على وجود خالقه وتوحيده وصدق رسله وإثبات صفات كماله.

فقد بان بأن المضيع مغرور على التقديرين تقدير تصديقه ويقينه وتقدير تكذيبه وشكه.

كيف يجتمع اليقين بالمعاد، والتخلف عن العمل ؟

فإن قلت كيف يجتمع التصديق الجازم الذى لا شك فيه بالمعاد والجنة والنار ويتخلف العمل؟ وهل فى الطباع البشرية أن يعلم العبد أنه مطلوب غداً إلى بين يدى بعض الملوك ليعاقبه أشد عقوبة أو يكرمه أتم كرامة ويبيت ساهياً غافلاً لا يتذكر موقفه بين يدى الملك ولا يستعد له ولا يأخذ له أهبته؟.

قيل هذا لعمر الله سؤال صحيح وارد على أكثر هذا الخلق فاجتماع هذين الأمرين من أعجب الأشياء وهذا التخلف له عدة أسباب:

أحدها: ضعف العلم ونقصان اليقين ومن ظن أن العلم لا يتفاوت فقوله من أفسد الأقوال وأبطلها.

وقد سأل إبراهيم الخليل ربه أن يريه إحياء الموتى عياناً بعد علمه بقدرة الرب على ذلك ليزداد طمأنينة ويصير المعلوم غيباً شهادة.

وقد روى أحمد فى مسنده عن النبى ﷺ أنه قال: «**ليس المخبر كالمعاين**»[1].

فإذا اجتمع إلى ضعف العلم عدم استحضاره و غيبته عن القلب في كثير من أوقاته أو أكثرها لاشتغاله بما يضاده وانضم إلى ذلك تقاضى الطبع وغلبات الهوى واستيلاء الشهوة وتسويل النفس وغرور الشيطان واستبطاء الوعد وطول الأمل ورقدة الغفلة وحب العاجلة ورخص التأويل وإلف العوائد، فهناك لا يمسك الإيمان إلا الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا ولهذا السبب يتفاوت الناس فى الإيمان والأعمال حتى ينتهى إلى أدنى مثقال ذرة فى القلب.

وجماع هذه الأسباب يرجع إلى ضعف البصيرة والصبر ولهذا مدح الله سبحانه أهل الصبر واليقين وجعلهم أئمة الدين، فقال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾[السجدة:24].

---

(1) صحيح: رواه أحمد(1845) بلفظ: «ليس الخبر كالمعاينة» والحاكم (2/ 321)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (5374).

فصل

الفرق بين حسن الظن والغرور:

فقد تبين الفرق بين حسن الظن والغرور، وأن حسن الظن إن حمل على العمل وحث عليه وساق إليه فهو صحيح وإن دعا إلى البطالة والانهماك فى المعاصى فهو غرور، وحسن الظن هو الرجاء، فمن كان رجاؤه هادياً له إلى الطاعة وزاجراً له عن المعصية فهو رجاء صحيح. ومن كانت بطالته رجاء ورجاؤه بطالة وتفريطاً فهو المغرور.

ولو أن رجلاً كانت له أرض يؤمّل أن يعود عليه من مغَلّها ما ينفعه فأهملها ولم يبذرها ولم يحرثها وحسن ظنه بأنه يأتى من مغلها ما يأتى من حرث وبذر، وسقى، وتعاهد الأرض لعده الناس من أسفه السفهاء.

وكذلك لو حسن ظنه وقوى رجاؤه بأن يجيئه ولد من غير جماع، أو يصيرأعلم أهل زمانه من غير طلب العلم وحرص تام عليه وأمثال ذلك. فكذلك من حسن ظنه وقوى رجاؤه فى الفوز بالدرجات العلا والنعيم المقيم من غير تقرب إلى الله تعالى بامتثال أوامره واجتنات نواهيه وبالله التوفيق.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾[البقرة:218] فتأمل كيف جعل رجاءهم إتيانهم بهذه الطاعات؟.

وقال المغترون: إن المفرطين المضيعين لحقوق الله المعطلين لأوامره الباغين على عباده المتجرئين على محارمه، أولئك يرجون رحمة الله. وسر المسألة أن الرجاء وحسن الظن إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التى اقتضتها حكمة الله فى شرعه، وقدره، وثوابه وكرامته فيأتى العبد بها ثم يحسن ظنه بربه ويرجوه أن لا يكله إليها، وأن يجعلها موصلة إلى ما ينفعه ويصرف ما يعرضها ويبطل أثرها.

فصل

الرجـاء والأمـانى

ومما ينبغى أن يعلم أن من رجا شيئاً استلزم رجاؤه ثلاثة أمور:

أحدها: محبة ما يرجوه.

الثانى: خوفه من فواته.

الثالث: سعيه فى تحصيله بحسب الإمكان.

وأما رجاء لا يقارنه شئ من ذلك فهو من باب الأمانى والرجاء شئ والأمانى شئ آخر فكل راج خائف والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات.

وفى «جامع الترمذى» من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة**»[١].

وهو ـ سبحانه ـ كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة فعلم أن الرجاء والخوف النافع هو ما اقترن به العمل وقال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**﴾ [المؤمنون:57-61].

وقد روى الترمذى فى جامعه عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقلت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال: **لا يا ابنة الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ويخافون أن لا يتقبل منهم أولئك يسارعون فى الخيرات**»[٢]. وقد روى من حديث أبى هريرة أيضاً.

والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن.

---

(1) صحيح: رواه الترمذى (2450) فى صفة القيامة، وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (2450) وصحيح الجامع (6222).

(2) حسن: رواه الترمذى(3175) فى التفسير، وابن ماجه(4198) فى الزهد، وحسنه الألبانى فى صحيح ابن ماجه (3403).

خوف الصحابة من الله :

ومن تأمل أحوال الصحابة ﷺ وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف. ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن فهذا الصديق ﷺ يقول: «وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن» ذكره أحمد عنه. وذكر عنه أنه كان يمسك بلسانه ويقول: «هذا الذي أوردني الموارد» وكان يبكي كثيراً ويقول: «ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا»[١].

وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية الله عز وجل.

وأتى بطائر فقلَّبه ثم قال: «ما صيدَ من صَيْد ولا قُطعت من شجرة إلا بما ضيعت من التسبيح»، ولما احتضرَ قال لعائشةً: «يا بنية إني أصبت من مال المسلمين هذه العباءة وهذا الحلاب وهذا العبد فأسرعي به إلى ابن الخطاب»، وقال: «والله لوددت أني كنت هذه الشجرة تؤكل وتُعضَد»[٢].

وقال قتادة: بلغني أن أبا بكر قال: «ليتني خَضرَةٌ تأكلني الدواب»[٣]، وهذا عمر قرأ سورة الطور حتى إذا بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطور:7] بكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه.

وقال لابنه وهو في الموت: «ويحك! ضع خدي على الأرض، عساه أن يرحمني» ثم قال: «بل ويل أمي، إن لم يغفر لي» ثلاثاً، ثم قضى. وكان يمر بالآية في ورده بالليلة فتخيفه، فيبقى في البيت أياماً يعاد، يحسبونه مريضاً.

وكان في وجهه ﷺ خطان أسودان من البكاء.

وقال له ابن عباس: مصَّر الله بك الأمصار وفتح بك الفتوح وفعل وفعل فقال: «وددت أني أنجو لا أجر ولا وزْر».

---

(1) ضعيف: جزء من حديث لسعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ ورد عند ابن ماجة (1337)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (2025).

(2) ورد عند الترمذي (2312) من قول النبي ﷺ، وكذلك عند ابن ماجه (4190)، وورد عند أحمد من قول أبي ذر ﷺ (21005)، وأحمد في الزهد ص 139، صفة الصفوة (1/ 251).

(3) أحمد في الزهد ص 139 .

وهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه كان إذا وقف على القبر يبكى حتى يبل لحيته،[١] وقال: «لو أننى بين الجنة والنار لا أدرى إلى أيتهما يؤمر بى لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير».

وهذا على بن أبى طالب -رضي الله عنه- وبكاؤه وخوفه. وكان يشتد خوفه من اثنتين: طول الأمل، واتباع الهوى، قال: «فأما طول الأمل فينسى الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، ألا وإن الدنيا قد ولت مدبرة والآخرة مقبلة، ولكل واحدة بنون فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل».

وهذا أبو الدرداء- رضي الله عنه- كان يقول: «إن أشد ما أخاف على نفسى يوم القيامة أن يقال لى: يا أبا الدرداء قد علمت فكيف عملت فيما علمت؟[٢]، وكان يقول: «لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعاماً على شهوة ولا شربتم شراباً على شهوة ولا دخلتم بيتاً تستظلون فيه ولخرجتم إلى الصعيد تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم ولوددت أنى شجرة تعضد ثم تؤكل»[٣].

وكان عبد الله بن عباس أسفل عينيه مثل الشراك البالى من الدموع.

وكان أبو ذر يقول: «يا ليتنى كنت شجرة تعضد، ووددت أنى لم أخلق وعرضت عليه النفقة فقال: عندنا عنز نحلبها وحمر ننقل عليها ومحرر يخدمنا وفضل عباءة وإنى أخاف الحساب فيها.

وقرأ تميم الدارى ليلة سورة الجاثية فلما أتى على هذه الآية:﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية:21] وجعل يرددها ويبكى حتى أصبح.

وقال أبو عبيدة عامر بن الجراح: «وددت أنى كبش فذبحنى أهلى وأكلوا لحمى وحسوا مرقى»[٤] وهذا باب يطول تتبعه.

قال البخارى فى صحيحه: «باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر».

---

(1) أحمد فى الزهد ص 160 ، وأبو نعيم فى الحلية (1/ 60).
(2) ذكره الإمام أحمد فى كتاب الزهد صـ 139 وصفة الصفوة.
(3) الإمام أحمد فى الزهد صـ :139 .
(4) الإمام أحمد فى الزهد.

وقال إبراهيم التيمى: ما عرضت قولى على عملى إلا خشيت أن أكون مكذباً.

وقال ابن أبى مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبى ﷺ : كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول: أنه على إيمان جبريل وميكائيل.

ويذكر عن الحسن: ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق.

وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة: «أنشدك الله هل سمانى لك رسول الله ﷺ ؟ يعنى: فى المنافقين فيقول: لا ولا أُزَكِّى بعدك أحداً».

فسمعت شيخناً يقول: ليس مراده أنى لا أبرئ غيرك من النفاق بل المراد لا أفتح على نفسي هذا الباب فكل من سألنى هل سمانى لك رسول الله ﷺ فأزكيه.

قلت: وقريب من هذا قول النبى ﷺ للذى سأله أن يدعو له أن يكون من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب «**سبقك بها عكاشة**»[1] ولم يرد أن عكاشة وحده أحق بذلك ممن عداه من الصحابة ولكن لو دعا له لقام آخر وآخروانفتح الباب وربما قام من لم يستحق أن يكون منهم فكان الإمساك أولى والله أعلم.

فصل

ضرر الذنوب فى القلب كضرر السموم فى الأبدان :

فلنرجع إلى ما كنا فيه من ذكر دواء الداء الذى إن استمر أفسد دنيا العبد وآخرته.

فما ينبغى أن يعلم: أن الذنوب والمعاصى تضر ولابد أن ضررها فى القلب كضرر السموم فى الأبدان على إختلاف درجاتها فى الضرر.

وهل فى الدنيا والآخرة شر وداء إلا سببه الذنوب والمعاصى؟!

فما الذى أخرج الأبوين من الجنة دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟.

وما الذى أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه ومسخ ظاهره

(1) صحيح: رواه البخارى (6542) الرقاق، ومسلم (216) الإيمان، وأحمد (8949) (9573) (10146).

وباطنه فجعل صورته أقبح صورة وأشنعها، وباطنه أقبح من صورته وأشنع وبدل بالقرب بعداً، وبالرحمة لعنة، وبالجمال قبحاً، وبالجنة ناراً تلظى، وبالإيمان كفراً وبموالاة الولى الحميد أعظم عداوة ومشاقة، وبزجل التسبيح والتقديس والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش، وبلباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان فهان على الله غاية الهوان وسقط من عينه غاية السقوط وحل عليه غضب الرب تعالى فأهواه ومقته أكبر المقت فأرداه فصار قواداً لكل فاسق ومجرم رضى لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة؟ فعياذاً بك اللهم من مخالفة أمرك وارتكاب نهيك.

وما الذى أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رؤوس الجبال وما الذى سلط الريح على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية ودمرت ما مرت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة؟.

وما الذى أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطَّعت قلوبهم فى أجوافهم وماتوا عن آخرهم؟.

وما الذى رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها فأهلكهم جميعاً ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرها عليهم فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم ولاخوانهم أمثالها وما هى من الظالمين ببعيد؟.

وما الذى أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم ناراً تلظى؟.

وما الذى أغرق فرعون وقومه فى البحر ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم فالأجساد للغرق والأرواح للحرق؟.

وما الذى خسف بقارون وداره وماله وأهله؟.

وما الذى أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات ودمرها تدميراً؟.

وما الذى أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم؟.

وما الذى بعث على بنى إسرائيل قوماً أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وقتلوا الرجال وسبوا الذرية والنساء وأحرقوا الديار ونهبوا الأموال ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فأهلكوا ما قدروا عليه وتبروا ما علو تتبيراً؟.

وما الذى سلط عليهم أنواع العقوبات مرة بالقتل والسبى وخراب البلاد ومرة بجور الملوك ومرة بمسخهم قردة وخنازير وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف:167] ؟.

قال الإمام أحمد ثنا الوليد بن مسلم، حدثنا صفوان بن عمرو حدثنى عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه قال: «لما فتحت قبرص فرق بين أهلها فبكى بعضهم إلى بعض فرأيت أبا الدرداء جالساً وحده يبكى فقلت: يا أبا الدرداء ما يبكيك فى يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك يا جبير ما أهون الخلق على الله عزوجل إذا أضاعوا أمره بينما هى أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى».

وقال على بن الجعد: أنبأنا شعبة عن عمرو بن مرة قال: سمعت أبا البخترى يقول: أخبرنى من سمع النبى ﷺ يقول: «**لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم**»[1].

وفى «مسند الإمام أحمد» من حديث أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا ظهرت المعاصى فى أمتى عمهم الله بعذاب من عنده فقلت: يا رسول الله أما فيهم يومئذ أناس صالحون قال: بلى، قلت: فكيف يصنع بأولئك قال: يصيبهم ما أصاب الناس ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان**»[2].

وفى مراسيل الحسن عن النبى ﷺ: «**لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وفى كنفه مالم يمالئ قُرَّاؤُها أُمراءَهَا. ومالم يزك صلحاءُها فجارها، ومالم يُهن خيارها أشرارها فإذا هم فعلوا ذلك رفع الله يده عنهم ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب ثم ضربهم الله بالفاقة والفقر**»[3].

---

(1) صحيح : رواه أحمد (17825)، وأبو داود (4347) الملاحم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (5231) وفى صحيح سنن أبى داود أيضاً (4347).
(2) إسناده صحيح : رواه أحمد (26056)، والهيثمى فى المجمع (7/ 268).
(3) ضعيف : انظر المغنى عن حمل الأسفار للعراقى (2/ 149).

وفى المسند من حديث ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**»(١).

وفيه أيضاً عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تداعى الأكلة على قصعتها**» قلنا: يا رسول الله، أمن قلة يومئذ؟ قال: **أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، تُنْزَعَ المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل فى قلوبكم الوهن**. قالوا: وما الوهن؟ قال: **حب الحياة وكراهة الموت**(٢).

وفى «المسند» من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون فى أعراضهم**»(٣).

وفى «جامع الترمذى» من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يخرج فى آخر الزمان قوم يخْتِلون الدنيا بالدين، ويلبسون للناس مُسُوكَ الضأن من اللين ألسنتهم أحلى منَ السكر، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله - عزوجل-: أبى يغترون وعلى يجترئون؟ فبى حلفت، لأبعثن على أولئك فتنة تدع الحليم فيها حيراناً**»(٤).

وذكر ابن أبى الدنيا من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال: قال على: «يأتى على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه مساجدهم يومئذ عامرة وهى خراب من الهدى، علماؤهم شر من تحت أديم السماء، منهم خرجت الفتنة وفيهم تعود». وذكر من حديث سماك بن حرب عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال: «إذا ظهر الربا والزنا فى قرية أذن الله عزوجل بهلاكها».

ومن مراسيل الحسن: «إذا أظهر الناس العلم وضيعوا العمل وتحابوا بالألسن وتباغضوا بالقلوب وتقاطعوا الأرحام، -لعنهم الله عز وجل- عند ذلك، فأصمهم وأعمى أبصارهم».

---

(1) حسن : رواه ابن ماجه (4022) الفتن، وحسنه الألبانى فى صحيح ابن ماجة (3264) دون قوله : «وإن الرجل ...»

(2) صحيح : رواه أحمد (21891)، وأبو داود (4297)، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود (4297) وانظر المشكاة (5369) والصحيحة (956).

(3) صحيح : رواه أبو داود فى الأدب (4878) وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود وانظر الصحيحة (533).

(4) ضعيف جداً : رواه الترمذى (2404) الزهد وقال الألبانى فى صحيح سنن الترمذى : ضعيف جداً.

وفى سنن ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب قال: «كنت عاشر عشرة رهط من المهاجرين عند رسول الله ﷺ: فأقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال: «**يا معشر المهاجرين خمس خصال أعوذ بالله أن تدركوهن ما ظهرت الفاحشة فى قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم الذين مضوا، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان، وما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ولا خفر قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما فى أيديهم وما لم تعمل أئمتهم بما أنزل الله -عز وجل- فى كتابه إلا جعل الله بأسهم بينهم**»[1].

وفى «المسند» والسنن من حديث عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من كان قبلكم كان إذا عمل العامل فيهم بالخطيئة جاءه الناهى تعذيراً، فإذا كان الغد جالسه وواكله وشاربه كأنه لم يره على خطيئة بالأمس، فلما رأى الله عز وجل ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض، ثم لعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى بن مريم. ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. والذى نفس محمد بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المكر، ولتأخذن على يد السفيه، ولتأطرنَّه على الحق أطراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم**»[2].

وذكر ابن أبى الدنيا عن إبراهيم بن عمرو الصنعانى قال: أوحى الله إلى يوشع بن نون: «أنى مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم. وستين ألفاً من شرارهم. قال: يا رب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ قال: إنهم لم يغضبوا لغضبى، وكانوا يواكلونهم ويشاربونهم».

وذكر أبو عمر بن عبد البر عن أبي عمران قال: «بعث الله عزوجل ملكين إلى قرية: أن دمراها بمن فيها فوجدا فيها رجلاً قائماً يصلى فى مسجد، فقالا: يا رب

---

(1) حسن : رواه ابن ماجه (4019) فى الفتن، وحسنه الألبانى فى صحيح ابن ماجه (3262).
(2) ضعيف : رواه أبو داود (4337)، الترمذى (3047) فى التفسير، وابن ماجه (4006) فى الفتن وضعفه الألبانى فى ضعيف سنن أبى داود (4336) (4337) .

إن فيها عبدك فلاناً يصلى فقال الله عزوجل: دمراها ودمراه معهم فإنه ما تمعَّر وجهُه فى قط».

وذكر الحميدى عن سفيان بن عيينة قال: حدثنى سفيان بن سعيد عن مسعر: «أن ملكاً أمر أن يخسف بقرية فقال: يا رب إن فيها فلاناً العابد فأوحى الله عز وجل إليه: أن به فابدأ فإنه لم يتمعر وجهه فى ساعة قط».

وذكر ابن أبى الدنيا عن وهب بن منبه قال: «لما أصاب داود الخطيئة قال: يارب اغفر لى قال: قد غفرت لك وألزمت عارها بنى إسرائيل قال: يارب كيف وأنت الحكم العدل لا تظلم أحداً، أنا أعمل الخطيئة وتلزم عارها غيرى؟ فأوحى الله إليه: إنك لما عملت الخطيئة لم يعجِّلوا عليك بالإنكار».

وذكر ابن أبى الدنيا عن أنس بن مالك: «أنه دخل على عائشة هو ورجل آخر فقال لها الرجل: يا أم المؤمنين حدثينا عن الزلزلة، فقالت: إذا استباحوا الزنا وشربوا الخمور وضربوا بالمعازف غار الله عزوجل فى سمائه فقال للأرض: تزلزلى بهم فإن تابوا ونزعوا، وإلا هدِّميها عليهم. قال: يا أم المؤمنين، أعذاباً لهم؟ قالت: بلى، موعظة ورحمة للمؤمنين ونكالاً وعذاباً وسخطاً على الكافرين، فقال أنس: ما سمعت حديثاً بعد رسول الله ﷺ أنا أشد فرحاً به منى بهذا الحديث».

وذكر ابن أبى الدنيا حديثاً مرسلاً: «أن الأرض تزلزلت على عهد رسول الله ﷺ فوضع يده عليها ثم قال: **اسكنى فإنه لم يأن لك بعد** ثم التفت إلى أصحابه فقال: **إن ربكم ليستعتبكم فأعتبوه** ثم تزلزلت بالناس على عهد عمر بن الخطاب فقال: يا أيها الناس ما كانت هذه الزلزلة إلا على شئ أحدثتموه والذى نفسى بيده لئن عادت لا أساكنكم فيها أبداً».

وفى «مناقب عمر» لابن أبى الدنيا أن الأرض تزلزلت على عهد عمر فضرب يده عليها، وقال: ما لك؟ ما لك؟ أما أنها لو كانت القيامة حدثت أخبارها، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا كان يوم القيامة فليس فيها ذراع ولا شبر إلا وهو ينطق**».

وذكر الإمام أحمد عن صفية قالت: «زلزلت المدينة على عهد عمر فقال: يأيها الناس ما هذا؟ ما أسرع ما أحدثتم لئن عادت لا أساكنكم فيها».

وقال كعب: «إنما تزلزل الأرض إذا عُمل فيها بالمعاصى فترعد فرقاً من الرب -جل جلاله- أن يطلع عليها».

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار: «أما بعد فإن هذا الرجف شئ يعاتب الله عزوجل به العباد وقد كتبت إلى الأمصار أن يخرجوا فى يوم كذا وكذا فى شهر كذا وكذا فمن كان عنده شئ فليتصدق به فإن الله عز وجل يقول: **﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾**[الأعلى:14-15] وقولوا كما قال آدم: **﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾**[الأعراف:23] وقولوا كما قال نوح: **﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾**[هود:47] وقولوا كما قال يونس: **﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾**[الأنبياء:87].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر حدثنا أبو بكر عن الأعمش عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا ضن الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينة، وتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد فى سبيل الله، أنزل الله بهم بلاءً لا يرفعه حتى يراجعوا دينهم**» رواه أبو داود بإسناد حسن(١).

وذكر ابن أبى الدنيا من حديث ابن عمر قال: لقد رأيتنا وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا ضن الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة، وتركوا الجهاد فى سبيل الله، وأخذوا أذناب البقر أنزل الله عليهم من السماء بلاء فلا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم**»(٢).

وقال الحسن: «إن الفتنة والله ما هى إلا عقوبة من الله عزوجل على الناس».

ونظر بعض أنبياء بنى إسرائيل إلى ما يصنع بهم بختنصر فقال: «بما كسبت أيدينا سلطت علينا من لا يعرفك ولا يرحمنا».

وقال بختنصر لدانيال: ما الذى سلطنى على قومك؟ قال: «عظم خطيئتك وظلم قومى أنفسهم».

---

(1) صحيح : رواه أحمد(4810)، وأبو داود(3462)، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود (3462) والصحيحة (11).

(2) صحيح بطرقه : رواه ابن أبى الدنيا فى «العقوبات» (79/ 1) ورواه أبو نعيم فى الحلية (1/ 313)، والطبرانى فى الكبير (13585) وانظر الصحيحة (11) وصححه الألبانى بطرقه.

وذكر ابن أبى الدنيا من حديث عمار بن ياسر وحذيفة عن النبى ﷺ : «**إن الله -عز وجل- إذا أراد بالعباد نقمة أمات الأطفال وأعقم أرحام النساء، فتنزل النقمة وليس فيهم مرحوم**»(١).

وذكر عن مالك بن دينار قال: قرأت فى الحكمة يقول الله عزوجل: «أنا الله مالك الملوك، قلوب الملوك بيدى فمن أطاعنى جعلتهم عليه رحمة، ومن عصانى جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك ولكن توبوا إلى أعطفهم عليكم».

ومن مراسيل الحسن: «إذا أراد الله بقوم خيراً جعل أمرهم إلى حلمائهم وفيئهم عند سمحائهم وإذا أراد بقوم شراً جعل أمرهم إلى سفهائهم، وفيئهم عند بخلائهم».

وذكر الإمام أحمد وغيره عن قتادة، قال: قال موسى: «يا رب أنت فى السماء ونحن فى الأرض فما علامة غضبك من رضاك؟» قال: «إذا استعملت عليكم خياركم فهو علامة رضائى عنكم، وإذا استعملت عليكم شراركم فهو علامة سخطى عليكم».

وذكر ابن أبى الدنيا عن الفضيل بن عياض قال: أوحى الله إلى بعض الأنبياء إذا عصانى من يعرفنى سلطت عليه من لا يعرفنى.

وذكر أيضاً من حديث ابن عمر يرفعه: «والذى نفسى بيده لا تقوم الساعة حتى يبعث الله أمراء كذبة ووزراء فجرة وأعواناً خونة وعرفاء ظلمة وقراء فسقة سيماهم سيماء الرهبان وقلوبهم أنتن من الجيف أهواؤهم مختلفة فيفتح الله لهم فتنة غبراء مظلمة فيتهاوكون فيها والذى نفس محمد بيده لينقضن الإسلام عروة عروة حتى لا يقال: الله الله. لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليبعثن الله عليكم من لا يرحم صغيركم ولا يوقر كبيركم».

وفى «معجم الطبرانى» وغيره من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما طفف قوم كيلا، ولا بخسوا ميزاناً إلا منعهم الله عزوجل القطر، وما ظهر فى قوم الزنا إلا ظهر فيهم الموت، وما ظهر فى قوم الربا**

---

(١) ضعيف : ضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (1544).

إلا سلط الله عليهم الجنون، ولا ظهر في قوم القتل -يقتل بعضهم بعضاً- إلا سلط الله عليهم عدوهم، ولا ظهر في قوم عمل قوم لوط إلا ظهر فيهم الخسف وما ترك قوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا لم ترفع أعمالهم ولم يسمع دعاؤهم»[١] ورواه ابن أبي الدنيا من حديث إبراهيم بن الأشعث عن عبد الرحمن بن زيد عن أبيه عن سعيد به.

وفي المسند وغيره من حديث عروة عن عائشة قالت: دخل على رسول الله ﷺ وقد حفزه النفس فعرفت في وجهه أن قد حفزه شئ فما تكلم حتى توضأ وخرج فلصقت بالحجرة فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**يا أيها الناس إن الله عزوجل يقول لكم: مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوني فلا أجيبكم، وتستنصروني فلا أنصركم وتسألوني فلا أعطيكم**»[٢].

وقال العمري الزاهد: إن من غفلتك عن نفسك وإعراضك عن الله أن ترى ما يسخط الله فتتجاوزه ولا تأمر فيه ولا تنهى عنه خوفاً ممن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً.

وقال: من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مخافة من المخلوقين نزعت منه الطاعة ولو أمر ولده أو بعض مواليه لاستخف بحقه.

وذكر الإمام أحمد في مسنده من حديث قيس بن أبي حازم قال: قال أبو بكر الصديق: «أيها الناس إنكم تتلون هذه الآية وإنكم تضعونها على غير مواضعها: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾**[المائدة:105] وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه** وفي لفظ: **إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده**»[٣].

وذكر الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا خفيت الخطيئة لا تضر إلا صاحبها وإذا ظهرت فلم تغير ضرت العامة**»[٤].

---

(1) المنذري في الترغيب بنحوه (2/ 569-575).

(2) إسناده حسن: رواه أحمد (24727) وقال في مجمع الزوائد: فيه عاصم بن عمر أحد المجاهيل ووثقه ابن حبان وسكت عليه الأئمة.

(3) صحيح: رواه أحمد (30)، وأبو داود (4338)، سنن الترمذي (3057)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (3057).

(4) موضوع: رواه الطبراني في الأوسط (4770) وفيه مروان بن سالم الغفاري وهو متروك. انظر مجمع الزوائد (7/ 268).

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب: «توشك القرى أن تخرب وهى عامرة» قيل: وكيف تخرب وهي عامرة؟ قال: «إذا علا فجارها أبرارها وساد القبيلة منافقوها».

وذكر الأوزاعى عن حسان بن عطية أن النبى ﷺ قال: «**سيظهر شرار أمتى على خيارها حتى يستخفى المؤمن فيهم كما يستخفى المنافق فينا اليوم**».

وذكر ابن أبى الدنيا من حديث ابن عباس يرفعه قال: «**يأتى زمان يذوب فيه قلب المؤمن كما يذوب الملح فى الماء** قيل: مما ذاك يا رسول الله؟ قال: **مما يرى من المنكر لا يستطيع تغييره**».

وذكر الإمام أحمد من حديث جرير أن النبى ﷺ قال: «**ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصى، هم أعز وأكثر ممن يعمله، لم يغيروه إلا عمهم الله بعقاب**»[1].

وفى «صحيح البخارى» عن أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتابه فى النار فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع عليه أهل النار فيقولون: أى فلان ما شأنك؟ ألست كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: بلى، إنى كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه**»[2].

وذكر الإمام أحمد عن مالك بن دينار قال: «كان حبر من أحبار بنى إسرائيل يغشى منزله الرجال والنساء فيعظهم ويذكرهم بأيام الله فرأى بعض بنيه يوماً يغمز النساء فقال: مهلاً يا بنى، مهلاً يابنى، فسقط من سريره فانقطع نخاعه وأسقطت امرأته وقتل بنوه فأوحى الله إلى نبيهم أن أخبر فلاناً الحبر: أنى لا أخرج من صلبك صديقاً أبداً ما كان غضبك لى إلا أن قلت مهلا يابنى؟!..».

وذكر الإمام أحمد من حديث عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه**» وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم فجعل

---

(1) حسن: رواه أحمد (18731، 18768)، وأبو داود (4339) فى الملاحم وابن ماجه (4009)، وحسنه الألبانى فى صحيح أبى داود (4339).

(2) صحيح: رواه البخارى (3267)، وأحمد (21312، 21293).

الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجئ بالعود حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً وانضجوا ما قذفوا فيها[١].

وفى «صحيح البخارى» عن أنس بن مالك قال: إنكم لتعملون أعمالاً هى أدق فى أعينكم من الشعر وإن كنا لنعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات[٢].

وفى الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**عذبت امرأة فى هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت النار لا هى أطعمتها ولا سقتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض**»[٣].

وفى «الحلية» لأبى نعيم عن حذيفة أنه قيل له فى يوم واحد تركت بنو إسرائيل دينهم قال: لا ولكنهم كانوا إذا أمروا بشئ تركوه وإذا نهوا عن شئ ركبوه حتى انسلخوا من دينهم كما ينسلخ الرجل من قميصه.

ومن ها هنا قال بعض السلف: المعاصى بريد الكفر كما أن القبلة بريد الجماع والغناء بريد الزنا والنظر بريد العشق والمرض بريد الموت.

وفى «الحلية» أيضاً عن ابن عباس أنه قال: «يا صاحب الذنب لا تأمن سوء عاقبته، ولما يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا عملته قلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال وأنت على الذنب أعظم من الذنب، وضحكك وأنت لا تدرى ما الله صانع بك أعظم من الذنب، وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب وخوفك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب ويحك هل تدرى ما كان ذنب أيوب فابتلاه الله بالبلاء فى جسده وذهاب ماله؟ استغاث به مسكين على ظالم يدرؤه عنه فلم يعنه ولم ينه الظالم عن ظلمه فابتلاه الله».

(1) صحيح : سبق تخريجه.
(2) صحيح : رواه البخارى (6492)، وأحمد (12193).
(3) صحيح : رواه البخارى (2365) فى الأنبياء ومسلم (2242) فى البر والصلة.

قال الإمام أحمد: حدثنا الوليد قال: سمعت الأوزاعى يقول: سمعت بلال بن سعد يقول: «لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى من عصيت». وقال الفضيل بن عياض: بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله. وقيل: أوحى الله إلى موسى، يا موسى إن أول من مات من خلقى إبليس وذلك أنه عصانى وإنما أعد من عصانى من الأموات.

وفى «المسند» و«جامع الترمذى» من حديث أبى صالح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «**إن المؤمن إذا أذنب ذنباً نكت فى قلبه نكتة سوداء فإذا تاب ونزع واستغفر صقل قلبه وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك الران الذى ذكره الله عزوجل**: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:14] قال الترمذى: هذا حديث صحيح[1].

وقال حذيفة: «إذا أذنب العبد نكت فى قلبه نكتة سوداء حتى يصير قلبه كالشاة الرَّبداء.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب ثنا أبى، عن صالح، عن ابن شهاب حدثنى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «**أما بعد يا معشر قريش، فإنكم أهل هذا الأمر ما لم تعصوا الله، فإذا عصيتموه بعث إليكم من يَلحَاكم كما يُلحَى هذا القضيب لقضيب فى يده، ثم لحا قضيبه فإذا هو أبيض يَصلِدُ**»[2].

وذكر الإمام أحمد عن وهب قال: إن الرب عز وجل قال فى بعض ما يقول لبنى إسرائيل: «**إنى إذا أطعتُ رضيت وإذا رضيت باركت وليس لبركتى نهاية وإذا عصيت غضبت وإذا غضبت لعنت ولعنتى تبلغ السابع من الولد**».

وذكر أيضاً عن وكيع حدثنا زكريا عن عامر قال: كتبت عائشة إلى معاوية: «أما بعد فإن العبد إذا عمل بمعصية الله عاد حامده من الناس ذاماً».

وذكر أبو نعيم عن سالم بن أبى الجعد عن أبى الدرداء قال: «ليحذر امرؤ أن

---

(1) حسن : رواه أحمد (7892)، والترمذى (3334)، وابن ماجة (4244) فى الزهد، وحسنه الألبانى فى صحيح ابن ماجة (3441).

(2) صحيح : رواه أحمد (4367)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح. وقال الهيثمى فى المجمع (5/ 192): «رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى فى الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح».

تلعنه قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر ثم قال: تدرى مم هذا؟ قلت: لا، قال: إن العبد يخلو بمعاصى الله فيلُقى الله بُغْضَه فى قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر».
وذكر عبد الله بن أحمد فى كتاب الزهد لأبيه عن محمد بن سيرين: أنه لما ركبه الدَّين اغتم لذلك فقال: إنى لأعرف هذا الغم بذنب أصبته منذ أربعين سنة.

قد لا يؤثر الذنب فى الحال :

وهاهنا نكتة دقيقة يغلط فيها الناس فى أمر الذنب وهى إنهم لا يرون تأثيره فى الحال وقد يتأخر تأثيره فَيُنْسَى ويظن العبد أنه لا يغير بعد ذلك وأن الأمر كما قال القائل:

إذا لم يُغَبِّرْ حائط فى وُقُوعه فليس له بعد الوقــوع غُبَارُ

وسبحان الله! ماذا أهلكت هذه النكتة من الخلق! وكم أزالت من نعمة! وكم جلبت من نقمة وما أكثر المغترين بها من العلماء والفضلاء فضلاً عن الجهال! ولم يعلم المغتر أن الذنب ينقض ولو بعد حين كما ينقض السم وكما ينقض الجرح المندمل على الغش والدَّغَل.

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبى الدرداء: «اعبدوا الله كأنكم ترونه وعدوا أنفسكم فى الموتى واعلموا أن قليلاً يغنيكم خير من كثير يطغيكم واعلموا أن البر لا يبلى وأن الإثم لا ينسى».

ونظر بعض العباد إلى صبى فتأمل محاسنه، فأُتِيَ فى منامه وقيل له: لتجدنَّ غِبَّها بعد أربعين سنة.

هذا مع أن للذنب نقداً معجلاً لا يتأخر عنه قال سليمان التيمى: إن الرجل ليصيب الذنب فى السر فيصبح وعليه مذلته.

وقال يحيى بن معاذ الرازى: عجبت من ذى عقل يقول فى دعائه: اللهم لا تشمت بى الأعداء ثم هو يشمت بنفسه كل عدو له، قيل: وكيف ذلك؟ قال: يعصى الله ويشمت به فى القيامة كل عدو.

وقال ذو النون: من خان الله فى السر، هتك الله ستره فى العلانية.

فصل

من آثار المعاصى :

وللمعاصى من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن فى الدنيا والآخرة مالا يعلمه إلا الله.

فمنها: حرمان العلم فإن العلم نور يقذفه الله فى القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور.

ولما جلس الإمام الشافعى بين يدى مالك وقرأ عليه، أعجبه ما رأى من وفور فطنته وتوقد ذكائه وكمال فهمه فقال: إنى أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية. وقال الشافعى رحمه الله:

شكوت إلي وكيع سوء حفظ ... فأرشدني إلي ترك المعاصي
وقال : اعلم بأن العلم فضل ... وفضل الله لا يؤتاه عاصي

ومنها: حرمان الرزق وفى المسند: «**إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**»[1]، وقد تقدم، وكما أن تقوى الله مجلبة للرزق فترك التقوى مجلبة للفقر فما استجلب رزق بمثل ترك المعاصى.

ومنها: وحشة يجدها العاصى فى قلبه وبينه وبين الله لا توازنها ولا تقارنها لذة أصلاً ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة وهذا أمر لا يحس به إلا من فى قلبه حياة وما لجرح بميت إيلام فلو لم تترك الذنوب إلا حذراً من وقوع تلك الوحشة لكان العاقل حرياً بتركها.

وشكى رجل إلى بعض العارفين وحشة يجدها فى نفسه فقال له:

إذا كنت قد أوحشتك الذنوب ... فدعها إذا شئت واستأنس

وليس على القلب أمَرُّ من وحشة الذنب على الذنب، فالله المستعان.

ومنها: الوحشة التى تحصل بينه وبين الناس ولا سيما أهل الخير منهم فإنه يجد وحشة بينه وبينهم وكلما قويت تلك الوحشة بعد منهم ومن مجالستهم وحرم بركة الانتفاع بهم، وقرب من حزب الشيطان بقدر ما بعد من حزب

---

(1) سبق تخريجه.

الرحمن، وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم فتقع بينه وبين امرأته وولده وأقاربه وبينه وبين نفسه فتراه مستوحشاً من نفسه.

وقال بعض السلف: إنى لأعصى الله فأرى ذلك فى خُلُق دابتى وامرأتى.

ومنها: تعسير أموره عليه فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقاً دونه، أو متعسراً عليه وهذا كما إن من اتقى الله جعل له من أمره يسراً، فمن عطل التقوى جعل الله له من أمره عسراً، ويالله العجب! كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه وطرقها معسرة عليه، وهو لا يعلم من أين أُتِيَ.

ومنها: ظلمة يجدها فى قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا أدلهم فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره فإن الطاعة نور والمعصية ظلمة وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته، حتى يقع فى البدع والضلالات والأمور المهلكة وهو لا يشعر، كأعمى خرج فى ظلمة الليل يمشى وحده وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر فى العين، ثم تقوى حتى تعلو الوجه وتصير سواداً فيه يراه كل أحد.

قال عبد الله بن عباس: «إن للحسنة ضياء في الوجه ونوراً فى القلب وسعة فى الرزق وقوة فى البدن ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سواداً في الوجه وظلمة في القلب ووهناً في البدن ونقصاً فى الرزق وبغضة فى قلوب الخلق».

ومنها: أن المعاصى توهن القلب والبدن أما وهنها للقلب فأمر ظاهر بل لا تزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية.

وأما وهنها للبدن فإن المؤمن قوته فى قلبه وكلما قوى قلبه قوى بدنه، وأما الفاجر فإنه وإن كان قوى البدن فهو أضعف شئ عند الحاجة فتخونه قوته أحوج ما يكون إلى نفسه وتأمل قوة أبدان فارس والروم كيف خانتهم، أحوج ما كانوا إليها وقهرهم أهل الإيمان بقوة أبدانهم وقلوبهم؟.

ومنها: حرمان الطاعة فلو لم يكن للذنب عقوبة إلا أن يصد عن طاعة تكون بدله، وتقطع طريق طاعة أخرى فينقطع عليه بالذنب طريق ثالثة ثم رابعة وهلم جراً فينقطع عنه بالذنب طاعات كثيرة كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها وهذا كرجل أكل أكلة أوجبت له مرضة طويلة منعته من عدة أكلات أطيب منها والله المستعان.

طـول العمـر وقصـره :

ومنهـا: أن المعاصى تقصر العمر وتمحق بركتـه ولابد فإن البر كـما يزيد فى العمر فالفجور يقصر العمر. وقد اختلف الناس فى هذا الموضع.

فقالت طائفة: نقصان عمر العاصى هو ذهاب بركة عمره ومحقها عليه.

وهذا حق، وهو بعض تأثير المعاصى.

وقالت طائفة: بل تنقصه حقيقة كما تنقص الرزق فجعل الله سبحانه للبركة فى الرزق أسباباً كثيرة تكثره وتزيده وللبركة فى العمر أ، باباً كثيرة تكثره وتزيده قالوا: ولا يمتنع زيادة العمر بأسباب كما ينقص بأسباب ، فالأرزاق والآجال والسعادة والشقاوة والصحة والمرض والغنى والفقر، وإن كانت بقضاء الرب عزوجل فهو يقضى مايشاء بأسباب جعلها لمسبباتها مقتضية لها.

وقالت طائفة أخرى: تأثير المعاصى فى محق العمر إنما هو بأن حقيقة الحياة هى حياة القلب ولهذا جعل الله سبحانه الكافر ميتاً غير حى كما قال تعالى: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾[النحل:21].

فالحياة فى الحقيقة حياة القلب وعمر الإنسان مدة حياته فليس عمره إلا أوقات حياته بالله، فتلك ساعات عمره، فالبر والتقوى والطاعة تزيد فى هذه الأوقات التى هى حقيقة عمره ولا عمر له سواها.

وبالجملة، فالعبد إذا أعرض عن الله واشتغل بالمعاصى ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التى يجد غب إضاعتها يوم يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾[الفجر:24] فلا يخلو إما أن يكون له مع ذلك تطلع إلى مصالحه الدنيوية والأخروية أو لا فإن لم يكن له تطلع إلى ذلك فقد ضاع عليه عمره كله وذهبت حياته باطلاً ، وإن كان له تطلع إلى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق وتعسرت عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأضدادها، وذلك نقصان حقيقى من عمره.

وسر المسألة أن عمر الإنسان مدة حياته ولا حياة له إلا بإقباله على ربه والتنعم بحبه وذكره وإيثار مرضاته.

فصل

توالد المعاصى :

ومنها: أن المعاصى تزرع أمثالها ويولد بعضها بعضاً حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها كما قال بعض السلف: إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها وإن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها. فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى إلى جنبها: اعملنى أيضاً فإذا عملها قالت الثالثة كذلك، وهلم جراً فتضاعف الربح وتزايدت الحسنات.

وكذلك كانت السيئات أيضاً حتى تصير الطاعات والمعاصى هيئات راسخة وصفات لازمة وملكات ثابتة فلو عطل المحسن الطاعة لضاقت عليه نفسه وضاقت عليه الأرض بما رَحُبَتْ، وأحس من نفسه بأنه كالحوت إذا فارق الماء حتى يعاودها فتسكن نفسه وتقرُّ عينه.

ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاقت عليه نفسه وضاق صدره وأعيت عليه مذاهبه حتى يعاودها، حتى إن كثيراً من الفساق ليواقع المعصية من غير لذة يجدها ولا داعية إليها، إلا لما يجد من الألم بمفارقتها.

كما صرح بذلك شيخ القوم الحسن بن هانئ حيث يقول:

وكأس شَرِبْتُ على لَذَّةٍ ... وأخرى تَداوَيْتُ منها بِهَا

وقال الآخر:

وكانت دوائى وهى دائى بِعَيْنِه ... كما يَتَداوَى شارب الخَمْرِ بالخَمْرِ

ولا يزال العبد يعانى الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه وتعالى برحمته عليه الملائكة تؤزّه إليها أزًّا وتحرِّضه عليها وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها ،ولا يزال يألف المعاصى ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله عليه الشياطين فتؤزه إليها أزاً. فالأول قوَّى جند الطاعة بالمدد فصاروا من أكبر أعوانه وهذا قوى جند المعصية بالمدد فكانوا أعواناً عليه.

فصل

المعصيـة تضعف إرادة الخير :

ومنها : وهو من أخوفها على العبد أنها تضعف القلب عن إرادته فتقوى إرادة المعصية وتضعف إرادة التوبة شيئاً فشيئاً إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية فلو مات نصفه لما تاب إلى الله فيأتي من الاستغفار وتوبة الكذابين باللسان بشئ كثير وقلبه معقود بالمعصية مصرٍ عليها عازم على مواقعتها متى أمكنه وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلى الهلاك.

فصل

إلف المعصيـة

ومنها: أنه ينسلخ من القلب استقباحُها فتصير له عادة فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له ولا كلامهم فيه.

وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التهتك وتمام اللذة حتى يفتخر أحدهم بالمعصية ويحدث بها من لم يعلم أنه عملها فيقول: يا فلان عملت كذا وكذا وهذا الضرب من الناس لا يعافون ويُسد عليهم طريق التوبة وتغلق عنهم أبوابها فى الغالب كما قال النبى ﷺ : **«كل أمتى معافى إلا المجاهرون، وإن من الإجهار: أن يستر الله العبد ثم يصبح يفضح نفسه ويقول: يا فلان عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا فيهتك نفسه وقد بات يستره ربه»**[١].

المعاصى مواريث :

ومنها: أن كل معصية من المعاصى هى ميراث عن أمة من الأمم التى أهلكها الله عزوجل. فاللوطية: ميراث عن قوم لوط. وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص: ميراث عن قوم شعيب. والعلو فى الأرض بالفساد: ميراث عن قوم فرعون والتكبر والتجبر: ميراث عن قوم هود. فالعاصى لابس ثياب بعض هذه الأمم وهم أعداء الله.

وقد روى عبد الله بن أحمد فى «كتاب الزهد» لأبيه عن مالك بن دينار قال: «أوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل أن قل لقومك: لا يدخلوا مداخل

(١) صحيح : رواه البخاري (6069) فى الأدب، ومسلم (2990) فى الزهد والرقائق.

أعدائي ولا يلبسوا ملابس أعدائي ولا يركبوا مراكب أعدائي ولا يطعموا مطاعم أعدائي فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي».

وفي «مسند أحمد» من حديث عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: «**بُعِثْتُ بالسيف بين يدي الساعة حتى يُعْبَدَ الله وحده لا شريك له وجُعِلَ رزقي تحت ظِلِّ رمحي وجعل الذلة والصَّغَارُ على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم**»[1].

فصل

هوان العاصي على ربه :

ومنها: أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه. قال الحسن البصري: هانوا عليه فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد كما قال الله تعالى: ﴿**وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ**﴾ [الحج :18] وإن عظمهم الناس في الظاهر لحاجتهم إليهم أو خوفاً من شرهم فهم في قلوبهم أحقر شئ وأهونه.

هوان المعاصي على المصرين:

ومنها: أن العبد لايزال يرتكب الذنب حتى يهون عليه ويصغر في قلبه وذلك علامة الهلاك فإن الذنب كلما صغر في عين العبد عظم عند الله. وقد ذكر البخاري في صحيحه عن ابن مسعود قال: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها في أصل جبل يخاف أن يقع عليه وأن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به: هكذا فطار»[2].

فصل

شؤم الذنوب :

ومنها: أن غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنوبه، فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم قال أبو هريرة:إن الحبارى لتموت في وكرها من ظلم الظالم.

وقال مجاهد: إن البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا اشتدت السنة وأمسك المطر وتقول هذا بشؤم معصية ابن آدم.

---

(1) صحيح : رواه أحمد (5093)، والهيثمي (5/ 267) وهو في صحيح الجامع (2831).
(2) صحيح : رواه البخاري (6308) في الدعوات، ومسلم (2744) في التوبة، والترمذي (2497).

وقال عكرمة: دواب الأرض وهوامها حتى الخنافس والعقارب يقولون منعنا القطر بذنوب بنى آدم. فلا يكفيه عقاب ذنبه حتى يبوء بلعنة من لا ذنبَ له.

فصـــل

المعصية تورث الذل :

ومنها أن المعصية تورث الذل ولابد فإن العز كل العز فى طاعة الله.

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر:10] أى فليطلبها بطاعة الله فإنه لا يجدها إلا فى طاعته.

وكان من دعاء بعض السلف: اللهم أعزنى بطاعتك ولا تذلنى بمعصيتك.

وقال الحسن البصرى: انهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين[1] إن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يُذلَّ من عصاه.

وقال عبد الله بن المبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها

فصـــل

المعاصى تفسد العقل :

ومنها أن المعاصى تفسد العقل، فإن للعقل نوراً والمعصية تطفئ نور العقل ولا بُدَّ، وإذا طفئ نوره ضعف ونقص.

وقال بعض السلف: ما عصى الله أحد حتى يغيب عقله وهذا ظاهر فإنه لو حضره عقله لحجزه عن المعصية وهو فى قبضة الرب تعالى، أو تحت قهره وهو مطلع عليه، وفى داره وعلى بساطه وملائكته شهود عليه ناظرون إليه، وواعظ

---

(1) البراذين : يطلق على غير العربى من الخيل والبغال، من الفصيلة الخيلية، عظيم الخلقة، غليظ الأعضاء، قوى الأرجل، عظيم الحوافر «المعجم الوجيز» ص 44 .

القرآن ينهاه، وواعظ الإيمان ينهاه، وواعظ الموت ينهاه، وواعظ النار ينهاه، والذى يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ما يحصل له من السرور واللذة بها، فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله، والاستخفاف به ذو عقل سليم؟!.

فصل

الذنوب تطبع على القلب :

ومنها: أن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها فكان من الغافلين .

كما قال بعض السلف فى قوله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:14] قال: هو الذنب بعد الذنب.

وقال الحسن: هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب.

وقال غيره: لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم.

وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير راناً ثم يغلب حتى يصير طبعاً وقفلاً وختماً، فيصير القلب فى غشاوة وغلاف، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله، فحينئذ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد.

فصل

الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله ﷺ

ومنها: أن الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله ﷺ فإنه لعن على معاص، غيرها أكبر منها، فهى أولى بدخول فاعلها تحت اللعنة، فَلَعَنَ الواشمة والمستوشمةَ، والواصلة والموصولة[١] والنامصة والمتنمصة والواشرة والمستوشرة، ولعن آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهده.[٢]، ولعن المحلل والمحلل له[٣]. ولعن السارق[٤].

---

(1) صحيح: رواه البخارى (5640-5942) فى اللباس، وأحمد (4710) والترمذى (1759) فى اللباس، والنسائى (5090،5251) فى الزينة.

(2) صحيح: رواه مسلم (1597،1598) فى المساقاة، وأحمد فى المسند (3717) والدارمى (2535) فى البيوع، وابن ماجه (2277) فى التجارات.

(3) صحيح: رواه الترمذى (1120) فى النكاح، وأبو داود (2076) وابن ماجه (1935) وصححه الألبانى فى صحيح أبي داود (12076).

(4) صحيح: رواه البخارى (6783)، ومسلم (1687) فى الحدود، والنسائى (4873) فى قطع السارق، وابن ماجه (2583) فى الحدود وأحمد (7388).

ولعن شارب الخمر وساقيها وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومشتريها وآكل ثمنها وحاملها والمحمولة إليه[١]، ولعن من غَيَّر منار الأرض[٢] وهي أعلامها وحدودها، ولعن من لعن والديه[٣]، ولعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً يرميه بالسهام[٤]، ولعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء[٥]، ولعن من ذبح لغير الله، ولعن من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً[٦]. ولعن المصورين[٧]. ولعن من عمل عمل قوم لوط[٨]. ولعن من سب أباه وأمه[٩]. ولعن من كمه أعمى عن الطريق[١٠]. ولعن من أتى بهيمة[١١]. ولعن من وسم دابة في وجهها[١٢]. ولعن من ضار مسلماً أو مكر به[١٣] ولعن زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج[١٤]. ولعن من أفسد امرأة على زوجها أو مملوكاً على سيده[١٥]. ولعن من أتى امرأة في دبرها[١٦]. وأخبر أن من باتت مهاجرة لفراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح[١٧]. ولعن من انتسب إلى غير أبيه[١٨]. وأخبر أن من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه[١٩]. ولعن من سب الصحابة[٢٠].

---

(1) صحيح: رواه أبو داود (3674) في الأشربة وأحمد (4772، 5367، 5683) وصححه الألباني.
(2) صحيح: رواه مسلم (1978)، والنسائي (4422)، وأحمد (857).
(3) صحيح: رواه مسلم (1978)، والنسائي (4422) وأحمد (857).
(4) صحيح: رواه مسلم (1957) في الصيد، وسنن النسائي (4443،4444) في الأضاحي، سنن الترمذي (1475).
(5) صحيح: رواه البخاري (5886)، وأبو داود (4097) في اللباس، والترمذي (2784) وابن ماجه (1904)، وأحمد (3448).
(6) صحيح: رواه البخاري (1870) في الحج، ومسلم (1370)، وأبو داود (4530)، والنسائي (4734) في القسامة، وأحمد (1962).
(7) صحيح: رواه البخاري (5347) في اللباس، وأحمد في المسند (18281).
(8) صحيح: رواه أحمد (2722) والمنذري في الترغيب، والترمذي (1456)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي، وانظر صحيح الجامع (5891).
(9) صحيح: رواه البخاري (5628) في الأدب المفرد.
(10) صحيح: رواه البخاري (895) في الأدب المفرد.
(11) حسن صحيح: رواه أبو داود (4464)، وانظر صحيح سنن أبي داود للألباني.
(12) صحيح: رواه مسلم (2117) في اللباس، وأبو داود (2564) في الجهاد وأحمد في المسند (10450).
(13) ضعيف: رواه الترمذي (1941)، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي.
(14) صحيح: رواه الترمذي (320) وصححه الألباني دون لفظ: «السرج» وانظر ضعيف الترمذي للألباني.
(15) صحيح: رواه أحمد في المسند (8912)، وأبو داود (2175)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.
(16) صحيح: رواه مسلم (1435) في النكاح، وأبو داود (2162) في النكاح، وأحمد في المسند (9440، 9850).
(17) صحيح: رواه البخاري (5194) في النكاح، ومسلم (1436) في النكاح، وأحمد في المسند (7422) والدارمي (2228) في النكاح.
(18) صحيح: رواه ابن ماجه (2609) في الحدود، وأحمد في المسند (3029) وانظر صحيح الجامع (6104).
(19) صحيح: رواه مسلم (2616) في البر والصلة، وأحمد (27432).
(20) صحيح: رواه مسلم (2540، 2541) في فضائل الصحابة.

من لعنه الله

وقد لعن الله في كتابه من أفسد في الأرض وقطع رحمه وآذاه وآذى رسوله ﷺ . ولعن من كتم ما أنزل الله سبحانه من البينات والهدى[1]. ولعن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة[2]. ولعن من جعل سبيل الكافرين أهدى من سبيل المسلمين[3]. ولعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل[4]. ولعن الراشي والمرتشي والرائش[5] وهو الواسطة في الرشوة، ولعن على أشياء أخر غير هذه. فلو لم يكن في فعل ذلك إلا رضاء فاعله بأن يكون ممن يلعنه الله ورسوله وملائكته لكان في ذلك ما يدعو إلى تركه.

فصل

حرمان دعوة رسول الله

ومنها حرمان دعوة رسول الله ﷺ ودعوة الملائكة فإن الله سبحانه أمر نبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[غافر:7-9] فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التائبين المتبعين لكتابه وسنة رسوله الذين لا سبيل لهم غيرهما فلا يطمع غير هؤلاء بإجابة هذه الدعوة إذ لم يتصف بصفات المدعو له بها. والله المستعان.

---

(1) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾[البقرة:159].

(2) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[النور:23].

(3) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾[النساء:50-51].

(4) صحيح: رواه أبو داود (4098)، وأحمد في المسند (8110). وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(5) صحيح: رواه أبو داود (3580)، في الأقضية، والترمذي (1337) في الأحكام وابن ماجه (2313) في الأحكام، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

فصـــل

مـا رآه الرسول مـن عقوبات العصاة

ومن عقوبات المعاصى: ما رواه البخارى فى صحيحه من حديث سمرة بن جندب قال: «كان النبى ﷺ مما يكثر أن يقول لأصحابه: هل رأى أحد منكم البارحة رؤيا؟ قال: فيقص عليه ما شاء الله أن يقص وإنه قال لنا ذات غداة: إنه أتانى الليلة آتيان وإنهما ابتعثاني لى وإنهما قالا لى: انطلق وإنى انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع وإذا آخر قائم عليه بصخرة وإذا هو يهوى بالصخرة لرأسه فيثلع رأسه فيتدهده الحجر هاهنا فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل فى المرة الأولى. قال: قلت لهما: سبحان الله! ما هذان؟ قالا لى: انطلق انطلق. فانطلقنا فأتينا على رجل مستلق لقفاه وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد وإذا هو يأتى أحد شقَّى وجهه فيشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه ثم يتحول إلَى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصحَّ ذلك الجانب كما كان. ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل فى المرة الأولىَ قَال: قلت: سبحان الله! ما هذان؟ فقالا لى: انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا على مثل التنور فيه لغط وأصوات، قال: فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا، فقال: قلت لهم ما هؤلاء؟ قالا لى: انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا على نهر حسبت أنه كان يقول: أحمر مثل الدم وإذا فى النهر رجل سابح يسبح وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثم يأتي ذلك الذى قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجراً فينطلق فيسبح ثم يرجع إليه كلما رجع إليه فغر له فاه فألقمه حجراً قلت لهما: ما هذان؟ قالا لى: انطلق انطلق، قال: فانطلقنا فأتينا على رجل كريه المرآة كأكره ما أنت راء رجلاً مرآة وإذا هو عنده نار يَحُشُّهَا ويسعى حولها قال: قلت لهما ما هذا؟! قال: قالا لى: انطلق انطلق فانطلقنا حتى أتينا على روضة مُعَتِّمة فيها من كل لون الربيع وإذا بين

ظهراني الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولاً في السماء وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط قال: قلت لهما: ما هذا؟ ما هؤلاء؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق فانطلقنا فانتهينا إلى روضة عظيمة لم أر روضة قط أعظم منها ولا أحسن قال: قالا لي ارق فيها فارتقينا فيها إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة قال: فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا فدخلناها فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشطر منهم كاقبح ما أنت رأء قال: قالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر قال: وإذا نهر معترض يجرى كأن ماءه المحض فى البياض فذهبوا فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم قال: قالا لي: هذه جنة عدن وهذاك منزلك، قال: فسما بصرى صعداً فإذا قصر مثل الربابة البيضاء قال: قالا لى: هذا منزلك قلت لهما: بارك الله فيكما فذراني فأدخله قالا أما الآن فلا وأنت داخله قلت لهما فإني رأيت منذ الليلة عجباً فما هذا الذى رأيت قال: قالا لى: أما إنا سنخبرك أما الرجل الأول الذى أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر فإنه الرجل يأخذ بالقرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة وأما الرجل الذى أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق وأما الرجال والنساء العراة الذين هم فى مثل بناء التنور فإنهم الزناة والزواني. وأما الرجل الذى أتيت عليه يسبح فى النهر ويلقم الحجارة فإنه آكل الربا وأما الرجل الكريه المرآة الذى عند النار يحشها ويسعى حولها فإنه مالك خازن جهنم. وأما الرجل الطويل الذى فى الروضة فإنه إبراهيم ﷺ وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة.

وفى رواية البرقانى ولد على الفطرة، فقال بعض المسلمين: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ : «وأولاد المشركين». وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسناً وشطر منهم قبيحاً فإنهم قوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم»[1].

(1) صحيح: رواه البخاري (7047) في التعبير، وأحمد (19595 ، 19652) فى المسند.

فصـل

الذنوب تحدث الفساد فى الأرض

ومن آثار الذنوب والمعاصى إنها تحدث فى الأرض أنواعاً من الفساد في المياه والهواء والزروع والثمار والمساكن قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:41].

قال مجاهد: إذا ولى الظالم سعى بالظلم والفساد فيحبس الله بذلك القطر فيهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ثم قرأ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ثم قال: أما والله ما هو بحركم هذا؟ ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر، وقال عكرمة: ظهر الفساد فى البر والبحر أما إنى لا أقول لكم بحركم هذا ولكن كل قرية على ماء.

وقال قتادة: أما البر فأهل العمود، وأما البحر فأهل القرى والريف قلت: وقد سمى الله تعالى الماء العذب بحراً، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر:12] وليس فى العالم بحر خلق واقفاً وإنما هى الأنهار الجارية والبحر المالح هو الساكن، فسمى القرى التى عليها المياه الجارية باسم تلك المياه.

وقال ابن زيد: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ قال: الذنوب. قلت: أراد أن الذنوب سبب الفساد الذى ظهر وإن أراد أن الفساد الذى ظهر هو الذنوب نفسها فيكون اللام في قوله: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ [الروم:41] لام العاقبة والتعليل وعلى الأول فالمراد بالفساد النقص والشر والآلام التى يحدثها الله فى الأرض عند معاصى العباد فكلما أحدثوا ذنباً أحدث الله لهم عقوبة كما قال بعض السلف: كلما أحدثتم ذنباً أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة والظاهر -والله أعلم- أن الفساد المراد به الذنوب وموجباتها ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ [الروم:41] فهذا حالنا وإنما أذاقنا الشئ اليسير من أعمالنا ولو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة.

المعاصى سبب الخسف والزلازل

ومن تأثير المعاصى فى الأرض: ما يحل بها من الخسف والزلازل ويمحق بركتها وقد مر رسول الله ﷺ على ديار ثمود فمنعهم من دخول ديارهم إلا وهم باكون[1]، ومن شرب مياههم، ومن الاستسقاء من آبارهم، حتى أمر أن يعلف العجين الذى عجن بمياههم النواضح لتأثير شؤم المعصية فى الماء وكذلك تأثير شؤم الذنوب فى نقص الثمار وماترى به من الآفات.

وقد ذكر الإمام أحمد فى مسنده فى ضمن حديث قال: وجد فى خزائن بنى أمية حبة حنطة بقدر نواة التمرة وهى فى صرة مكتوب عليها هذا كان ينبت فى زمن العدل وكثير من هذه الآفات أحدثها الله سبحانه وتعالى بما أحدث العباد من الذنوب وأخبرنى جماعة من شيوخ الصحراء أنهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مما هى الآن وكثير من هذه الآفات التى تصيبها لم يكونوا يعرفونها وإنما حدثت من قرب.

تأثير الذنوب فى الصور

وأما تأثير الذنوب فى الصور والخلق فقد روى الترمذى فى جامعه عنه ﷺ أنه قال: «**خلق الله آدم وطوله فى السماء ستون ذراعاً فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن**»[2].

فإذا أراد الله أن يطهر الأرض من الظلمة والفجرة والخونة ويخرج عبداً من عباده من أهل بيت نبيه ﷺ فيملأ الأرض قسطاً كما ملئت جوراً ويقتل المسيح اليهود والنصارى ويقيم الدين الذى بعث الله به رسوله وتخرج الأرض بركتها وتعود كما كانت حتى إن العصابة من الناس ليأكلون الرمانة ويستظلون بقحفها ويكون العنقود من العنب وقر بعير وأن اللقحة الواحدة لتكفى الفئام من الناس وهذه لأن الأرض لما طهرت من المعاصي ظهرت فيها آثار البركة من الله التي

---

(1) صحيح: رواه البخارى (3381)، ومسلم (2980)، وأحمد (5948).

(2) صحيح: رواه البخارى (3326) فى أحاديث الأنبياء، ومسلم (2841) فى الجنة، وأحمد (27388).

محقتها الذنوب والكفر ولا ريب أن العقوبات التى أنزلها الله فى الأرض بقيت آثارها سارية فى الأرض تطلب ما يشاكلها من الذنوب التى هى آثار تلك الجرائم التى عذبت بها الأمم، فهذه الآثار فى الأرض من آثار تلك العقوبات كما أن هذه المعاصى من آثار تلك الجرائم فتناسبت كلمة الله وحكمه الكونى أولاً وآخراً وكان العظيم من العقوبة للعظيم من الجناية، والأخف للأخف وهكذا يحكم سبحانه بين خلقه فى دار البرزخ ودار الجزاء.

وتأمل مقارنة الشيطان ومحله وداره فإنه لما قارن العبد واستولى عليه نزعت البركة من عمره وعمله وقوله ورزقه ولما أثرت طاعته فى الأرض ما أثرت نزعت البركة من كل محل ظهرت فيه طاعته وكذلك مسكنه لما كان الجحيم لم يكن هناك شئ من الروح والرحمة والبركة.

فصـل

الذنـوب تطفئ الغيـرة

ومن عقوبات الذنوب: أنها تطفى من القلب نار الغيرة التى هى لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن فالغيرة حرارته وناره التى تخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة كما يخرج الكير خبث الذهب والفضة والحديد وأشرف الناس وأعلاهم همة أشدهم غيرة على نفسه وخاصته وعموم الناس ولهذا كان النبى ﷺ أغير الخلق على الأمة والله سبحانه أشد غيرة منه كما ثبت فى الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**أتعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغير منه والله أغير منى**»(١).

وفى الصحيح أيضاً أنه قال فى خطبة الكسوف: «**يا أمة محمد، ما أحد أغير من الله أن يزنى عبده أو تزنى أمته**»(٢).

---

(1) صحيح: رواه البخارى (6846) فى الحدود ومسلم (1499) فى اللعان، وأحمد (17703)، والدارمى (2227) فى النكاح.

(2) رواه البخارى (5221) النكاح، ومسلم (901) فى الكسوف، وأحمد (24784)، والنسائى (1474) فى الكسوف.

وفي الصحيح أيضاً عنه أنه قال: «**لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ولا أحد أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلك أثنى على نفسه**»[١].

فجمع في هذا الحديث بين الغيرة التي أصلها كراهة القبائح وبغضها وبين محبة العذر الذي يوجب كمال العدل والرحمة والإحسان وإنه سبحانه -مع شدة غيرته- يحب أن يعتذر إليه عبده ويقبل عذر من اعتذر إليه وإنه لا يؤاخذ عبيده بارتكاب ما يغار من ارتكابه حتى يعتذر إليهم ولأجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه إعذاراً وإنذاراً وهذا غاية المجد والإحسان ونهاية الكمال.

فإن كثيراً ممن تشتد غيرته من المخلوقين تحمله شدة الغيرة على سرعة الإيقاع والعقوبة من غير إعذار منه، ومن غير قبول لعذر من اعتذر إليه، بل يكون له في نفس الأمر عذر ولا تدعه شدة الغيرة أن يقبل عذره، وكثير ممن يقبل المعاذير يحمله على قبولها قله الغيرة حتي يتوسع في طرق المعاذير، ويرى عذراً ما ليس بعذر، حتى يعتذر كثير منهم بالقدر، وكل منهما غير ممدوح على الإطلاق.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن من الغيرة ما يحبها الله ومنها ما يبغضه الله فالتي يبغضها الله الغيرة في ريبة**» وذكر الحديث[٢].

وإنما الممدوح اقتران الغيرة بالعذر فيغار في محل الغيرة ويعذر في موضع العذر ومن كان هكذا فهو الممدوح حقاً.

ولما جمع الله سبحانه صفات الكمال كلها كان أحق بالمدح من كل أحد ولا يبلغ أحد أن يمدحه كما ينبغي له بل هو كما مدح نفسه وأثنى على نفسه، فالغيور

---

(1) صحيح : رواه البخاري (4637) في النكاح، ومسلم (2760) في التوبة، أحمد (4142)، والترمذي (3530) والدارمي (2225) النكاح.

(2) حسن : رواه النسائي (2557) في الزكاة، وابن ماجه (1996) في النكاح، وحسنه الألباني في صحيح النسائي.

قد وافق ربه سبحانه فى صفة من صفاته ومن وافق الله فى صفة من صفاته قادته تلك الصفة إليه بزمامها وأدخلته على ربه وأدنته منه وقربته من رحمته وصيرته محبوباً له، فإنه سبحانه رحيم يحب الرحماء، كريم يحب الكرماء، عليم يحب العلماء، قوى يحب المؤمن القوى، وهو أحب إليه من المؤمن الضعيف حيى يحب أهل الحياء، جميل يحب أهل الجمال، وتر يحب أهل الوتر.

ولو لم يكن فى الذنوب والمعاصى إلا أنها توجب لصاحبها ضد هذه الصفات وتمنعه من الاتصاف بها لكفى بها عقوبة فإن الخطرة تنقلب وسوسة والوسوسة تصير إرادة والإرادة تقوى فتصير عزيمة ثم تصير فعلاً ثم تصير صفة لازمة وهيئة ثابتة راسخة وحينئذ يتعذر الخروج منها، كما يتعذر منها الخروج من صفاته القائمة به.

والمقصود أنه كلما اشتدت ملابسته للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله وعموم الناس وقد تضعف فى القلب جداً حتى لا يستقبح بعد ذلك القبيح لا من نفسه ولا من غيره وإذا وصل إلى هذا الحد فقد دخل فى باب الهلاك.

وكثير من هؤلاء لا يقتصر على عدم الاستقباح بل يحسن الفواحش والظلم لغيره ويزينه له ويدعوه إليه ويحثه عليه ويسعى له فى تحصيله ولهذا كان الديوث أخبث خلق الله والجنة حرام عليه وكذلك محلل الظلم والبغى لغيره ومزينه له فانظر ما الذى حملت عليه قلة الغيرة.

وهذا يدلك على أن أصل الدين الغيرة ومن لا غيرة له لا دين له فالغيرة تحمى القلب فتحمى له الجوارح فتدفع السوء والفواحش وعدم الغيرة تميت القلب فتموت له الجوارح فلا يبقى عندها دفع البتة.

ومثل الغيرة فى القلب مثل القوة التى تدفع المرض وتقاومه فإذا ذهبت القوة وجد الداء المحل قابلاً ولم يجد دافعاً فتمكن فكان الهلاك ومثلها مثل صياصي الجاموس التى يدفع بها عن نفسه وولده فإذا كسرت طمع فيه عدوه.

فصل

المعاصى تذهب الحياء

ومن عقوباتها: ذهاب الحياء الذى هو مادة حياة القلب، وهو أصل كل خير، وذهابه ذهاب الخير أجمعه.

وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**الحياء خير كله**».

وقال: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت**»[1] وفيه تفسيران:

أحدهما: أنه على التهديد والوعيد، والمعنى: من لم يستح فإنه يصنع ما شاء من القبائح، إذ الحامل على تركها الحياء، فإذا لم يكن هناك حياء يردعه عن القبائح فإنه يواقعها. وهذا تفسير أبى عبيدة.

والثانى: أن الفعل إذا لم تستح منه من الله فافعله، وإنما الذى ينبغى تركه هو ما يستحيي منه من الله. وهذا تفسير الإمام أحمد فى رواية ابن هانئ.

فعلى الأول يكون تهديداً، كقوله: ﴿**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ**﴾ [فصلت:40] .وعلى الثانى يكون إذناً وإباحة.

فإن قيل: فهل من سبيل إلى حمله على المعنيين؟

قلت: لا، ولا على قول من يحمل المشترك على جميع معانيه، لما بين الإباحة والتهديد من المنافاة، ولكن اعتبار أحد المعنيين يوجب اعتبار الآخر.

والمقصود أن الذنوب تضعف الحياء من العبد، حتى ربما انسلخ منه بالكلية، حتى إنه ربما لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه، بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبح ما يفعل، والحامل له على ذلك انسلاخه من الحياء، وإذا وصل العبد إلى هذه الحال لم يبق فى صلاحه مطمع.

وإذا رأى إبليس طلعة وجهه   حيَّا وقال: فديت من لا يفلح

(1) صحيح : رواه البخاري (3483) في الأدب، وأبو داود (4797) في الأدب، وابن ماجه (4183) في الزهد، وأحمد في المسند (16641).

والحياء مشتق من الحياة، والغيث يسمى حيًا -بالقصر- لأن به حياة الأرض والنبات والدواب، وكذلك سميت بالحياء حياة الدنيا والآخرة، فمن لا حياء فيه ميت فى الدنيا شقى فى الآخرة، وبين الذنوب وبين قلة الحياء وعدم الغيرة تلازم من الطرفين، وكل منهما يستدعى الآخر ويطلبه حثيثاً، ومن استحيى من الله عند معصيته، استحيى الله من عقوبته يوم يلقاه، ومن لم يستحِ من معصيته لم يستحِ من عقوبته.

فصل

المعاصى تضعف فى القلب تعظيم الرب

ومن عقوبات الذنوب: أنها تضعف فى القلب تعظيم الرب جل جلاله، وتضعف وقاره فى قلب العبد ولا بد، شاء أم أبى. ولو تمكن وقار الله وعظمته فى قلب العبد لما تجرأ على معاصيه، وربما اغتر المغتر، وقال: إنما يحملنى على المعاصى حسن الرجاء، وطمعى فى عفوه، لاضعف عظمته فى قلبى، وهذا من مغالطة النفس، فإن عظمة الله تعالى وجلاله فى قلب العبد تقتضى تعظيم حرماته، وتعظيم حرماته تحول بينه وبين الذنوب، والمتجرئون على معاصيه ما قدروا الله حق قدره، وكيف يقدره حق قدره، أو يعظمه ويكبره، ويرجو وقاره، ويجله من يهون عليه أمره ونهيه؟ هذا من أمحل المحال، وأبين الباطل وكفى بالعاصى عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جل جلاله، وتعظيم حرماته، ويهون عليه حقه.

ومن بعض عقوبة هذا: أن يرفع الله عز وجل مهابته من قلوب الخلق، ويهون عليهم، ويستخفون به، كما هان عليه أمره واستخف به، فعلى قدر محبة العبد لله يحبه الناس، وعلي قدر خوفه من الله يخافه الخلق، وعلي قدر تعظيمه لله، وحرماته يعظمه الناس، وكيف ينتهك عبد حرمات الله ويطمع أن لا ينتهك الناس حرماته؟ أم كيف يهون عليه حق الله ولا يهونه الله على الناس؟ أم كيف يستخف بمعاصى الله ولا يستخف به الخلق؟

وقد أشار سبحانه إلى هذا فى كتابه عند ذكر عقوبات الذنوب، وأنه أرْكس أربابها بما كسبوا، وغطى على قلوبهم، فطبع عليها بذنوبهم، وأنه نسيهم كما نسوه، وأهانهم كما أهانوا دينه، وضيعهم كما ضيعوا أمره، ولهذا قال تعالى فى آية سجود المخلوقات له: ﴿ **وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ** ﴾ [الحج:18] فإنه لما هان

عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه أهانهم الله، فلم يكن لهم من مكرم بعد أن أهانهم الله، ومن ذا يكرم من أهانه الله؟ أو يهين من أكرمه الله؟

فصل

المعصية تستدعى نسيان الله لعبده

ومن عقوباتها: أنها تستدعى نسيان الله لعبده وتركه، وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه، وهناك الهلاك الذى لا يرجى معه نجاة. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: 18، 19] فأمره بتقواه، ونهى أن يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه، وأخبر أنه عاقب من ترك التقوى بأن أنساه نفسه. أى أنساه مصالحها، وما ينجيها من عذابه، وما يوجب له الحياة الأبدية، وكمال لذتها وسرورها ونعيمها، فأنساه الله ذلك كله جزاء لما نسيه من عظمته وخوفه، والقيام بأمره، فترى العاصى مهملاً لمصالح نفسه مضيعاً لها، قد أغفل الله قلبه عن ذكره، واتبع هواه وكان أمره فرطاً، قد انفرطت عليه مصالح دنياه وآخرته، وقد فرط فى سعادته الأبدية، واستبدل بها أدنى ما يكون من لذة، إنما هى سحابة صيف أو خيال طيف، كما قيل:

أحلام نوم أو كظل زائل إن اللبيب بمثلها لا يخدع

وأعظم العقوبات نسيان العبد لنفسه، وإهماله لها، وإضاعة حظها ونصيرها من الله، وبيعها ذلك بالغبن والهوان وأبخس الثمن، فضيع من لا غنى له عنه، ولا عوض له منه، واستبدل به من عنه كل الغنى أو منه كل العوض.

من كل شىء إذا ضيعته عوض وما من الله إن ضيعته عوض

فالله سبحانه وتعالى يعوض عن كل ما سواه ولا يعوض عنه شىء، ويغنى عن كل شىء ولا يُغنى عنه شىء، ويجير من كل شىء ولا يجير منه شىء، ويمنع من كل شىء، ولا يمنع منه شىء، فكيف يستغنى العبد عن طاعة من هذا شأنه طرفة عين؟ وكيف ينسى ذكره ويضيع أمره حتى ينسيه نفسه، فيخسرها ويظلمها أعظم الظلم؟ فما ظلم العبد ربه ولكن ظلم نفسه، وما ظلمه ربه ولكن هو الذى ظلم نفسه.

فصل

المعاصى تخرج صاحبها من دائرة الإحسان

ومن عقوباتها: أنها تخرج العبد من دائرة الإحسان، وتمنعه ثواب المحسنين، فإن الإحسان إذا باشر القلب منعه من المعاصى، فإن من عبد الله كأنه يراه لم يكن ذلك إلا لاستيلاء ذكره ومحبته وخوفه ورجائه على قلبه، بحيث يصير كأنه يشاهده، وذلك يحول بينه وبين إرادة المعصية، فضلاً عن مواقعتها، فإذا خرج من دائرة الإحسان فاته صحبة رفقته الخاصة، وعيشهم الهنئ، ونعيمهم التام، فإن أراد الله به خيراً أقره فى دائرة عموم المؤمنين، فإن عصاه بالمعاصى التى تخرجه من دائرة الإيمان كما قال النبى ﷺ : «**لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع إليه فيها الناس أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن**» فإياكم إياكم، والتوبة معروضة بعد[1] .

فصل

العاصى يفوته ثواب المؤمنين

ومن فاته رفقة المؤمنين وحسن دفاع الله عنهم، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، فاته كل خير رتبه الله فى كتابه على الإيمان، وهو نحو مائة خصلة، كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها.

فمنها: الأجر العظيم: ﴿**وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: 146].

ومنها: الدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [الحج:38].

ومنها: استغفار الملائكة حملة العرش لهم: ﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ [غافر:7].

---

(1) صحيح : رواه مسلم (57) في الإيمان، والبخاري (6772) في الحدود (2475) في المظالم، وابن ماجه (3936) في الفتن وأحمد (27419) في المسند، والدارمي (2106) في الأشربة. والترمذى (2625)، والنسائي (4870) في قطع السارق.

ومنها: موالاة الله لهم، ولا يُذَلُّ مَنْ وَالاَه الله، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة:257].

ومنها: أمره ملائكته بتثبيتهم: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: 12].

ومنها: أن لهم الدرجات عند ربهم والمغفرة والرزق الكريم.

ومنها: العزة: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: 8].

ومنها: معية الله لأهل الإيمان: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال:19].

ومنها: الرفعة فى الدنيا والآخرة: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:11].

ومنها: إعطاؤهم كفلين من رحمته وإعطاؤهم نوراً يمشون به ومغفرة ذنوبهم.

ومنها: الود الذى يجعله الله سبحانه لهم، وهو أنه يحبهم ويحببهم إلى ملائكته، وأنبيائه، وعباده الصالحين.

ومنها: أمانهم من الخوف يوم يشتد الخوف:﴿ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام:48].

ومنها: أنهم المنعم عليهم الذين أمرنا أن نسأله أن يهدينا إلى صراطهم فى كل يوم وليلة سبع عشرة مرة.

ومنها: أن القرآن إنما هو هدى لهم وشفاء: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: 44]

والمقصود أن الإيمان سبب جالب لكل خير، وكل خير فى الدنيا والآخرة فسببه الإيمان، وكل شر في الدنيا والآخرة فسببه عدم الإيمان، فكيف يهون على العبد أن يرتكب شيئاً يخرجه من دائرة الإيمان، ويحول بينه وبينه، ولكن لا يخرج من دائرة عموم المسلمين؟ فإن استمرعلى الذنوب وأصر عليها خيف عليه أن يرين على قلبه، فيخرجه عن الإسلام بالكلية، ومن ها هنا اشتد خوف السلف، كما قال بعضهم: أنتم تخافون الذنوب، وأنا أخاف الكفر.

فصل

المعاصى تضعف القلب

ومن عقوباتها أنها تضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة، أو تعوقه أو توقفه وتقطعه عن السير، فلا تدعه يخطو إلى الله خطوة، هذا إن لم ترده عن وجهته إلى ورائه، فالذنب يحجب الواصل، ويقطع السائر، وينكس الطالب، والقلب إنما يسير إلى الله بقوته، فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التى تسيره، فإن زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعاً يصعب تداركه، والله المستعان.

فالذنب إما أن يميت القلب، أو يمرضه مرضاً مخوفاً، أو يضعف قوته، ولابد حتى ينتهى ضعفه إلى الأشياء الثمانية التى استعاذ منها النبى ﷺ وهى: «**الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين وغلبة الرجال**»[1] وكل اثنين منها قرينان.

فالهم والحزن قرينان، فإن المكروه الوارد على القلب إن كان من أمر مستقبل يتوقعه أحدث الهم!، وإن كان من أمر ماضٍ قد وقع، أحدث الحزن.

والعجز والكسل قرينان فإن تخلف العبد عن أسباب الخير والفلاح إن كان لعدم قدرته فهو العجز، وإن كان لعدم إرادته فهو الكسل.

والجبن والبخل قرينان، فإن عدم النفع منه إن كان ببدنه فهو الجبن، وإن كان بماله فهو البخل.

وضلع الدين وقهر الرجال قرينان، فإن استعلاء الغير عليه إن كان بحق فهو من ضلع الدين، وإن كان بباطل فهو قهر الرجال.

والمقصود أن الذنوب من أقوى الأسباب الجالبة لهذه الثمانية، كما أنها من أقوى الأسباب الجالبة، «لجهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء» ومن أقوى الأسباب الجالبة لزوال نعم الله، وتحول عافيته، وفجأة نقمته، وجميع سخطه.

---

(1) صحيح : رواه البخاري (6369) في الدعوات، ومسلم (2706) في الذكر والدعاء، والترمذي (3484) في الدعوات، والنسائي (5449) في الاستعاذة، وأبو داود (1540) في الصلاة وأحمد فى المسند (12891).

فصل

المعاصي تزيل النعم :

ومن عقوبات الذنوب: أنها تزيل النعم وتحل النقم. فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب، ولا حلت به نقمة إلا بذنب، كما قال علي بن أبي طالب ﷺ: «ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة». وقد قال تعالى: **﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾** [الشورى: 30]. وقال تعالى: **﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾** [الأنفال:53].

فأخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمته التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذى يغير ما بنفسه، فيغير طاعة الله بمعصيته، وشكره بكفره، وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غيرَّ غُيِّر عليه، جزاءً وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد.

فإن غير المعصية بالطاعة غير الله عليه العقوبة بالعافية، والذل بالعز، وقال تعالى: **﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال﴾** [الرعد:11]. وفي بعض الآثار الإلهية، عن الرب تبارك وتعالى أنه قال: «**وعزتي وجلالي، لا يكون عبد من عبيدي على ما أحب ثم ينتقل عنه إلى ما أكره، إلا انتقلت له مما يحب إلى ما يكره، ولا يكون عبد من عبيدي على ما أكره ثم ينتقل عنه إلى ما أحب، إلا انتقلت له مما يكره إلى ما يحب**».

ولقد أحسن القائل:

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا ... فَإِنَّ الْمَعَاصِي تُزِيلُ النِّعَمْ
وَحُطْهَا بِطَاعَةِ رَبِّ الْعِبَادِ ... فَرَبُّ الْعِبَادِ سَرِيعُ النِّقَمْ
وَإِيَّاكَ وَالظُّلْمَ مَهْمَا اسْتَطَعْتَ ... فَظُلْمُ الْعِبَادِ شَدِيدُ الْوَخَمْ
وَسَافِرْ بِقَلْبِكَ بَيْنَ الْوَرَى ... لِتُبْصِرَ آثَارَ مَنْ قَدْ ظَلَمْ
فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ بَعْدَهُمْ ... شُهُودٌ عَلَيْهِمْ، وَلاَ تَتَّهِمْ
وَمَا كَانَ شَيْءٌ عَلَيْهِمْ أَضَرَّ ... مِنَ الظُّلْمِ، وَهُوَ الَّذِي قَدْ قَصَمْ
فَكَمْ تَرَكُوا مِنْ جِنَانٍ وَمِنْ ... قُصُورٍ، وَأُخْرَى عَلَيْهِمْ أُطُمْ
صَلَوْا بِالْجَحِيمِ وَفَاتَ النَّعِيمُ ... وَكَانَ الَّذِي نَالَهُمْ كَالْحُلُمْ

فصـل

المعاصى تلقى الرعب والخوف فى القلوب

ومن عقوباتها ما يلقيه الله سبحانه من الرعب والخوف فى قلب العاصى، فلا تراه إلا خائفاً مرعوباً.

فإن الطاعة حصن الله الأعظم الذى من دخله كان من الآمنين من عقوبة الدنيا والآخرة، ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب، فمن أطاع الله انقلبت المخاوف فى حقه أماناً، ومن عصاه انقلبت مآمنه منه مخاوف، فلا تجد العاصى إلا وقلبه كأنه بين جناحى طائر، إن حركت الريح الباب قال: جاء الطلب، وإن سمع وقع قدم خاف أن يكون نذيراً بالعطب، يحسب أن كل صيحة عليه، وكل مكروه قاصداً إليه، فمن خاف الله آمنه من كل شئ، ومن لم يخف الله أخافه من كل شئ.

بِذَا قَضَى الله بين الناس مُذْ خُلِقُوا   أن المخاوف والإجرامَ فى قَرَنِ

المعاصى توقع فى الوحشة

ومن عقوباتها: أنها توقع الوحشة العظيمة فى القلب، فيجد المذنب نفسه مستوحشاً، قد وقعت الوحشة بينه وبين ربه، وبين الخلق وبين نفسه وكلما كثرت الذنوب اشتدت الوحشة، وأمرّ العيش عيش المستوحشين الخائفين، وأطيب العيش عيش المستأنسين، فلو فكر العاقل ووازن لذة المعصية وما توقعه من الخوف والوحشة، لعلم سوء حاله وعظيم غبنه، إذ باع أنس الطاعة وأمنها وحلاوتها بوحشة المعصية، وما توجبه من الخوف والضرر الداعى له.

كما قيل:

فإن كنت قد أوحشتك الذنوب   فدعها إذا شئت واستأنس

وسر المسألة: أن الطاعة توجب القرب من الرب سبحانه، فكلما اشتد القرب قوى الأنس، والمعصية توجب البعد من الرب، وكلما ازداد البعد قويت الوحشة.

ولهذا يجد العبد وحشة بينه وبين عدوه للبعد الذى بينهما، وإن كان ملابساً له قريباً منه، ويجد أنساً وقرباً بينه وبين من يحب، وإن كان بعيداً عنه.

والوحشة سببها الحجاب، وكلما غلظ الحجاب زادت الوحشة، فالغفلة توجب الوحشة، وأشد منها وحشة المعصية، وأشد منها وحشة الشرك والكفر،

ولا تجد أحداً ملابساً شيئاً من ذلك إلا ويعلوه من الوحشة بحسب ما لابسه منه فتعلو الوحشة وجهه وقلبه، فَيَسْتَوحَشُ ويُستَوحَشُ منه.

فصل

المعاصى تمرض القلوب

ومن عقوباتها: أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه، فلا يزال مريضاً معلولاً لا ينتفع بالأغذية التى بها حياته وصلاحه، فإن تأثير الذنوب فى القلوب كتأثير الأمراض فى الأبدان، بل الذنوب أمراض القلوب وداؤها، ولا دواء لها إلا تركها.

وقد أجمع السائرون إلى الله أن القلوب لا تعطى مناها حتى تصل إلى مولاها، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة، ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب داؤها فيصير نفس دوائها، ولا يصح لها ذلك إلا بمخالفة هواها، فهواها مرضها، وشفاؤها مخالفته، فإن استحكم المرض قتل أو كاد.

وكما أن من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه، فكذا يكون قلبه فى هذه الدار فى جنة عاجلة، لا يشبه نعيم أهلها نعيماً البتة، بل التفاوت الذى بين النعيمين كالتفاوت الذى بين نعيم الدنيا والآخرة، وهذا أمر لا يصدق به إلا من باشر قلبه هذا وهذا.

ولا تحسب أن قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ** ﴾ [الإنفطار: 13،14] مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل فى دورهم الثلاثة هم كذلك - أعنى: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار -فهؤلاء فى نعيم، وهؤلاء فى جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب؟ وأى عذاب أشد من الخوف، والهم، والحزن، وضيق الصدر، وإعراضه عن الله والدار الآخرة، وتعلقه بغير الله، وانقطاعه عن الله، بكل واد منه شعبة وكل من تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب.

فكل من أحب شيئاً غير الله عذب به ثلاث مرات فى هذه الدار، فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل. فإذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته، والتنغيص والتنكيد عليه، وأنواع من العذاب فى هذه المعارضات، فإذا سلبه اشتد عليه عذابه، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب فى هذه الدار.

وأما فى البرزخ: فعذاب يقارنه ألم الفراق الذى لا يرجو عوده، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده، وألم الحجاب، عن الله، وألم الحسرة التى تقطع الأكباد، فالهم، والغم، والحسرة، والحزن تعمل فى نفوسهم نظير ما تعمل الهوام والديدان فى أبدانهم، بل عملها فى النفوس دائم مستمر، حتى يردها الله إلى أجسادها، فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمر، فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طرباً وفرحاً وأنساً بربه، واشتياقاً إليه، وارتياحاً بحبه، وطمأنينة بذكره؟ حتى يقول بعضهم فى حال نزعه: واطرباه. ويقول الآخر: إن كان أهل الجنة فى مثل هذا الحال، إنهم لفى عيش طيب. ويقول الآخر: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها، وما ذاقوا أطيب ما فيها.

ويقول الآخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

ويقو الآخر: إن فى الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

فيا من باع حظه الغالى بأبخس الثمن، وغُبن كل الغبن فى هذا العقد، وهو يرى أنه قد غُبنَ، إذا لم يكن لك خبرة بقيمة السلعة فسل المقوِّمين.

فيا عجباً من بضاعة معك الله مشتريها، وثمنها جنة المأوى، والسفير الذى جرى على يديه عقد التبايع وضمن الثمن عن المشترى هو الرسول ﷺ وقد بعتها بغاية الهوان، كما قال القائل:

إذا كان هذا فعل عبد بنفسه فمن ذا له من بعد ذلك يُكْرِمُ؟

يقول الله تعالى: ﴿**وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ**﴾ [الحج:18].

فصل

المعاصى تعمى البصيرة

ومن عقوباتها: أنها تعمى بصيرة القلب، وتطمس نوره، وتسد طرق العلم، وتحجب موارد الهداية.

وقد قال مالك للشافعى لما اجتمع به ورأى تلك المخايل: إنى أرى الله تعالى قد ألقى عليك نوراً، فلا تطفئه بظلمة المعصية.

ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل، وظلام المعصية يقوى حتى يصير القلب في مثل الليل البهيم، فكم من مهلك يسقط فيه ولا يبصره، كأعمى خرج بالليل في طريق ذات مهالك ومعاطب، فيا عزة السلامة، ويا سرعة العطب!. ثم تقوى تلك الظلمات، وتفيض من القلب إلى الجوارح، فيغشى الوجوه منها سواد، بحسب قوتها وتزايدها، فإذا كان عند الموت ظهرت في البرزخ، فامتلأ القبر ظلمة، كما قال النبي ﷺ: «**إن هذه القبور ممتلئة على أهلها ظلمة، وإن الله منورها بصلاتي عليهم**»[1] .

فإذا كان يوم المعاد وحشر العباد علت الوجوه علواً ظاهراً يراه كل أحد، حتى يصير الوجه أسود مثل الحممة فيا لها عقوبة لا توازن لذات الدنيا بأجمعها من أولها إلى آخرها، فكيف بقسط العبد المنغص المنكد المتعب في زمن إنما هو ساعة من حلم! فالله المستعان.

فصل

المعاصي تصغر النفوس

ومن عقوباتها: أنها تصغر النفس وتقمعها، وتدسيها وتحقرها، حتى تصير أصغر شيء وأحقره، كما أن الطاعة تنميها وتزكيها وتكبرها، قال الله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ [الشمس: 9،10]، والمعنى: قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها، وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله.

وأصل التدسية: الإخفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿**أم يدُسُّهُ في التُّرَاب**﴾ [النحل:59]، فالعاصي يدس نفسه في المعصية، ويخفي مكانها، يتوارى من الخلق من سوء ما يأتي به، قد انقمع عند نفسه، وانقمع عند الله، وانقمع عند الخلق، فالطاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتعليها، حتى تصير أشرف شيء وأكبره وأزكاه وأعلاه، ومع ذلك فهي أذل شيء وأحقره وأصغره لله تعالى، وبهذا الذل حصل لها هذا العز والشرف، والنمو فما صغَّر النفوس مثل معصية الله، وما كبرها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله.

---

(1) صحيح : رواه مسلم (956) في الجنائز، وأحمد (8804) واللفظ له.

فصـل

العاصى فى سجن الشيطان

ومن عقوباتها: أن العاصى دائماً فى أسر شيطانه وسجن شهواته، وقيود هواه، فهو أسير مسجون مقيد، ولا أسير أسوأ حالاً من أسير أسره أعدى عدو له، ولا سجن أضيق من سجن الهوى، ولا قيد أصعب من قيد الشهوة، فكيف يسير إلى الله والدار الآخرة، قلب مأسور مسجون مقيد؟ وكيف يخطو خطوة واحدة؟

وإذا قيد القلب طرقته الآفات من كل جانب بحسب قيوده. ومثل القلب مثل الطائر، كلما علا بعد عن الآفات، وكلما نزل احتوشته الآفات.

وفى الحديث: «الشيطان ذئب الإنسان»[1] .

وكما أن الشاة التى لا حافظ لها وهى بين الذئاب سريعة العطب، فكذا العبد إذا لم يكن عليه حافظ من الله فذئبه مفترسه ولا بُدّ، وإنما يكون عليه حافظ من الله بالتقوى، فهى وقاية وجنة حصينة بينه وبين ذئبه، كما هى وقاية بينه وبين عقوبة الدنيا والآخرة، وكلما كانت الشاة أقرب من الراعى كانت أسلم من الذئب، وكلما بعدت عن الراعى كانت أقرب إلى الهلاك، فأسلم ما تكون الشاة إذا قربت من الراعى، وإنما يأخذ الذئب القاصية من الغنم، وهى أبعد من الراعى.

وأصل هذا كله: أن القلب كلما كان أبعد من الله كانت الآفات إليه أسرع، وكلما قرب من الله بعدت عنه الآفات.

والبعد من الله مراتب، بعضها أشد من بعض، فالغفلة تبعد العبد عن الله، وبعد المعصية أعظم من بعد الغفلة، وبعد البدعة أعظم من بعد المعصية، وبعد النفاق والشرك أعظم من ذلك كله.

---

(1) ضعيف : رواه أحمد في المسند (21524)، (21602)، وأبو نعيم في الحلية (2/ 247) والحديث ذكره الهيثمى (2/ 23) والمنذرى (1/ 219) وقالا: إسناده صحيح لكن العلاء لم يسمع من معاذ.

فصـل

المعاصي تسقط الكرامة

ومن عقوباتها: سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه، فإن أكرم الخلق عند الله أتقاهم، وأقربهم منه منزلة أطوعهم له، وعلى قدر طاعة العبد له تكون منزلته عنده، فإذا عصاه وخالف أمره سقط من عينه، فأسقطه من قلوب عباده، وإذا لم يبق له جاه عند الخلق وهان عليهم عاملوه على حسب ذلك، فعاش بينهم أسوأ عيش: خامل الذكر، ساقط القدر، زرى الحال، لا حرمة له، ولا فرح له ولا سرور، فإن خمول الذكر وسقوط القدر والجاه جالب كل غم، وهم، وحزن، ولا سرور معه ولا فرح، وأين هذا الألم من لذة المعصية لولا سكر الشهوة؟

ومن أعظم نعم الله على العبد: أن يرفع له بين العالمين ذكره، ويعلى قدره، ولهذا خص أنبياءه ورسله من ذلك بما ليس لغيرهم، كما قال تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ**﴾ [ص:45،46]، أي: خصصناهم بخصيصة، وهو الذكر الجميل الذى يذكرون به فى هذه الدار، وهو لسان الصدق الذى سأله إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حيث قال: ﴿**وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ**﴾ [الشعراء:84]، وقال سبحانه عنه وعن بنيه: ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا**﴾ [مريم:50]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿**وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ**﴾ [الشرح:4]، فأتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم ومتابعتهم، وكل من خالفهم فاته من ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم.

فصل

المعصية مجلبة للذم

ومن عقوباتها: أنها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف، وتكسوه أسماء الذم والصغار، فتسلبه اسم المؤمن، والبر، والمحسن، والمتقى، والمطيع، والمنيب، والولى، والورع، والصالح، والعابد، والخائف، والأواب، والطيب، والمرضى، ونحوها.

وتكسوه اسم الفاجر، والعاصى، والمخالف، والمسيء، والمفسد، والخبيث، والمسخوط، والزانى، والسارق، والقاتل، والكاذب، والخائن، واللوطى، وقاطع الرحم، والغادر، وأمثالها.

فهذه أسماء الفسوق، و ﴿ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾ [الحجرات:11] الذى يوجب غضب الديان، ودخول النيران، وعيش الخزى والهوان.

وتلك أسماء توجب رضا الرحمن، ودخول الجنان، وتوجب شرف المسمى بها على سائر نوع الإنسان، فلو لم يكن فى عقوبة المعصية إلا استحقاق تلك الأسماء وموجباتها لكان فى العقل ناه عنها، ولو لم يكن فى ثواب الطاعة إلا الفوز بتلك الأسماء وموجباتها لكان فى العقل آمر بها، ولكن لا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع، ولا مقرب لما باعد، ولا مبعد لمن قرب: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج:18].

فصل

المعصية تؤثر فى العقل

ومن عقوباتها: أنها تؤثر خاصة فى نقصان العقل، فلا تجد عاقلين أحدهما مطيع لله والآخر عاص، إلا وعقل المطيع منهما أوفر وأكمل، وفكره أصح، ورأيه أسد، والصواب قرينه.

ولهذا تجد خطاب القرآن إنما هو مع أولى العقول والألباب، كقوله: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [البقرة:197]، وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:100]، وقوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [البقرة:269]، ونظائر ذلك كثيرة.

وكيف يكون عاقلاً وافر العقل من يعصى من هو فى قبضته وفى داره، وهو يعلم أنه يراه ويشاهده؟ فيعصيه وهو بعينه غير متوار عنه، ويستعين بنعمه على مساخطه، ويستدعى كل وقت غضبه عليه ولعنته له، وإبعاده من قربه، وطرده عن بابه، وإعراضه عنه، وخذلانه له، والتخلية بينه وبين نفسه وعدوه، وسقوطه من عينه، وحرمانه روح رضاه وحبه، وقرة العين بقربه، والفوز بجواره، والنظر إلى وجهه فى زمرة أوليائه، إلى أضعاف أضعاف ذلك من كرامته أهل الطاعة، وأضعاف أضعاف ذلك من عقوبة أهل المعصية.

فأى عقل لمن آثر لذة ساعة أو يوم أو دهر، ثم تنقضى كأنها حلم لم يكن، على هذا النعيم المقيم والفوز العظيم؟ بل هو سعادة الدنيا والآخرة، ولولا العقل الذى تقوم به عليه الحجة لكان بمنزلة المجانين، بل قد تكون المجانين أحسن حالاً منه وأسلم عاقبة، فهذا من هذا الوجه.

وأما تأثيرها فى نقصان العقل المعيش، فلولا الاشتراك فى هذا النقصان، لظهر لمطيعنا نقصان عقل عاصينا، ولكن الجائحة عامة، والجنون فنون.

ويا عجباً لو صحت العقول لعلمت أن طريق تحصيل اللذة والفرحة، والسرور، وطيب العيش إنما هو فى رضاء من النعيم كله فى رضاه، والألم والعذاب كله فى سخطه وغضبه، ففى رضاه قرة العيون، وسرور النفوس، وحياة القلوب،ولذة الأرواح، وطيب الحياة، ولذة العيش، وأطيب النعيم، مما لو وزن منه مثقال ذرة بنعيم الدنيا لم يف به، بل إذا حصل للقلب من ذلك أيسر نصيب لم يرض بالدنيا وما فيها عوضاً منه، ومع هذا فهو يتنعم بنصيبه من الدنيا أعظم من تنعم المترفين فيها، ولا يشوب تنعمه بذلك الحظ اليسير ما يشوب تنعم المترفين من الهموم، والغموم، والأحزان، والمعارضات، بل قد حصل على النعيمين، وهو ينتظر نعيمين آخرين أعظم منهما، وما يحصل له فى خلال ذلك من الآلام، فالأمر كما قال الله تعالى: ﴿**إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ**﴾ [النساء: 104].

فلا إله إلا الله، ما أنقص عقل ما باع الدر بالبعر، والمسك بالرجيع، ومرافقة الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، بمرافقة الذين غضب الله عليهم ولعنهم، وأعد لهم جهنم، وساءت مصيراً.

فصل

المعاصى توجب القطيعة بين العبد والرب

ومن أعظم عقوباتها: أنها توجب القطيعة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى، وإذا وقعت القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير، واتصلت به أسباب الشر، فأى فلاح وأى رجاء، وأى عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير، وقطع ما بينه وبين

وليـه ومـولاه الذى لا غنى عنه طرفـة عين، ولا بد له منـه، ولا عـوض لـه عنه، واتصلت به أسـباب الشر، ووصل مـا بينه وبين أعـدى عـدوه، فـتولاه عـدوه، وتخلى عنه وليه؟ فلا تعلم نفس ما فى هذا الانقطاع والاتصال من أنواع الآلام وأنواع العذاب.

قال بعض السلف: رأيت العبد ملقى بين الله سبحانه وبين الشيطان، فإن أعرض الله عنه تولاه الشيطان، وإن تولاه الله لم يقدر عليـه الشيطان، وقد قال تعـالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف:50]، يقـول سبحـانه لعبـاده: أنا أكـرمت أباكم، ورفعت قـدره، وفضلته على غيـره، فأمرت ملائكتى كلهم أن يسـجدوا له، تكريماً له وتشريفاً، فأطاعونى وأبى عدوى وعدوه، فعصى أمرى، وخرج عن طاعتى، فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تتخذوه وذريته أولياء من دونى، فتطيعونه فى معصيتى، وتوالونه فى خلاف مرضاتى، وهم أعدى عدو لكم؟ فواليتم عدوى وقد أمرتكم بمعاداته، ومن والى أعداء الملك كان هو وأعداؤه عنده سواء، فإن المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعاداة أعداء المطاع، وموالاة أوليائه، وأما أن توالى أعداء الملك ثم تدعى أنك مـوال له، فهـذا مـحال، هذا لـو لم يكن عـدو الملك عـدواً لكم، فكيف إذا كـان عدوكم على الحقيقة، والعداوة التى بينكم وبينه أعظم مـن العداوة التى بين الشاة والذئب؟ فكيف يليق بالعاقل أن يوالى عدوه وعدو وليه ومولاه الذى لا مولى له سواه. ونبـه سبحانه على قبح هذه الموالاة بقوله: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف:50]، كمـا نبه عـلى قبحـها بقـوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف:50]، فتبين أن عداوته لربه وعـداوته لنا، كل منهمـا سبب يدعو إلى معاداته، فما هذه الموالاة؟ ومـا هذا الاستبدال؟ بئس للظالمين بدلاً.

ويشبـه أن يكون تحت هذا الخطاب نـوع من العتـاب لطيف عـجيب، وهو أنى عاديت إبليس إذ لم يسـجد لأبيكم آدم مع ملائكتى، فكانت معاداته لأجلكم، ثم كان عاقبة هذه المعاداة أن عقدتم بينه وبينكم عقد المصالحة؟

فصل

المعاصي تمحق البركة

ومن عقوباتها: أنها تمحق بركة العمر، وبركة الرزق، وبركة العلم، وبركة العمل، وبركة الطاعة.

وبالجملة تمحق بركة الدين والدنيا، فلا تجد أقل بركة فى عمره، ودينه، ودنياه ممن عصى الله، وما محقت البركة من الأرض إلا بمعاصى الخلق.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96] وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: 16، 17]، «وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»(1). وفى الحديث: «إن روح القدس نفث في روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب، فإنه لا ينال ما عند الله إلا بطاعته، وإن الله جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط»(2).

وقد تقدم الأثر الذى ذكره أحمد فى «كتاب الزهد»: «أنا الله، إذا رضيت باركت، وليس لبركتى منتهى، وإذا غضبت لعنت، ولعنتى تدرك السابع من الولد».

وليست سعة الرزق والعمل بكثرته، ولا طول العمر بكثرة الشهور والأعوام، ولكن سعة الرزق والعمر بالبركة فيه.

وقد تقدم أن عمر العبد هو مدة حياته، ولا حياة لمن أعرض عن الله واشتغل بغيره، بل حياة البهائم خير من حياته، فإن حياة الإنسان بحياة قلبه وروحه، ولا حياة لقلبه إلا بمعرفة فاطره ومحبته وعبادته وحده، والإنابة إليه والطمأنينة بذكره، والأنس بقربه، ومن فقد هذه الحياة فقد الخير كله، ولو تعوض عنها بما

---

(1) حسن : رواه أحمد (21907)، (21932) وابن ماجه (90) في المقدمة وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (73).

(2) صحيح : روى ابن ماجه قسماً منه (2144) في التجارات، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم (1756).

تعوض مما فى الدنيا، بل ليست الدنيا بأجمعها عوضاً عن هذه الحياة، فمن كل شئ يفوت العبد عوض، وإذا فاته الله لم يعوض عنه شئ البتة.

وكيف يعوض الفقير بالذات عن الغنى بالذات، والعاجز بالذات عن القادر بالذات، والميت عن الحى الذى لا يموت، والمخلوق عن الخالق، ومن لا وجود له ولا شئ له من ذاته البتة عمن غناه وحياته وكماله وَجُوده ورحمته من لوازم ذاته؟ وكيف يعوض من لا يملك مثقال ذرة عمن له ملك السموات والأرض؟

وإنما كانت معصية الله سبباً لمحق بركة الرزق والأجل، لأن الشيطان موكل بها وبأصحابها: فسلطانه عليهم، وحوالته على هذا الديوان، وأهله، وأصحابه، وكل شئ يتصل به الشيطان ويقارنه فبركته ممحوقة، ولهذا شرع ذكر اسم الله تعالى عند الأكل، والشرب، واللبس، والركوب، والجماع، لما فى مقارنة اسم الله من البركة، وذكر اسمه يطرد الشيطان فتحصل البركة، ولا معارض له، وكل شئ لا يكون لله فبركته منزوعة، فإن الرب هو الذى يبارك وحده، والبركة كلها منه،وكل ما نسب إليه مبارك، فكلامه مبارك، ورسوله مبارك، وعبده المؤمن النافع لخلقه مبارك، وبيته الحرام مبارك، وكنانته من أرضه وهى الشام أرض البركة، وصفها بالبركة فى ست آيات من كتابه، فلا مبارك إلا هو وحده، ولا مبارك إلا ما نسب إليه، أعنى إلى ألوهيته ومحبته ورضاه، وإلا فالكون كله منسوب إلى ربوبيته وخلقه، وكل ما باعده من نفسه من الأعيان، والأقوال والأعمال فلا بركة فيه، ولا خير فيه، وكل ما كان قريباً من ذلك، ففيه من البركة على حسب قربه منه.

وضد البركة اللعنة، فأرض لعنها الله، أو شخص لعنه الله، أو عمل لعنه الله أبعد شئ من الخير والبركة، وكل ما اتصل بذلك وارتبط به وكان منه بسبيل فلا بركة فيه البتة.

وقد لعن عدوه إبليس وجعله أبعد خلقه منه، فكل ما كان من جهته فله من لعنة الله بقدر قربه منه واتصاله به، فمن هاهنا كان للمعاصى أعظم تأثير فى محق بركة العمر والرزق والعلم والعمل، وكل وقت عصيت الله فيه أو مال عصى الله به، أو بدن، أو جاه، أو علم، أو عمل فهو على صاحبه، ليس له. فليس له من عمره، وماله، وقوته، وجاهه، وعلمه، وعمله إلا ما أطاع الله به.ولهذا فمن الناس

من يعيش فى هذه الدار مائة سنة أو نحوها، ويكون عمره لا يبلغ عشر سنين أو نحوها، كما أن منهم من يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، ويكون ماله فى الحقيقة لا يبلغ ألف درهم أو نحوها، وهكذا الجاه والعلم.

وفى الترمذى عنه ﷺ : «**الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالم أو متعلم**»[1].

وفى أثر آخر: «**الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله**»[2]، فهذا هو الذى فيه البركة خاصة. والله المستعان، وعليه التكلان.

فصل

المعصية تجعل صاحبها من السفلة

ومن عقوباتها: أنها تجعل صاحبها من السفلة بعد أن كان مهيئاً لأن يكون من العلية، فإن الله خلق خلقه قسمين: علية، وسفلة، وجعل عليين مستقر العلية، وأسفل سافلين مستقر السفلة، وجعل أهل طاعته الأعلين فى الدنيا والآخرة، وأهل معصيته الأسفلين فى الدنيا والآخرة، كما جعل أهل طاعته أكرم خلقه عليه، وأهل معصيته أهون خلقه عليه، وجعل العزة لهؤلاء، والذلة والصغار لهؤلاء، كما فى «مسند الإمام أحمد» من حديث عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ أنه قال: «**بعثت بالسيف بين يدى الساعة، وجعل رزقى تحت ظل رمحى، وجعل الذل والصغار على من خالف أمرى**».

فكلما عمل العبد معصية نزل إلى أسفل درجة، ولا يزال فى نزول حتى يكون من الأسفلين، وكلما عمل طاعة ارتفع بها درجة، ولا يزال فى ارتفاع حتى يكون من الأعلين.

وقد يجتمع للعبد فى أيام حياته الصعود من وجه والنزول من وجه، وأيهما كان أغلب عليه كان من أهله، فليس من صعد مائة درجة ونزل درجة واحدة، كمن كان بالعكس.

---

(1) حسن: رواه الترمذي (2322) في الزهد، وابن ماجه (4112) في الزهد وحسنه الألباني في صحيح الجامع (3414) وصحيح ابن ماجه برقم (3336).

(2) ضعيف: رواه أحمد في الزهد (28) وابن الجوزي في العلل المتناهية (2/ 312) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (3019).

ولكن يعرض هاهنا للنفوس غلط عظيم، وهو أن العبد قد ينزل نزولاً بعيداً أبعد مما بين المشرق والمغرب، ومما بين السماء والأرض، فلا يفى صعوده ألف درجة بهذا النزول الواحد، كما فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة الواحدة لا يلقى لها بالاً يهوى بها فى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب**»(١).

فأى صعود يوازى هذه النزلة؟ والنزول أمر لازم للإنسان، ولكن من الناس من يكون نزوله إلى غفلة، فهذا إذا استيقظ من غفلته عاد إلى درجته، أو إلى أرفع منها بحسب يقظته.

ومنهم من يكون نزوله إلى مباح لا ينوى به الاستعانة على الطاعة، فهذا متى رجع إلى الطاعة فقد يعود إلى درجته، وقد لا يصل إليها، وقد يرتفع عنها، فإنه قد يعود أعلى همة مما كان، وقد يكون أضعف همة، وقد تعود همته كما كانت.

ومنهم من يكون نزوله إلى معصية، إما صغيرة أو كبيرة، فهذا قد يحتاج فى عوده إلى توبة نصوح، وإنابة صادقة.

واختلف الناس: هل يعود بعد التوبة إلى درجته التى كان فيها، بناء على أن التوبة تمحو أثر الذنب، وتجعل وجوده كعدمه، فكأنه لم يكن، أو لا يعود، بناء على أن التوبة تأثيرها فى إسقاط العقوبة، وأما الدرجة التى فاتته فإنه لا يصل إليها؟

قالوا: وتقرير ذلك: أنه كان مستعداً باشتغاله بالطاعة فى الزمن الذى عصى فيه لصعود آخر وارتقاء، تحمله أعماله السالفة بمنزلة كسب الرجل كل يوم بجملة ماله الذى يملكه، وكلما تضاعف المال تضاعف الربح، فقد راح عليه فى زمن المعصية ارتفاع وربح تحمله أعماله، فإذا استأنف العمل استأنف صعوداً من نزول، وكان قبل ذلك صاعداً من أسفل إلى أعلى، وبينهما بون عظيم.

قالوا: ومثل ذلك مثل رجلين يرتقيان فى سُلمين لا نهاية لهما، وهما سواء، فنزل أحدهما إلى أسفل، ولو درجة واحدة، ثم استأنف الصعود،فإن الذى لم ينزل يعلو عليه ولا بد.

---

(1) صحيح: رواه البخاري في الرقاق (6477) (6478) ومسلم (2988) في الزهد والرقاق، وأحمد في المسند (8206، 8703) والترمذي (2314) في الزهد.

وحكم شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- بين الطائفتين حكماً مقبولاً، فقال:

التحقيق أن من التائبين من يعود إلى أرفع من درجته، ومنهم من يعود إلى مثل درجته، ومنه من لا يصل إلى درجته.

قلت: وهذا بحسب قوة التوبة وكمالها، وما أحدثته المعصية للعبد من الذل والخضوع والإنابة، والحذر والخوف من الله ، والبكاء من خشية الله، فقد تقوى هذه الأمور، حتى يعود التائب إلى أرفع من درجته، ويصير بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة، فهذا قد تكون الخطيئة في حقه رحمة، فإنها نفت عنه داء العجب، وخلصته من ثقته بنفسه وإدلاله بأعماله، ووضعت خد ضراعته، وذله، وانكساره على عتبة باب سيده ومولاه، وعرفته قدره، وأشهدته فقره وضرورته إلى حفظ سيده ومولاه له، وإلى عفوه عنه ومغفرته له، وأخرجت من قلبه صولة الطاعة، وكسرت أنفه أن يشمخ، أو يتكبر بها، أو يرى نفسه بها خيراً من غيره، وأوقفته بين يدي ربه موقف الخطائين المذنبين، ناكس الرأس بين يدي ربه، مستحياً منه خائفاً وجلاً، محتقراً لطاعته، مستعظماً لمعصيته، قد عرف نفسه بالنقص والذم، وربه متفرد بالكمال، والحمد، والوفاء.

كما قيل:

استأثر الله بالوفاء وبالـ حمد وولّى الملامة الرَّجُلاً

فأي نعمة وصلت من الله إليه استكثرها على نفسه، ورأى نفسه دونها، ولم يرها أهلاً لها.

وأي نقمة أو بلية وصلت إليه رأى نفسه أهلاً لما هو أكبر منها ورأى مولاه قد أحسن إليه، إذ لم يعاقبه على قدر جرمه ولا شطره، ولا أدنى جزء منه.

فإن ما يستحقه من العقوبة لا تحمله الجبال الراسيات، فضلاً عن هذا االعبد الضعيف العاجز، فإن الذنب وإن صغر، فإن مقابله العظيم الذى لا شئ أعظم منه، الكبير الذى لا شئ أكبر منه، الجليل الدى لا أجل منه ولا أجمل، المنعم بجميع أصناف النعم دقيقها وجليلها -من أقبح الأمور، وأفظعها، وأشنعها، فإن

مقابلة العظماء، والأجلاء، وسادات الناس، بمثل ذلك يستقبحه كل أحد مؤمن وكافر، وأرذل الناس وأسقطهم مروءة من قابلهم بالرذائل، فكيف بعظيم السموات والأرض، وملك السموات والأرض، وإله السموات والأرض؟ ولولا أن رحمته غلبت غضبه، ومغفرته سبقت عقوبته، لتدكدكت الأرض بمن قابله بما لا يليق مقابلته به، ولولا حلمه ومغفرته لزلزلت السموات والأرض من معاصي العباد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر:41].

فتأمل ختم هذه الآية باسمين من أسمائه، وهما: «الحليم، والغفور» كيف نجد تحت ذلك أنه لولا حلمه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت السموات والأرض؟

وقد أخبر سبحانه عن بعض كفر عباده أنه: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم:90].

وقد أخرج الله -سبحانه- الأبوين من الجنة بذنب واحد ارتكباه، وخالفا فيه نهيه، ولعن إبليس وطرده وأخرجه من ملكوت السموات والأرض بذنب واحد ارتكبه، وخالف فيه أمره، ونحن معاشر الحمقى كما قيل:

نصل الذنوب إلى الذنوب ونرتجى … درج الجنان لدى النعيم الخالد

ولقد علمنا أخرج الأبوين من … ملكوته الأعلى بذنب واحد

والمقصود: أن العبد قد يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبل الخطيئة وأرفع درجة، وقد تضعف الخطيئة همته، وتوهن عزمه، وتمرض قلبه، فلايقوى داوء التوبة على إعادته إلى صحته الأولى، فلا يعود إلى درجته، وقد يزول المرض بحيث تعود الصحة كما كانت، ويعود إلى مثل عمله، فيعود إلى درجته.

هذا إذا كان نزوله إلى معصية، فإذا كان نزوله إلى أمر يقدح فى أصل إيمانه مثل الشكوك والريب، والنفاق، فذاك نزول لا يرجى لصاحبه صعود إلا بتجديد إسلامه من رأسه.

فصل

المعاصي تجرئ على الإنسان أعداءه

ومن عقوباتها: أنها تجرئ على العبد من لم يكن يتجرأ عليه من أصناف المخلوقات، فتجترئ عليه الشياطين بالأذى، والإغواء، والوسوسة، والتخويف، والتحزين، وإنسائه ما به مصلحته في ذكره ومضرته في نسيانة، فتجترئ عليه الشياطين حتى تؤزه إلى معصية الله أزاً.

وتجترئ عليه شياطين الإنس بما تقدر عليه من أذاه في غيبته وحضوره، ويجترئ عليه أهله وخدمه، وأولاده وجيرانه حتى الحيوان والبهيم.

قال بعض السلف: إنى لأعصى الله فأعرف ذلك في خلق امرأتي ودابتي.

وكذلك يجترئ عليه أولياء الأمر بالعقوبة التي إن عدلوا فيها أقاموا عليه حدود الله، وتجترئ عليه نفسه فتتأسد عليه وتستصعب عليه، فلو أرادها لخير لم تطاوعه ولم تنقد له، وتسوقه إلى ما فيه هلاكه، شاء أم أبى.

وذلك لأن الطاعة حصن الرب- تبارك وتعالى- الذى من دخله كان من الآمنين.

فإذا فارق الحصن اجترأ عليه قطاع الطريق وغيرهم، وعلى حسب اجترائه على معاصي الله، يكون اجتراء هذه الآفات والنفوس عليه، وليس له شئ يرد عنه، فإن ذكر الله، وطاعته، والصدقة، وإرشاد الجاهل، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر وقاية ترد عن العبد، بمنزلة القوة التي ترد المرض وتقاومه، فإذا سقطت القوة غلب وارد المرض فكان الهلاك، فلابد للعبد من شئ يرد عنه، فإن موجب السيئات والحسنات تتدافع، ويكون الحكم للغالب كما تقدم، وكلما قوى جانب الحسنات كان الرد أقوى كما تقدم، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، والإيمان قول وعمل، فبحسب قوة الإيمان يكون الدفع. والله المستعان.

فصـل

المعاصي تضعف العبد أمام نفسه

ومن عقوباتها: أنها تخون العبد أحوج ما يكون إلى نفسه، فإن كل أحد يحتاج إلى معرفة ما ينفعه وما يضره في معاشه ومعاده، وأعلم الناس أعرفهم بذلك على التفصيل.

وأقواهم وأكيسهم من قوى على نفسه وإرادته، فاستعملها فيما ينفعه وكفها عما يضره.

وفي ذلك تفاوتت معارف الناس وهممهم ومنازلهم، فأعرفهم من كان عارفاً بأسباب السعادة والشقاء. وأرشدهم من آثر هذه على هذه، كما أن أسفههم من عكس الأمر.

والمعاصي تخون العبد أحوج ما كان إلى نفسه في تحصيل هذا العلم، وإيثار الحظ الأشرف العالي الدائم على الحظ الخسيس الأدنى المنقطع، فتحجبه الذنوب عن كمال هذا العلم، وعن الاشتغال بما هو أولى به وأنفع له في الدارين.

فإذا وقع في مكروه واحتاج إلى التخلص منه خانه قلبه، ونفسه، وجوارحه، وكان بمنزلة رجل معه سيف قد غشيه الصدأ ولزم قرابة بحيث لا ينجذب مع صاحبه إذا جذبه، فعرض له عدو يريد قتله، فوضع يده على قائم سيفه واجتهد ليخرجه، فلم يخرج معه، فدهمه العدو وظفر به.

كذلك القلب يصدأ بالذنوب ويصير مثخناً بالمرض. فإذا احتاج إلى محاربة العدو لم يجد معه منه شيئاً، والعبد إنما يحارب ويصاول ويقدم بقلبه، والجوارح تبع للقلب، فإذا لم يكن عند ملكها قوة يدفع بها، فما الظن بها؟

وكذلك النفس فإنها تخبث بالشهوات، والمعاصي، وتضعف -أعني: النفس المطمئنة- وإن كانت الأمارة تقوى وتتأسد، وكلما قويت هذه ضعفت تلك، فيبقى الحكم والتصرف للأمارة.

وربما ماتت نفسه المطمئنة موتاً لا يرتجى معه حياة ينتفع بها، بل حياته حياة يدرك بها الألم فقط.

والمقصود: أن العبد إذا وقع فى شدة أو كربة، أو بلية، خانه قلبه، ولسانه، وجوارحه عما هو أنفع شئ له، فلا ينجذب قلبه للتوكل على الله تعالى، والإنابة إليه، والجمعية عليه، والتضرع والتذلل، والانكسار بين يديه، ولا يطاوعه لسانه لذكره، وإن ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه، فينحبس القلب على اللسان بحيث يؤثر الذكر، ولا ينحبس القلب، واللسان على المذكور، بل إن ذكر أو دعا ذكر بقلب لاه ساه غافل، ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة تدفع عنه، لم تنقد له ولم تطاوعه.

وهذا كله أثر الذنوب، والمعاصي، كمن له جند يدفعون عنه الأعداء، فأهمل جنده وضيعهم وأضعفهم، وقطع أخبارهم، ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه أن يستفرغوا وسعهم فى الدفع عنه بغير قوة.

هذا، وثم أمر أخوف من ذلك وأدهى منه وأمر، وهو أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال إلى الله، فربما تعذر عليه النطق بالشهادة، كما شهد الناس كثيراً من المحتضرين أصابهم ذلك، حتى قيل لبعضهم: قل: «لا إله إلا الله» فقال: آه آه، لا أستطيع أن أقولها.

وقيل لآخر: قل: «لا إله إلا الله»، فقال:

شاه، رخ، غلبتك، ثم قضى.

وقيل لآخر: قل: «لا إله إلا الله»، فقال:

يا رب قائلة يوماً، وقد تعبت كيف الطريق إلى حمام منجاب؟

ثم قضى.

وقيل لآخر: «قل لا إله إلا الله»، فجعل يهذى بالغناء، ويقول: تاتنا، تنتنا. حتى قضى.

وقيل لآخر ذلك، فقال: ما ينفعنى ما تقول، ولم أدع معصية إلا ركبتها، ثم قضى، ولم يقلها.

وقيل لآخر ذلك، فقال: وما يغنى عنى، وما أعرف أنى صليت لله صلاة؟ ولم يقلها.

وقيل لآخر ذلك، فقال: هو كافر بما تقول، ولم يقلها وقضى.

وقيل لآخر ذلك: فقال: كلما أردت أن أقولها ولسانى يمسك عنها.

وأخبرنى من حضر بعض الشحاذين عند موته، فجعل يقول: لله، فلس لله، فلس لله، حتى قضى.

وأخبرنى بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده، وجعلوا يلقنونه: «لا إله إلا الله» وهو يقول: هذه القطعة رخيصة، هذا مشترى جيد، هذه كذا، حتى قضى.

سبحان الله! كم شاهد الناس من هذا عبراً! والذى يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم.

فإذا كان العبد فى حال حضور ذهنه وقوته وكمال إدراكه قد تمكن منه الشيطان، واستعمله فيما يريده من معاصى الله، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله، وعطل لسانه عن ذكره، وجوارحه عن طاعته -فكيف الظن به عند سقوط قواه، واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع؟

وجمع الشيطان له كل قوته وهمته، وحشده عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرصته، فإن ذلك آخر العمل، فأقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت، وأضعف ما يكون هو فى تلك الحال، فمن ترى يسلم على ذلك؟ فهناك: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ**﴾ [إبراهيم :27].

فكيف يوفق لحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره واتبع هواه، وكان أمره فرطاً؟ فبعيد من قلبه بعيد من الله تعالى غافل عنه، متعبد لهواه، أسير لشهواته، ولسانه يابس عن ذكره، وجوارحه معطلة عن طاعته، مشتغلة بمعصيته أن يوفق للخاتمة بالحسنى؟

ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين، وكأن المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعاً بالأمان:

﴿**أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ**﴾[القلم: 39،40].

كما قيل :

يَا آمناً مَعَ قُبْحِ الْفعْل منْهُ أَهَلْ ... أَتَاكَ تَوقيعُ أَمْنٍ أَنْتَ تَملكُهُ؟

جَمَعْتَ شَيْئَينْ: أَمْناً، واتِّبَاع هَوًي ... هَذَا، وَإِحْدَاهُما فِي الْمَرْء تُهْلكُهُ

وَالْمُحْسنُونَ عَلَى ذَرْب الْمخَاوف قَدْ ... سَارُوا وَذَلكَ درب لَسْتَ تَسْلُكُهُ

فَرَّطْتَ فِي الزَّرْعِ وَقْتَ الْبَذْر منْ سَفَه ... فَكَيْفَ عنْدَ حَصَاد النَّاس تُدْركُهُ؟

هَذَا، وَأَعْجَبُ شَئ فيْكَ زُهْدُكَ في ... دَار الْبَقَاء بعَيْش سَوْفَ تَتْرُكُهُ

مَنِ السَّفِيهُ إِذاً بِاللَّهِ: أَنْتَ، أَمِ الْـ ... مَغْبُونُ فِي الْبَيْعِ غَبناً سَوْفَ تُدْركُهُ؟

فصل

المعاصى تعمى القلب

ومن عقوباتها: أنها تعمى القلب، فإن لم تعمه أضعفت بصيرته ولا بد، وقد تقدم بيان أنها تضعفه ولابد، فإذا عمى القلب وضعف فاته من معرفة الهدى، وقوته على تنفيذه فى نفسه، وفى غيره، بحسب ضعف بصيرته وقوته.

فإن الكمال الإنسانى مداره على أصلين: معرفة الحق من الباطل، وإيثاره عليه.

وما تفاوتت منازل الخلق عند الله تعالى فى الدنيا والآخرة إلا بقدر تفاوت منازلهم فى هذين الأمرين، وهما اللذان أثنى الله سبحانه على أنبيائه بهما فى قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾ [ص:45].

فـ ﴿الأَيْدِي﴾ : القوى فى تنفيذ الحق، ﴿وَالأَبْصَارِ﴾ : البصائر فى الدين، فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه، وانقسم الناس فى هذا المقام أربعة أقسام، فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق وأكرمهم على الله.

القسم الثانى : عكس هؤلاء، من لا بصيرة له فى الدين، ولا قوة على تنفيذ الحق، وهم أكثر هذا الخلق، الذين رؤيتهم قذى العيون وحمى الأرواح، وسقم القلوب، يضيقون الديار، ويغلون الأسعار، ولا يستفاد بصحبتهم إلا العار والشنار.

القسم الثالث: من له بصيرة بالحق ومعرفة به، لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذه ولا الدعوة إليه، وهذا حال المؤمن الضعيف، والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله منه.

القسم الرابع: من له قوة، وهمة، وعزيمة، لكنه ضعيف البصيرة فى الدين، لا يكاد يميز بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بل يحسب كل سوداء تمرة، وكل بيضاء شحمة، يحسب الورم شحماً، والدواء النافع سماً.

وليس فى هؤلاء من يصلح للإمامة فى الدين، ولا هو موضع لها سوى القسم الأول.

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:24]، فأخبر سبحانه أن بالصبر واليقين نالوا الإمامة فى الدين، وهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه من جملة الخاسرين، وأقسم بالعصر -الذى هو زمن سعى الخاسرين والرابحين- على أن من عداهم فهو من الخاسرين.

فقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:1-3]، ولم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه، حتى يوصى بعضهم بعضاً به، ويرشده إليه، ويحضه عليه.

وإذا كان من عدا هؤلاء خاسراً، فمعلوم أن المعاصى، والذنوب تعمى بصيرة القلب فلا يدرك الحق كما ينبغى، وتضعف قوته وعزيمته فلا يصبر عليه، بل قد يتوارد على القلب حتى ينعكس إدراكه كما ينعكس سيره، فيدرك الباطل حقاً، والحق باطلاً، والمعروف منكراً، والمنكر معروفاً، فينتكس في سيره، ويرجع عن سفره إلى الله والدار الآخرة، إلى سفره إلى مستقر النفوس المبطلة، التى رضيت بالحياة الدنيا، واطمأنت بها، وغفلت عن الله وآياته، وتركت الاستعداد للقائه، ولو لم يكن فى عقوبة الذنوب إلا هذه العقوبة وحدها، لكانت داعية إلى تركها والبعد منها. والله المستعان.

وهذا كما أن الطاعة تنور القلب وتجلوه، وتصقله، وتقويه، وتثبته، حتى يصير كالمرآة المصقولة فى جلائها وصفائها، فيمتلئ نوراً، فإذا دنا الشيطان منه أصابه من نوره ما يصيب مسترق السمع من الشهب الثواقب، فالشيطان يفْرقُ من هذا القلب أشد من فرق الذئب من الأسد، حتى إن صاحبه ليصرع الشَّيطان فيخر صريعاً، فيجتمع عليه الشياطين، فيقول بعضهم لبعض: ما شأنه؟ فيقال: أصابه إنسى، وبه نظرة من الإنس:

فَيَا نظرة من قَلبَ حُــرٍّ مُنَوَّر يكَـادُ لها الشيطان بالنَّور يُحْرَقُ

أفيستوى هذا القلب وقلبٌ مظلمة أرجاؤه، مختلفة أهواؤه، قد اتخذه الشيطان وطنه، وأعده مسكنه، إذا تصبَّح بطلعته حيَّاه وقال: فُديتَ من قرين لا يفلح فى دنياه ولا فى أخراه؟

قرينك فى الدنيا وفى الحشر بَعدَها فأنت قرين لى بكـل مَكان
فإن كنت فى دار الشقاء، فإننى وأنت جميعاً فى شقا وهوان

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف:36-39].

فأخبر سبحانه أن من عشا عن ذكره، وهو كتابه الذى أنزله على رسوله، فأعرض عنه، وعمى عنه، وعشت بصيرته عن فهمه، وتدبره، ومعرفة مراد الله منه، قيض الله له شيطاناً، عقوبة له بإعراضه عن كتابه، فهو قرينه الذى لا يفارقه فى الإقامة ولا فى المسير، ومولاه وعشيره الذى هو بئس المولى وبئس العشير.

رضيعاً لبان ثدى أم تقاسما بأسحم داج عوض، لا نتفرق

ثم أخبر سبحانه أن الشيطان يصد قرينه ووليَّه عن سبيله الموصل إليه وإلى جنته، ويحسب هذا الضال المصدود أنه على طريق هدى، حتى إذا جاء القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر: يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين، فبئس القرين كنت لى فى الدنيا، أضللتنى عن الهدى بعد إذ جاءنى، وصددتنى عن الحق وأغويتنى، حتى هلكت، وبئس القرين أنت لى اليوم.

ولما كان المصاب إذا شاركه غيره فى مصيبته، حصل له بالتأسى نوع تخفيف وتسلية، أخبر سبحانه أن هذا غير موجود، وغير حاصل في حق المشتركين فى العذاب، وأن القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه، وإن كانت المصائب فى الدنيا إذا عمَّت صارت مَسلاة، كما قالت الخنساء فى أخيها صخر:

فلولا كثرة الباكينَ حولى على إخوانهم لقتلت نفسى

وما يبكون مثل أخى ولكن أُعَزِّى النفس عنه بالتَّأسِّى

فمنع الله سبحانه هذا القدر من الراحة على أهل النار فقال: **﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾** [الزخرف:39].

فصل

المعاصى عدو لدود

ومن عقوباتها: أنها مدد من الإنسان يمد به عدوه عليه، وجيش يقويه به على حربه، وذلك أن الله سبحانه وتعالى ابتلى هذا الإنسان بعدو لا يفارقه طرفة عين، وصاحب لا ينام عنه، ولا يغفل عنه، يراه هو وقبيله من حيث لا يراه، يبذل جهده فى معاداته فى كل حال، ولا يدع أمراً يكيده به يقدر على إيصاله إليه إلا أوصله إليه، ويستعين عليه ببنى أبيه من شياطين الجن، وغيرهم من شياطين الإنس: فقد نصب له الحبائل، وبغى له الغوائل، ومد حوله الأشراك، ونصب له الفخاخ والشباك، وقال لأعوانه: دونكم عدوكم وعدو أبيكم لا يفوتكم، ولا يكون حظه الجنة وحظكم النار، ونصيبه الرحمة، ونصيبكم اللعنة، وقد علمتم أن ما جرى على وعليكم من الخزى، واللعن، والإبعاد من رحمة الله فبسببه ومن أجله، فابذلوا جهدكم أن يكونوا شركاءنا فى هذه البلية، إذ قد فاتنا شركة صالحيهم فى الجنة، وقد أعلمنا الله سبحانه بذلك كله من عدونا، وأمرنا أن نأخذ له أهبته، ونعد له عدته.

ولما علم سبحانه أن آدم وبنيه قد بلوا بهذا العدو وأنه قد سُلّط عليهم أمدَّهم بعساكر وجند يلقونه بها، وأمد عدوهم أيضاً بجند وعساكر يلقاهم بها، وأقام سوق الجهاد فى هذه الدار فى مدة العمر، التى هى بالإضافة إلى الآخرة كنَفَس واحد من أنفاسها، واشترى من المؤمنين أنفسهم، وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلونَ

فى سبيل الله، فيقتلون ويقتلون، وأخبر أن ذلك وعد مؤكد عليه فى أشرف كتبه، وهى التوراة، والإنجيل، والقرآن، وأخبر أنه لا أوفى بعهده منه سبحانه، ثم أمرهم أن يستبشروا بهذه الصفقة التى مَنْ أراد أن يعرف قدرها فلينظر إلى المشترى من هو؟ وإلى الثمن المبذول فى هذه السلعة، وإلى من جرى على يديه هذا العقد، فأى فوز أعظم من هذا؟ وأى تجارة أربح منه؟

ثم أكد سبحانه معهم هذا الأمر بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف:10-13].

ولم يسلط هذا العدو على عبده المؤمن الذى هو أحب أنواع المخلوقات إليه، إلا لأن الجهاد أحب شئ إليه، وأهله أرفع الخلق عنده درجات، وأقربهم إليه وسيلة، فعقد سبحانه لواء هذه الحرب لخلاصة مخلوقاته، وهو القلب الذى هو محل معرفته، ومحبته، وعبوديته، والإخلاص له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، فولاه أمر هذه الحرب، وأيده بجند من الملائكة لا يفارقونه: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد:11] يعقب بعضهم بعضاً، كلما ذهب بدل جاء بدل آخر، يثبتونه، ويأمرونه بالخير، ويحضونه عليه، ويعدونه بكرامة الله ويصبرونه، ويقولون: إنما هو صبر ساعة، وقد استرحت راحة الأبد.

ثم أمده الله سبحانه بجند آخر من وحيه، وكلامه، فأرسل إليه رسوله ﷺ، وأنزل إليه كتابه، فازداد قوة إلى قوته، ومدداً إلى مدده، وعدة إلى عدته، وأيده مع ذلك بالفعل وزيراً له ومدبراً، وبالمعرفة مشيرة عليه ناصحة له، وبالإيمان مثبتاً له ومؤيداً وناصراً، وباليقين كاشفاً له عن حقيقة الأمر، حتى كأنه يعاين ما وعد الله تعالى به أولياءه، وحزبه على جهاد أعدائه، فالعقل يدبر أمر جيشه، والمعرفة تصنع له أمور الحرب وأسبابها ومواضعها اللائقة بها، والإيمان يثبته ويقويه ويصبره، واليقين يقدم به ويحمل به الحملات الصادقة.

ثم أمد سبحانه القائم بهذا الأمر بالقوى الظاهرة والباطنة، فجعل العين طليعته، والأذن صاحب خبره، واللسان ترجمانه، واليدين والرجلين أعوانه، وأقام ملائكته وحملة عرشه يستغفرون له، ويسألون له أن يقيه السيئات ويدخله الجنات، وتولى سبحانه الدفع والدفاع عنه بنفسه، وقال: هؤلاء حزبي وحزب الله هم المفلوحون، قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:22] وهؤلاء جندي: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: 173].

وعلم سبحانه عباده كيفية هذه الحرب والجهاد، فجمعها لهم في أربع كلمات فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:200] ولا يتم أمر هذا الجهاد إلا بهذه الأمور الأربعة، فلا يتم له الصبر إلا بمصابرة العدو، وهى مقاومته ومنازلته، فإذا صابر عدوه احتاج إلى أمر آخر وهو المرابطة، وهى لزوم ثغر القلب، وحراسته لئلا يدخل معه العدو، ولزوم ثغر العين، والأذن، واللسان، والبطن، واليد، والرجل، فهذه الثغور منها يدخل العدو فيجوس خلال الديار ويفسد ما قدر عليه، فالمرابطة لزوم هذه الثغور، ولا يخلى مكانها فيصادف العدو الثغر خالياً فيدخل منه.

فهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ خير الخلق بعد النبيين والمرسلين، وأعظمهم حماية وحراسة من الشيطان، وقد أخلو المكان الذى أمروا بلزومه يوم أحد، فدخل منه العدو، فكان ما كان.

وجماع هذه الثلاثة، وعمودها الذى تقوم به هو تقوى الله تعالى فلا ينفع الصبر، ولا المصابرة، ولا المرابطة إلا بالتقوى، ولا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر.

التقاء الجيشين

فانظر الآن فيك إلى التقاء الجيشين، واصطفاف العسكرين، وكيف تدال مرة، ويدال عليك مرة أخرى؟ أقبل ملك الكفرة بجنوده، وعساكره، فوجد القلب فى حصنه جالساً على كرسى مملكته، أمره نافذ فى أعوانه، وجنده قد حفوا به، يقاتلون عنه ويدافعون عن حوزته، فلم يمكنه الهجوم إلا بمخامرة بعض أمرائه وجنده عليه، فسأل عن أخص الجند به وأقربهم منه منزلة، فقيل له هى النفس،

فقال لأعوانه: ادخلوا عليها من مرادها. وانظروا مواقع محبتها وما هو محبوبها، فعدوها به، ومنوها إياه، وانقشوا صورة المحبوب فيها فى يقظتها ومنامها، فإذا أطمأنت إليه، وسكنت عنده فاطرحوا عليها كلاليب الشهوة، وخطاطيفها، ثم جروها بها إليكم، فإذا خامرت على القلب، وصارت معكم عليه ملكتم ثغور العين، والأذن، واللسان، والفم واليد، والرجل، فرابطوا على هذه الثغور كل المرابطة، فمتى دخلتم منها إلى القلب فهو قتيل، أو أسير، أو جريح مثخن بالجراحات، ولا تخلوا هذه الثغور، ولا تمكنوا سرية تدخل فيها إلى القلب فتخرجكم منها، وإن غلبتم فاجتهدوا فى إضعاف السرية ووهنها، حتى لا تصل إلى القلب، وإن وصلت إليه وصلت ضعيفة لا تغنى عنه شيئاً.

ثغر العين

فإذا استوليتم على هذه الثغور فامنعوا ثغر العين أن يكون نظره اعتباراً، بل اجعلوا نظره تفرجاً واستحساناً، وتلهياً، فإن استرق نظرة عبرة فأفسدوها عليه بنظرة الغفلة، والاستحسان، والشهوة، فإنه أقرب إليه وأعلق بنفسه، وأخف عليه، ودونكم ثغر العين، فإنه منه تنالون بغيتكم، فإنى ما أفسدت بنى آدم بشئ مثل النظر، فإنى أبذر به فى القلب بذر الشهوة، ثم أسقيه بماء الأمنية، ثم لا أزال أعده وأمنيه حتى أقوى عزيمته، وأقوده بزمام الشهوة إلى الانخلاع من العصمة فلا تهملوا أمر هذا الثغر، وأفسدوه بحسب استطاعتكم، وهونوا عليه أمره وقولوا له: ما مقدار نظرة تدعوك إلى تسبيح الخالق، والتأمل لبديع صنيعه، وحسن هذه الصورة التى إنما خلقت ليستدل بها الناظر عليه. وما خلق الله لك العينين سدى. وما خلق هذه الصورة ليحجبها عن النظر، وإن ظفرتم به قليل العلم فاسد العقل، فقولوا له: هذه الصورة مظهر من مظاهر الحق ومجلى من مجاليه، فادعوه إلى القول بالاتحاد، فإن لم يقبل فالقول بالحلول العام أو الخاص، ولا تقنعوا منه بدون ذلك، فإنه يصير به إخوان النصارى، فمروه حينئذ بالعفة، والصيانة، والعبادة، والزهد فى الدنيا، واصطادوا عليه وبه الجهال، فهذا من أقرب خلفائى، وأكبر جندى، بل أنا من جنده وأعوانه.

فصـل

ثغـــر الأذن

ثم امنعوا ثغر الأذن أن يدخل منه ما يفسد عليكم الأمر، فاجتهدوا أن لا يدخل منه إلا الباطل، فإنه خفيف على النفس، تستحليه وتستجمله، وتخيروا له أعذب الألفاظ، وأسحرها للألباب، وامزجوه بما تهوى النفوس مزجاً.

وألقوا الكلمة: فإن رأيتم منه إصغاء إليها فزجوه بأخواتها، وكلما صادفتم منه استحسان شئ فالهجوا له بذكره، وإياكم أن يدخل من هذا الثغر شئ من كلام الله، أو كلام رسوله ﷺ أو كلام النصحاء، فإن غلبتم على ذلك ودخل من ذلك شئ فحولوا بينه وبين فهمه، وتدبره، وتفكره فيه، والعظة به، إما بإدخال ضده عليه، وإما بتهويل ذلك وتعظيمه، وأن هذا أمر قد حيل بين النفوس وبينه فلا سبيل لها إليه، وهو حمل ثقيل عليها لا تستقل به ونحو ذلك، وإما بإرخاصه على النفوس. وأن الاشتغال ينبغى أن يكون بما هو أعلى عند الناس، وأعز عليهم، وأغرب عندهم، وزبونه القابلون له أكثر، وأما الحق فهو مهجور، وقائله معرض نفسه للعداوة، والرابح بين الناس أولى بالإيثار ونحو ذلك، فتدخلون الباطل عليه فى كل قالب يقبله ويخف عليه وتخرجون له الحق فى كل قالب يكرهه ويثقل عليه.

وإذا شئت أن تعرف ذلك فانظر إلى إخوانهم من شياطين الإنس، كيف يخرجون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى قالب كثرة الفضول، وتتبع عثرات الناس، والتعرض من البلاء لما لا يطيق، وإلقاء الفتن بين الناس ونحو ذلك، ويخرجون أتباع السنة، ووصف الرب تعالى بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ فى قالب التجسيم، والتشبيه، والتكييف، ويسمون علو الله على خلقه واستواءه على عرشه، ومباينته لمخلوقاته تحيزاً، ويسمون نزوله إلى سماء الدنيا وقوله: «**من يسألنى فأعطيه**» تحركاً وانتقالاً، ويسمون ما وصف به نفسه من اليد، والوجه أعضاء وجوارح، ويسمون ما يقوم به من أفعاله حوادث، وما يقوم به من صفاته أعراضاً، ثم يتوصلون إلى نفي ما وصف به نفسه بنفى هذه الأمور، ويوهمون الأغمار وضعفاء البصائر، أن إثبات الصفات التى نطق بها كتاب الله،

وسنة رسوله ﷺ تستلزم هذه الأمور، ويخرجون هذا التعطيل فى قالب التنزيه، والتعظيم، وأكثر الناس ضعفاء العقول يقبلون الشئ بلفظه، ويردونه بعينه بلفظ آخر، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:112]. فسماه زخرفاً، وهو باطل، لأن صاحبه، يزخرفه، ويزينه ما استطاع، ويلقيه إلى سمع المغرور، فيغتر به.

والمقصود: أن الشيطان قد لزم ثغر الأذن أن يدخل فيها ما يضر العبد ولا ينفعه، ويمنع أن يدخل إليها ما ينفعه، وإن دخل بغير اختياره أفسد عليه.

فصل

ثغر اللسان

ثم يقول: قوموا على ثغر اللسان، فإنه الثغر الأعظم، وهو قبالة الملك، فأجروا عليه من الكلام ما يضره ولا ينفعه، وامنعوه أن يجرى عليه شئ مما ينفعه: من ذكر الله تعالى، واستغفاره، وتلاوة كتابه، ونصحه عباده، والتكلم بالعلم النافع، ويكون لكم فى هذا الثغر أمران عظيمان، لا تبالون بأيهما ظفرتم:

أحدهما: التكلم بالباطل، فإن المتكلم بالباطل أخ من إخوانكم ومن أكبر جندكم وأعوانكم.

والثاني: السكوت عن الحق، فإن الساكت عن الحق أخ لكم أخرس، كما أن الأول أخ ناطق، وربما كان الأخ الثانى أنفع إخوتكم لكم، أما سمعتم قول الناصح: «المتكلم بالباطل شيطان ناطق، والساكت عن الحق شيطان أخرس»؟

فالرباط الرباط على هذا الثغر أن يتكلم بحق، أو يمسك عن باطل، وزينوا له التكلم بالباطل بكل طريق، وخوفوه من التكلم بالحق بكل طريق.

واعلموا يا بنى أن ثغر اللسان هو الذى أهلك منه بنى آدم، وأكبهم منه على مناخرهم فى النار، فكم لى من قتيل، وأسير، وجريح أخذته من هذا الثغر؟.

وأوصيكم بوصية فاحفظوها: لينطق أحدكم على لسان أخيه من الإنس بالكلمة، ويكون الآخر على لسان السامع، فينطق باستحسانها وتعظيمها والتعجب منها، ويطلب من أخيه إعادتها، وكونوا أعواناً على الإنس بكل طريق،

وادخلوا عليهم من كل باب، واقعدوا لهم كل مرصد، أما سمعتم قسمى الذى أقسمت به لربهم حيث قلت: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف:16-17].

أو ما ترونى قد قعدت لابن آدم بطرقه كلها، فلا يفوتنى من طريق إلا قعدت له بطريق غيره، حتى أصيب منه حاجتى أو بعضها؟ وقد حذرهم ذلك رسولهم وقال لهم: «**إن الشيطان قد قعد لابن آدم بطرقه كلها، وقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟ فخالفه وأسلم، فقعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك؟ فخالفه وهاجر، فقعد له بطريق الجهاد، فقال: أتجاهد فتقتل فيقسم المال وتنكح الزوجة؟**»(1)

فهكذا فاقعدوا لهم بكل طرق الخير، فإذا أراد أحدهم أن يتصدق فاقعدوا له على طريق الصدقة، وقولوا له فى نفسه: أتخرج المال فتبقى مثل هذا السائل، وتصير بمنزلته، أنت وهو سواء؟ أو ما سمعتم ما ألقيت على لسان رجل سأله آخر أن يتصدق عليه، فقال: هى أموالنا إن أعطيناكموها صرنا مثلكم.

واقعدوا له بطريق الحج، فقولوا: طريقة مخوفة مشقة، يتعرض سالكها لتلف النفس والمال، وهكذا فاقعدوا على سائر طرق الخير بالتنفير عنها وذكر صعوبتها وآفاتها، ثم اقعدوا لهم على طرق المعاصى فحسنوها فى أعين بنى آدم، وزينوها فى قلوبهم، واجعلوا أكبر أعوانكم على ذلك النساء، فمن أبوابهن فادخلوا عليهم، فنعم القوم هن لكم.

ثم الزموا ثغر اليدين والرجلين، فامنعوها أن تبطش بما يضركم وتمشى فيه.

النفـس الأمـارة

واعلموا أن أكبر أعوانكم على لزوم هذه الثغور مصالحة النفس الأمارة، فأعينوها واستعينوا بها، وأمدوها واستمدوا منها، وكونوا معها على حرب النفس المطمئنة، فاجتهدوا فى كسرها وإبطال قواها، ولا سبيل إلى ذلك إلا بقطع موادها

(1) صحيح : رواه أحمد في المسند (15528) والنسائي (3134)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (3134).

عنها، فإذا انقطعت موادها وقويت مواد النفس الأمارة، وأطاعت لكم أعوانها، فاستنزلوا القلب من حصنه واعزلوه عن مملكته، وولوا مكانه النفس الأمارة، فإنها تأمر بما تهوونه، وتحبونه، ولا تجيئكم بما تكرهون البتة، مع أنها لا تخالفكم فى شئ تشيرون به عليها، بل إذا أشرتم عليها بشئ بادرت إلى فعله، فإن أحسستم من القلب منازعة إلى مملكته، وأردتم الأمن من ذلك فاعقدوا بينه وبين النفس عقد النكاح، فزينوها وجملوها، وأروها إياه فى أحسن صورة عروس توجد، وقولوا له: ذق طعم هذا الوصال، والتمتع بهذه العروس، كما ذقت طعم الحرب، وباشرت مرارة الطعن والضرب، ثم وازن بين لذة هذه المسالمة ومرارة تلك المحاربة، فدع الحرب تضع أوزارها، فليست بيوم وتنقضى، وإنما هو حرب متصل بالموت، وقواك تضعف عن حرب دائم.

واستعينوا يا بنى بجندين عظيمين لن تغلبوا معهما:

أحدهما: جند الغفلة، فأغفلوا قلوب بنى آدم عن الله تعالى والدار الآخرة بكل طريق، فليس لكم شئ أبلغ فى تحصيل غرضكم من ذلك، فإن القلب إذا غفل عن الله -تعالى- تمكنتم منه ومن إغوائه.

والثانى: جند الشهوات، فزينوها فى قلوبهم، وحسنوها فى أعينهم، وصولوا عليهم بهذين العسكرين، فليس لكم من بنى آدم أبلغ منهما، واستعينوا على الغفلة بالشهوات، وعلى الشهوات بالغفلة، واقرنوا بين الغافلين، ثم استعينوا بهما على الذاكر، ولا يغلب واحد خمسة، فإن مع الغافلين شيطانين صاروا أربعة، وشيطان الذاكر معهم، وإذا رأيتم جماعة مجتمعين على ما يضركم -من ذكر الله أو مذاكرة أمره، ونهيه، ودينه، ولم تقدروا على تفريقهم- فاستعينوا عليهم ببنى جنسهم من الإنس البطالين، فقربوهم منهم، وشوشوا عليهم بهم.

وبالجملة فأعدوا للأمور أقرانها، وادخلوا على كل واحد من بنى آدم من باب إرادته وشهوته، فساعدوه عليها، وكونوا أعواناً له على تحصيلها، وإذا كان الله قد أمرهم أن يصبروا لكم ويصابروكم، ويرابطوا عليكم بالثغور، فاصبروا أنتم وصابروا، ورابطوا عليهم بالثغور، وانتهزوا فرصكم فيهم عند الشهوة، والغضب، فلا تصطادون بنى آدم فى أعظم من هذين الموطنين.

واعلمـوا أن منهم من يكون سلطان الشـهـوة عليـه أغلب وسلطـان غـضـبـه ضـعيف مقـهور، فـخـذوا عليـه طريق الشهـوة، ودعـوا طريق الغـضب، ومنهم من يكون سلطان الغـضب عـليه أغـلب، فلا تـدخلوا طريق الشـهـوة قلبـه، ولا تعطلوا ثغرها، فإن من لم يملك نفسه عند الغـضب فإنه بالحرى أن لا يملكهـا عند الغضب من طريق الشـهـوة، فزوجـوا بين غـضبـه وشـهـوته، وامزجـوا أحـدهمـا بالآخر، وادعوه إلى الشهوة من باب الغضب، وإلى الغضب من طريق الشهوة.

واعلـمـوا أنـه ليس لكـم فى بنى آدم ســلاح أبلـغ من هذين الســلاحين، وإنما أخرجت أباهم من الجنة بالشهوة، وإنما ألقيت العدواة بين أولادهم بالغضب، فبه قطعت أرحامهم، وسفكت دماءهم، وبه قتل أحد ابنى آدم أخاه.

واعلموا أن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم، والشهـوة نار تثور من قلبـه، وإنما تطفأ النار بالماء، والصلاة، والذكر والتكبير، فإياكم أن تمكنوا ابـن آدم عند غضبه وشهوته من قربان الوضوء والصلاة، فإن ذلك يطفئ عنهم نار الغضب والشهوة، وقد أمرهم نبيهم بذلك، فقال: «**إن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم، أما رأيتم من احـمرار عينيه وانتفـاخ أوداجه، فـمن أحس بذلك فليتوضـأ**»[1]، وقال لهـم: «**إنما تطفأ النار بالماء**»[2]، وقـد أوصـاهم الله أن يستـعينوا عليكـم بالصبـر والصـلاة، فـحولوا بيـنهم وبين ذلك، وأنسـوهم إياه، واستـعينوا عليـهم بالشـهوة والغـضب، وأبلغ أسلحتكم فيهم وأنكاها الغفلة، واتباع الهوى.

وأعظم أسلحتهم فيكم، وأمنع حصونهم ذكر الله، ومخالفة الهوى، فإذا رأيتم الرجل مخالفاً لهواه فاهربوا من ظله، ولا تدنوا منه.

والمقصود أن الذنوب والمعاصي سلاح ومدد يمد بهـا العبد أعداءه، ويعينهم بها على نفسه، فيقاتلونه بسلاحه، ويكون معهم على نفسه، وهذا غاية الجهل:

ما يَبْلُــغُ الأعداءُ من جاهــلٍ　　　ما يَبْلُــغُ الجَاهِــلُ مِنْ نَفْسِــهِ

(1) ضعيف : رواه أحمد (11193) والترمذي (2191) وقال الألباني على لفظ الترمذي : ضعيف : لكن بعض فقراته : صحيح.
(2) ضعيف : رواه أبو داود في الأدب (4784) وأحمد (17524) وضعفه الألبانى فى ضعيف أبى داود.

ومن العجائب أن العبد يسعى بجهده في هوان نفسه، وهو يزعم أنه لها مكرم. ويجتهد في حرمانها أعلى حظوظها وأشرفها وهو يزعم أنه يسعى في حظها، ويبذل جهده في تحقيرها وتصغيرها وتدسيتها، وهو يزعم أنه يُعليها، ويرفعها، ويكبرها.

وكان بعض السلف يقول في خطبته: ألا رب مهين لنفسه وهو يزعم أنه لها مكرم، ومذل لنفسه وهو يزعم أنه لها معز، ومصغر لنفسه وهو يزعم أنه لها مكبر، ومضيع لنفسه وهو يزعم أنه مراع لحفظها؟ وكفى بالمرء جهلاً أن يكون مع عدوه على نفسه، يبلغ منها بفعله ما لم يبلغ منه عدوه، والله المستعان.

فصل

المعصية تنسى العبد نفسه

ومن عقوباتها: أنها تنسى العبد نفسه. وإذا نسى نفسه أهملها، وأفسدها، وأهلكها.

فإن قيل: كيف ينسى العبد نفسه؟ وإذا نسى نفسه فأى شئ يذكر؟ وما معنى نسيانه نفسه؟

قيل: نعم ينسى نفسه أعظم نسيان، قال الله العظيم: **﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾** [الحشر:19].

فلما نسوا ربهم سبحانه نسيهم وأنساهم أنفسهم، كما قال الله تعالى: **﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾** [التوبة:67]، فعاقب سبحانه من نسيه عقوبتين:

إحداهما: أنه سبحانه نسيه.

والثانية: أنه أنساه نفسه.

ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخلِّيه عنه وإضاعته، فالهلاك أدنى إليه من اليد للفم، وأما إنساؤه نفسه فهو إنساؤه لحظوظها العالية، وأسباب سعادتها، وفلاحها، وصلاحها، وما تكمل به نفسه، ينسيه ذلك جميعه، فلا يُخطره بباله، ولا يجعله على ذكره، ولا يصرف إليه همته، فيرغب فيه، فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره.

وأيضاً فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها، فلا يخطر بباله إزالتها .

وأيضاً ينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها، فلا يخطر بقلبه مداواتها، ولا السعي في إزالة عللها وأمراضها التي تؤول به إلي الفساد والهلاك، فهو مريض مثخن بالمرض، ومرضه مترام به إلي التلف، ولا يشعر بمضره، ولا يخطر بباله مداواته، وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة.

فأي عوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضيعها، ونسي مصالحها، وداءها، ودواءها، وأسباب سعادتها، وفلاحها، وصلاحها، وحياتها الأبدية في النعيم المقيم؟.

ومن تأمل هذا الموضع تبين له أن أكثر هذا الخلق قد نسوا أنفسهم حقيقة وضيعوها وأضاعوا حظها من الله، وباعوها رخيصة بثمن بخس بيع الغبن، وإنما يظهر لهم غداً عند الموت، ويظهر هذا كل الظهور يوم التغابن، يوم يظهر للعبد أنه غبن فى العقد الذى عقده لنفسه فى هذه الدار، والتجارة التى أتجر فيها لمعاده، فإن كل أحد يتجر فى هذه الدنيا لآخرته.

فالخاسرون الذين يعتقدون أنهم أهل الربح والكسب اشتروا الحياة الدنيا وحظهم فيها ولذاتهم بالآخرة وحظهم فيها، فأذهبوا طيباتهم فى حياتهم الدنيا، واستمتعوا بها، ورضوا بها، واطمأنوا إليها، وكان سعيهم لتحصيلها، فباعوا، واشتروا، واتجروا، وباعوا آجلاً بعاجل، ونسيئة بنقد، وغائباً بناجز، وقالوا: هذا هو الحزم، ويقول أحدهم:

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به

وكيف أبيع حاضراً نقداً مشاهداً فى هذه الدار بغائب نسيئة فى دار أخرى غيرها؟ وينضم إلى ذلك ضعف الإيمان، وقوة داعى الشهوة، ومحبة العاجلة، والتشبه ببنى الجنس، فأكثر الخلق فى هذه التجارة الخاسرة التى قال الله سبحانه فى أهلها: ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ**﴾ [البقرة:86].

وقال فيهم: ﴿**فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**﴾ [البقرة:16].

فإذا كان يوم التغابن ظهر لهم الغبن فى هذه التجارة، فتتقطع عليها النفوس حسرات.

وأما الرابحون فإنهم باعوا فانياً بباق، وخسيساً بنفيس، وحقيراً بعظيم، وقالوا: ما مقدار هذه الدنيا من أولها إلى آخرها، حتى نبيع حظنا من الله تعالى والدار الآخرة بها؟ فكيف بما ينال العبد منها في هذا الزمن القصير الذي هو في الحقيقة كغفوة حلم، لا نسبة له إلى دار القرار البتة، قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: 45].

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (42) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (43) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (44) إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا (45) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: 42-46].

وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ﴾

[الأحقاف: 35].

وقال تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (113) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: 112-114].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (102) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا (103) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا﴾ [طه: 102-104].

فهذه حقيقة الدنيا عند موافاة يوم القيامة، فلما علموا قلة لبثهم فيها، وأن لهم دار غير هذه الدار، هي دار الحيوان ودار البقاء - رأوا من أعظم الغبن بيع دار البقاء بدار الفناء، فاتجروا تجارة الأكياس، ولم يغتروا بتجارة السفهاء من الناس، فظهر لهم يوم التغابن ربح تجارتهم ومقدار ما اشتروه، وكل أحد في هذه الدار الدنيا بائع مشتر متجر، و«كلُّ النَّاس يَغْدُو فَبَائع نَفْسَهُ، فمعْتقُهَا أو مُوبقُهَا»[1].

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 111].

---

(1) صحيح: رواه مسلم (223) الطهارة، والترمذي (3517) في الدعوات وابن ماجه (280) في الطهارة، وأحمد في المسند (22395) والدارمي في الطهارة (653).

فهذا أول نقد من ثمن هذه التجارة، فتاجروا أيها المفلسون، ويا من لا يقدر على هذا الثمن، هنا ثمن آخر، فإن كنت من أهل هذه التجارة فاعط هذا الثمن.

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 112].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

[الصف:10-11].

والمقصود: أن الذنوب تنسى العبد حظه من هذه التجارة الرابحة، وتشغله بالتجارة الخاسرة، وكفى بذلك عقوبة، والله المستعان.

فصل

المعاصي تزيل النعم

ومن عقوباتها: أنها تزيل النعم الحاضرة، وتقطع النعم الواصلة، فتزيل الحاصل، وتمنع الواصل، فإن نعم الله ما حفظ موجودها بمثل طاعته، ولا استُجلب مفقودها بمثل طاعته، فإن ما عنده لا ينال إلا بطاعته، وقد جعل الله سبحانه لكل شئ سبباً وآفة: سبباً يجلبه، وآفة تبطله، فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته، وآفاتها المانعة منها معصيته، فإذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها.

ومن العجيب علم العبد بذلك مشاهدة فى نفسه وغيره،وسماعاً لما غاب عنه من أخبار من أزيلت نعم الله عنهم بمعاصيه،. وهو مقيم على معصية الله، كأنه مستثنى من هذه الجملة أو مخصوص من هذا العموم، وكأن هذا أمر جار على الناس لا عليه، وواصل إلى الخلق لا إليه.

فأى جهل أبلغ من هذا؟! وأى ظلم للنفس فوق هذا؟! فالحكم لله العلى الكبير.

فصل

المعصية تباعد بين العبد والملك

ومن عقوباتها: أنها تباعد عن العبد وليّه، وأنفع الخلق له، وأنصحهم له، ومن سعادته في قربه منه، وهو الملك الموكل به، وتدني منه عدوه، وأغش الخلق له، وأعظمهم ضرراً له، وهو الشيطان، فإن العبد إذا عصى الله تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية، حتى إنه يتباعد عنه بالكذبة الواحدة مسافة بعيدة.

وفي بعض الآثار: «**إذا كذب العبد تباعد منه الملك ميلاً من نتن ريحه**» فإذا كان هذا تباعد الملك منه من كذبة واحدة، فماذا يكون مقدار بعده منه مما هو أكبر من ذلك وأفحش منه؟!

وقال بعض السلف: إذا ركب الذكرُ الذكرَ عجّت الأرض إلى الله، وهربت الملائكة إلى ربها، وشكت إليه عظيم ما رأت.

وقال بعض السلف: إذا أصبح العبد ابتدره الملك والشيطان، فإذا ذكر الله وكبره وحمده وهلله طرد الملك الشيطان وتولاّه، وإن افتتح بغير ذلك ذهب الملك عنه وتولاه الشيطان.

ولا يزال الملك يَقْرُبُ من العبد حتى يصير الحكم، والطاعة، والغلبة له، فتتولاه الملائكة في حياته وعند موته وعند بعثه، كما قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾ [فصلت:30-31].

وإذا تولاه الملك تولاه أنصح الخلق وأنفعهم وأبرّهم، فثبته وعلمه، وقوّى جنانه وأيّده، قال تعالى: ﴿**إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾[الأنفال:12] فيقول له الملك عند الموت: «لا تخَفْ ولا تحزن وأبشر بالذي يسرك» ويثبته بالقول الثابت أحوج ما يكون إليه في الحياة الدنيا، وعند الموت، وفي القبر عند المسألة.

فليس أحد أنفع للعبد من صحبة الملك له، وهو وليه في يقظته ومنامه، وحياته وعند موته وفي قبره، ومؤنسه في وحشته، وصاحبه في خلوته، ومحدثه في

سره، يحا ب عنه عدُوه، ويدافع عنه ويعينه عليه، ويعده بالخير ويبشره به، ويحثه على التصديق بالحق، كما جاء فى الأثر الذى يروى مرفوعاً وموقوفاً: «**إن للملك بقلب ابن آدم لمة، وللشيطان لمة، فَلَمَّـةُ الملَكَ إيعادُ بالخير وتصديق بالوعد، ولمة الشيطان إيعاد بالشّر وتكذيب بالحق**»[1].

وإذا اشتد قرب الملك من العبد تكلم على لسانه، وألقى على لسانه القول السديد، وإذا بعد منه وقرب منه الشيطان تكلم على لسانه، وألقى عليه قول الزور والفحش، حتى يرى الرجل يتكلم على لسانه الملك، والرجل يتكلم على لسانه الشيطان.

وفى الحديث: «**إن السَّكينة تَنْطقُ على لسَان عُمَرَ**»[2] ﷺ وكان أحدهم يسمع الكلمة الصالحة من الرجل الصالحَ فيقول: ما ألقاها على لسانك إلا الملك، ويسمع ضدها فيقول: ما ألقاها على لسانك إلا الشيطان، فالملك يلقى بالقلب الحق، ويلقيه على اللسان، والشيطان يلقى الباطل فى القلب، ويجريه على اللسان.

فمن عقوبة المعاصى: أنها تبعد من العبد وليه الذى سعادته فى قربه ومجاورته، وموالاته، وتدنى منه عدوه الذى شقاؤه وهلاكه وفساده فى قربه وموالاته، حتى إن الملك لينافح عن العبد، ويرد عنه إذا سفه عليه السفيه وسبه، كما اختصم بين يدى النبى ﷺ رجلان، فجعل أحدهما يسب الآخر، وهو ساكت، فتكلم بكلمة يرد بها على صاحبه، فقام النبى ﷺ ، فقال: يا رسول الله لما رددت عليه بعض قوله قمت! فقال: «**كان الملَكَ يُنَافِحُ عنك، فلما رددت عليه جاء الشيطان فلم أكن لأجلسَ**»[3].

وإذا دعا العبد المسلم لأخيه بظهر الغيب أمن الملك على دعائه، وقال: «**لك بمثله**».

وإذا فرغ من قراءة الفاتحة أمنت الملائكة على دعائه.

وإذا أذنب العبد المؤمن الموحد المتبع لسبيله وسنة رسوله ﷺ استغفر له حملة العرش ومن حوله.

---

(1) صحيح: رواه الترمذي (2988)، وصحح الألباني لفظ الترمذي.
(2) انظر حلية الأولياء (1/ 42).
(3) حسن: رواه أبو داود (4896)، وحسنه الألباني بما بعده، وانظر صحيح سنن أبي داود.

وإذا نام على وضوء بات في شعاره ملك.

فملك المؤمن يرد عنه، ويحارب ويدافع عنه، ويعلمه، ويثبته، ويشجعه، فلا يليق به أن يسيء جواره ويبالغ في أذاه وطرده عنه وإبعاده، فإنه ضيفه وجاره، وإذا كان إكرام الضيف من الآدميين، والإحسان إلى الجار، من لوازم الإيمان وموجباته، فما الظن بإكرام أكرم الأضياف، وخير الجيران وأبرهم؟! وإذا آذى العبد الملك بأنواع المعاصي والظلم والفواحش، دعا عليه ربه، وقال: «**لا جزاك الله خيراً**» كما يدعو له إذا أكرمه بالطاعة والإحسان.

قال بعض الصحابة ﷺ: «إن معكم من لا يفارقكم فاستحيوا منهم وأكرموهم».

ولا ألأم ممن لا يستحي من الكريم العظيم القدر، ولا يجله ولا يوقره، وقد نبه سبحانه على هذا المعنى بقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الإنفطار:10-12] أي: استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرموهم، وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، فإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر، ويعصي بين يديه، وإن كان قد يعمل مثل عمله فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين؟! والله المستعان.

فصل

المعاصي مجلبة الهلاك

ومن عقوباتها: أنها تستجلب مواد هلاك العبد في دنياه وآخرته، فإن الذنوب هي أمراض متى استحكمت قتلت ولا بد، وكما أن البدن لا يكون صحيحاً إلا بغذاء يحفظ قوته، واستفراغ يستفرغ المواد الفاسدة، والأخلاط الرديئة التي متى غلبت عليه أفسدته، وحمية يمتنع بها مما يؤذيه ويخشى ضرره فكذلك القلب لا تتم حياته إلا بغذاء من الإيمان والأعمال الصالحة، تحفظ قوته، واستفراغ بالتوبة النصوح تستخرج بها المواد الفاسدة والأخلاط الرديئة منه، وحمية توجب له حفظ الصحة، وتجنب ما يضادها، وهي عبارة عن ترك استعمال ما يضاد الصحة.

والتقوى: اسم متناول لهذه الأمور الثلاثة، فما فاتَ منها، فات من التقوى بقدره.

وإذا تبين هذا فالذنوب مضادة لهذه الأمور الثلاثة، فإنها تستجلب المواد المؤذية، وتوجب التخليط المضاد للحمية، وتمنع الاستفراغ بالتوبة النصوح.

فانظر إلى بدن عليل تراكمت عليه الأخلاط ومواد المرض، وهو لا يستفرغها، ولا يحتمى لها، كيف تكون صحته وبقاؤه؟! ولقد أحسن القائل:

جِسْمُكَ بِالْحَمِيَّةِ حَصَّنْتَهُ ... مَخَافَةً مِنْ أَلَمٍ طَارِى

وكَانَ أَوْلَى بِكَ أَن تَحْتَمِى ... مِنَ المَعَاصِى خَشْيَةَ النَّارِ

فمن حفظ القوة بامتثال الأوامر، واستعمل الحمية باجتناب النواهى، واستفرغ التخليط بالتوبة النصوح، لم يدع للخير مطلباً، ولا من الشر مهرباً، والله المستعان.

فصل

العقوبات الشرعية على المعاصى

فإن لم ترعك هذه العقوبات، ولم تجد لها تأثيراً فى قلبك فأحضر العقوبات الشرعية التى شرعها الله ورسوله على الجرائم، كما قطع اليد فى سرقة ثلاثة دراهم، وقطع اليد والرجل فى قطع الطريق على معصوم المال والنفس، وشق الجلد بالسوط على كلمة قذف بها المحصن، أو قطرة خمر يدخلها جوفه، وقتل بالحجارة أشنع قتلة فى إيلاج الحشفة فى فرج حرام، وخفَّف هذه العقوبة عمن لم تتم عليه نعمة الإحصان بمائة جلدة، وبنفى سنة عن وطنه وبلده إلى بلاد الغربة، وفرق بين رأس العبد وبدنه إذا وقع على ذات رحم محرم منه، أو ترك الصلاة المفروضة، أو تكلم بكلمة كفر، وأمر بقتل من وطئ ذكراً مثله، وقتل المفعول به، وأمر بقتل من أتى بهيمة، وقتل البهيمة معه، وعزم على تحريق بيوت المتخلفين عن الصلاة فى الجماعة، وغير ذلك من العقوبات التى رتبها على الجرائم، وجعلها بحكمته على حسب الدواعى إلى تلك الجرائم، وحسب الوازع عنها.

فما كان الوازع عنه طبعياً، وليس فى الطباع داع إليه اكتفى فيه بالتحريم مع التعزير، ولم يرتب عليه حداً، كأكل الرجيع، وشرب الدم، وأكل الميتة.

وما كان فى الطباع داع إليه، رتب عليه من العقوبة بقدر مفسدته، وبقدر داعى الطبع إليه.

ولهذا لما كان داعى الطباع إلى الزنى من أقوى الدواعى، كانت عقوبته العظمى من أشنع القتلات وأعظمها، وعقوبته السهلة أعلى أنواع الجلد مع زيادة التغريب. ولما كانت جريمة اللواط فيها الأمران، كان حده القتل بكل حال. ولما كان داعى السرقة قوياً ومفسدتها كذلك قطع فيها اليد.

وتأمل حكمته فى إفساد العضو الذى باشر العبد به الجناية، كما أفسد على قاطع الطريق يده ورجله اللتين هما آلة قطعه، ولم يفسد على القاذف لسانه الذى جنى به، إذ مفسدته تزيد على مفسدة الجناية ولا يبلغها، فاكتفى من ذلك بإيلام جميع بدنه بالجلد.

فإن قيل: فهلا أفسد على الزانى فرجه الذى باشر به المعصية؟

قيل: لوجوه.

أحدها: أن مفسدة ذلك تزيد على مفسدة الجناية، إذ فيه قطع النسل، وتعريضه للهلاك.

الثانى: أن الفرج عضو مستور لا يحصل بقطعه مقصود الحد من الردع والزجر لأمثاله من الجناة، بخلاف قطع اليد.

الثالث: أنه إذا قطع يده أبقى له يداً أخرى تعوض عنها، بخلاف الفرج.

الرابع: أن لذة الزنى عمت جميع البدن، فكان الأحسن أن تعم العقوبة جميع البدن، وذلك أولى من تخصيصها ببضعة منه.

فعقوبات الشارع جاءت على أتم الوجوه، وأوفقها للعقل، وأقومها بالمصلحة.

والمقصود: أن الذنوب إنما تترتب عليها العقوبات الشرعية، أو القدرية، أو يجمعهما الله للعبد، وقد يرفعهما عمن تاب وأحسن.

فصـل

عقـوبـات الذنـوب شـرعيـة وقـدريـة

وعقوبات الذنوب نوعان: شرعية وقدرية، فإذا أقيمت الشرعية رفعت العقوبات القدرية أو خففتها، ولا يكاد الرب تعالى يجمع على عبده بين العقوبتين إلا إذا لم يف أحدهما برفع موجب الذنب، ولم يكف فى زوال دائه. وإذا عطلت العقوبات الشرعية استحالت قدرية، وربما كانت أشد من الشرعية، وربما كانت دونها، ولكنها تعم، والشرعية تخص، فإن الرب تبارك وتعالى لا يعاقب شرعاً إلا من باشر الجناية أو تسبب إليها.

وأما العقوبة القدرية فإنها تقع عامة وخاصة، فإن المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها، وإذا أعلنت ضرت الخاصة والعامة، وإذا رأى الناس المنكر، فاشتركوا فى ترك إنكاره أوشك أن يعمهم الله بعقابه.

وقد تقدم أن العقوبة الشرعية شرعها الله سبحانه على قدر مفسدة الذنب، وتقاضى الطبع له، وجعلها سبحانه ثلاثة أنواع: القتل، والقطع، والجلد، وجعل القتل بإيزاء الكفر وما يليه ويقرب منه، وهو الزنا واللواط فإن هذا يفسد الأديان، وهذا يفسد الأنساب ونوع الإنسان.

قال الإمام أحمد: لا أعلم بعد القتل ذنبا أعظم من الزنا واحتج بحديث عبد الله بن مسعود أنه قال: يا رسول الله، أى الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**»، قال: قلت: ثم أى؟ قال: «**أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك**»، قال: قلت: ثم أى؟ قال: «**أن تزانى بحليلة جارك**»[1]. فأنزل الله سبحانه تصديقها: **﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ﴾** الآية [الفرقان: 68].

والنبى ﷺ ذكر من كل نوع أعلاه ليطابق جوابه سؤال السائل، فإنه سأله عن أعظم الذنب، فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعها، وما هو أعظم كل نوع.

---

(1) صحيح: رواه البخاري (4761) في التفسير، ومسلم (86) في الإيمان، والترمذي (3182).

فأعظم أنواع الشرك: أن يجعل العبد لله نداً.

وأعظم أنواع القتل: أن يقتل ولده خشية أن يشاركه في طعامه وشرابه.

وأعظم أنواع الزنى: أن يزنى بحليلة جاره، فإن مفسدة الزنى تتضاعف بتضاعف ما انتهكه من الحق.

فالزنى بالمرأة التى لها زوج أعظم إثماً وعقوبة من التى لا زوج لها، إذ فيه انتهاك حرمة الزوج وإفساد فراشه، وتعليق نسب عليه لم يكن منه، وغير ذلك من أنواع أذاه، فهو أعظم إثماً وجرماً من الزنى بغير ذات البعل.

فالزنى بمائة امرأة لا زوج لها أيسر عند الله من الزنى بامرأة لها زوج، فإن كان زوجها جاراً له انضاف إلى ذلك سوء الجوار، وأذى جاره بأعلى أنواع الأذى، وذلك أعظم البوائق.

وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «**لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه**»[١] ولا بائقة أعظم من الزنى بامرأة الجار.

فإن كان الجار أخاً أو قريباً من أقاربه انضم إلى ذلك قطيعة الرحم، فيتضاعف الإثم له، فإن كان الجار غائباً فى طاعة الله كالصلاة، وطلب العلم، والجهاد تضاعف له الإثم، حتى إن الزانى بامرأة الغازى فى سبيل الله يوقف له يوم القيامة، ويقال: خذ من حسناته ما شئت، قال النبى ﷺ : «**فما ظنكم؟**»[٢] أى ما ظنكم أنه يترك له من حسنات، قد حكم فى أن يأخذ منها ما شاء على شدة الحاجة إلى حسنة واحدة حيث لا يترك الأب لابنه ولا الصديق لصديقه حقاً يجب عليه؟ فإن اتفق أن تكون المرأة رحماً منه انضاف إلى ذلك قطيعة رحمها، فإن اتفق أن يكون الزانى محصناً كان الإثم أعظم، فإن كان شيخاً كان أعظم إثماً، وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم[٣]، فإن اقترن بذلك أن يكون في شهر حرام، أو بلد حرام، أو وقت معظم

(1) صحيح : رواه مسلم (46) في الإيمان، وأحمد في المسند (8638).
(2) صحيح : رواه مسلم (1897) في الإمارة، وأبو داود (2496) في الجهاد والنسائي (3190) في الجهاد، وأحمد في المسند (22468).
(3) صحيح : رواه مسلم (107) والهيثمي في المجمع (4/ 78).

عند الله، كأوقات الصلاة، وأوقات الإجابة تضاعف الإثم، وعلى هذا فاعتبر مفاسد الذنوب وتضاعف درجاتها فى الإثم والعقوبة، والله المستعان.

فصل

القطع لإفساد الأموال

وجعل سبحانه القطع بإزاء إفساد الأموال الذى لا يمكن الاحتراز منه؛ لأنه يأخذ الأموال فى الاختفاء، وينقب الدور، ويتسور من غير الأبواب فهو كالسنور والحية التى تدخل عليك من حيث لا تعلم، فلم ترتفع مفسدة سرقته إلى القتل، ولا تندفع بالجلد، فأحسن ما دفعت به مفسدته، إبانة العضو الذى يتسلط به على الجناية، وجعل الجلد بإزاء إفساد العقول، وتمزيق الأعراض بالقذف.

فدارت عقوباته سبحانه الشرعية على هذه الأنواع الثلاثة، كما دارت الكفارات على ثلاثة أنواع: العتق -وهو أعلاها- والإطعام، والصيام.

أقسام الذنوب

ثم إنه سبحانه جعل الذنوب ثلاثة أقسام:

قسماً فيه الحد، فهذا لم يشرع فيه كفارة اكتفاء بالحد.

وقسماً لم يرتب عليه حداً فشرع فيه الكفارة كالوطء فى نهار رمضان، والوطء فى الإحرام، والظهار، وقتل الخطأ، والحنث فى اليمين، وغير ذلك.

وقسماً لم يرتب عليه حداً ولا كفارة، وهو نوعان:

أحدهما: ما كان الوزاع عنه طبيعياً، كأكل العذرة، وشرب البول والدم.

والثانى: ما كانت مفسدته أدنى من مفسدة ما رتب عليه الحد، كالنظر والقبلة واللمس، والمحادثة، وسرقة فلس، ونحو ذلك.

الكفارات فى ثلاثة أنواع

وشرع الكفارات فى ثلاثة أنواع:

أحدها: ما كان مباح الأصل، ثم فرض تحريمه، فباشره فى الحالة التى عرض فيها التحريم، كالوطء فى الإحرام والصيام، وطرده الوطء فى الحيض والنفاس،

بخلاف الوطء في الدبر، ولهذا كان إلحاق بعض الفقهاء له بالوطء في الحيض لا يصح، فإنه لا يباح له في وقت دون وقت، فهو بمنزلة التلوط، وشرب المسكر.

النوع الثاني: ما عقده لله من نذر أو بالله من يمين، أو حرمه الله ثم أراد حله، فشرع الله سبحانه حله بالكفارة وسماها تحلة، وليست هذه الكفارة ماحية لهتك حرمة الاسم بالحنث، كما ظنه بعض الفقهاء، فإن الحنث قد يكون واجباً، وقد يكون مستحباً، وقد يكون مباحاً، وإنما الكفارة حل لما عقده.

النوع الثالث: ما تكون فيه جابرة لما فات، ككفارة قتل الخطأ، وإن لم يكن هناك إثم، وكفارة قتل الصيد خطأ، فإن ذلك من باب الجوابر، والنوع الأول من باب الزواجر، والنوع الوسط من باب التحلة لما منعه العقد.

لا يجتمع الحد والتعزير

ولا يجتمع الحد والتعزير في معصية، بل إن كان فيها حداً اكتفى به وإلا اكتفى بالتعزير، ولا يجتمع الحد والكفارة في معصية، بل كل معصية فيها حد فلا كفارة فيها، وما فيه كفارة فلا حد فيه، وهل يجتمع التعزير والكفارة في المعصية التي لا حد فيها؟ فيه وجهان، وهذا كالوطء في الإحرام والصيام، ووطء الحائض، وإذا أوجبنا فيه الكفارة، فقيل: يجب التعزير لما انتهك من الحرمة بركوب الجناية، وقيل: لا تعزير في ذلك، اكتفاء بالكفارة، لأنها جابرة وماحية.

فصل

العقوبات القدرية

أما العقوبات القدرية فهي نوعان: نوع على القلوب والنفوس، ونوع على الأبدان والأموال.

العقوبات القدرية على القلوب

والتي على القلوب نوعان:

أحدهما: آلام وجودية يضرب بها القلب.

والثاني: قطع المواد التي بها حياته وصلاحه عنه.

وإذا قطعت عنه حصل له أضدادها، وعقوبة القلب أشد العقوبتين، وهى أصل عقوبة الأبدان.

وهذه العقوبة تقوى وتتزايد، حتى تسرى من القلب إلى البدن، كما يسرى ألم البدن إلى القلب، فإذا فارقت النفس البدن صار الحكم متعلقاً بها، فظهرت عقوبة القلب حينئذ، وصارت علانية ظاهرة، وهى المسماة بعذاب القبر، ونسبته إلى البرزخ كنسبة عذاب الأبدان إلى هذه الدار.

فصل

العقـوبـات القدرية على الأبدان

والتى على الأبدان أيضاً نوعان:

نوع فى الدنيا، ونوع فى الآخرة.

وشدتها ودوامها بحسب مفاسد ما رتبت عليه فى الشدة والخفة، فليس فى الدنيا والآخرة شر أصلاً إلا الذنوب وعقوباتها، فالشر اسم لذلك كله، وأصله من شر النفس وسيئات الأعمال، وهما الأصلان اللذان كان النبى ﷺ يستعيذ منهما فى خطبته بقوله: **«ونعوذُ بالله منْ شُرور أنفُسنا، ومن سَيِّئَات أعمَالنَا»**[1] وسيئات الأعمال من شرور النفس، فعاد الشر كله إلى شر النفَس، فإن سيئات الأعمَال من فروعه وثمراته.

وقد اختلف فى معنى قوله: **«ومن سيئات أعمالنا»** هل معناه السئ من أعمالنا، فيكون من باب إضافة النوع إلى جنسه ويكون بمعنى من أو تكون «من» بيانية؟ وقيل: معناه من عقوباتها التى تسوء، فيكون التقدير: ومن عقوبات أعمالنا التى تسوؤنا، ويرجح هذا القول: أن الاستعاذة تكون قد تضمنت جميع الشر، فإن شرور الأنفس تسلتزم الأعمال السيئة، وهى تسلتزم العقوبات السيئة، فنبه بشرور الأنفس على ما تقتضيه من قبح الأعمال، واكتفى بذكرها منه، إذ هو أصله، ثم ذكر غاية الشر ومنتهاه وهى السيئات التى تسوء العبد من عمله، من العقوبات والآلام، فتضمنت هذه الاستعاذة أصل الشر وفرعه وغايته، ومقتضاه،

---

(1) صحيح: في سنن أبي داود (2118)، والترمذي (1105)، وابن ماجه (1892) في النكاح، وأحمد في المسند (4104)، والنسائي (1404) وصححه الألباني في النسائي برقم (1403).

ومن دعاء الملائكة للمؤمنين قولهم: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾[غافر: 9] فهذا يتضمن طلب وقايتهم من سيئات الأعمال وعقوباتها التى تسوء صاحبها، فإنه سبحانه متى وقاهم عمل السيئ، وقاهم جزاء السيئ وإن كان قوله: ﴿وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ أظهر فى عقوبات الأعمال المطلوب وقايتها يومئذ.

فإن قيل: فقد سألوه سبحانه أن يقيهم عذاب الجحيم، وهذا هو وقاية العقوبات السيئة، فدل على أن المراد بالسيئات التى سألوا وقايتها، الأعمال السيئة، ويكون الذى سأله الملائكة نظير ما استعاذ منه النبى ﷺ.

ولا يرد على هذا قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فإن المطلوب وقاية شرور سيئات الأعمال ذلك اليوم وهى سيئات فى أنفسها.

قيل: وقاية السيئات نوعان:

أحدهما: وقاية فعلها بالتوفيق فلا تصدر منه.

والثانى: وقاية جزائها بالمغفرة، فلا يعاقب عليها، فتضمنت الآية سؤال الأمرين، والظرف تقييد للجملة الشرطية لا للجملة الطلبية.

وتأمل ما تضمنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالإيمان، والعمل الصالح، والإحسان إلى المؤمنين بالاستغفار لهم، وقدموا بين يدى استغفارهم توسلهم إلى الله سبحانه بسعة علمه، وسعة رحمته، فسعة علمه تتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها وضعفهم عن العصمة، واستيلاء عدوهم وأنفسهم، وهواهم وطباعهم، وما زين لهم من الدنيا وزينتها، وعلمه بهم، إذ أنشأهم من الأرض، وإذ هم أجنة فى بطون أمهاتهم، وعلمه السابق بأنهم لابد أن يعصوه، وأنه يحب العفو والمغفرة، وغير ذلك من سعة علمه الذى لا يحيط به أحد سواه، وسعة رحمته تتضمن أنه لايهلك عليه أحد من المؤمنين به، أهل توحيده ومحبته، فإنه واسع الرحمة لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأشقياء، ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التى وسعت كل شئ، ثم سألوه أن يغفر للتائبين الذين اتبعوا سبيله، وهو صراطه الموصل إليه الذى هو معرفته ومحبته وطاعته، فتابوا مما يكره، واتبعوا السبيل التى يحبها، ثم سألوه أن يقيهم عذاب الجحيم، وأن يدخلهم والمؤمنين -من أصولهم

وفروعهم وأزواجهم- جنات عدن التى وعدهم بها، وهو سبحانه وإن كان لا يخلف الميعاد، فإن وعدهم بها بأسباب، من جملتها: دعاء ملائكته لهم أن يدخلهم إياها برحمته التى منها أن وفقهم لأعمالهم، وأقام ملائكته يدعون لهم بها.

ثم أخبر سبحانه عن ملائكته أنهم قالوا عقيب هذه الدعوة: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة:129] أى: مصدر ذلك، وسببه، وغايته صادر عن كمال قدرتك وكمال علمك، فإن العزة كمال القدرة، والحكمة كمال العلم، وبهاتين الصفتين يقضى سبحانه وتعالى ما شاء، ويأمر وينهى ويثيب ويعاقب، فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر.

والمقصود: أن عقوبات السيئات تتنوع إلى عقوبات شرعية، وعقوبات قدرية، وهى إما فى القلب، وإما فى البدن، وإما فيهما، وعقوبات فى دار البرزخ بعد الموت، وعقوبات يوم حشر الأجساد، فالذنب لا يخلو من عقوبة البتة، ولكن لجهل العبد لا يشعر بما هو فيه من العقوبات، لأنه بمنزلة السكران والمخدر، والنائم الذى لا يشعر بالألم، فإذا استيقظ وصحا أحس بالألم، فترتب العقوبات على الذنوب كترتب الإحراق على النار، والكسر على الانكسار، والغرق على الماء، وفساد البدن على السموم، والأمراض على الأسباب الجالبة لها، وقد تقارن المضرة الذنب، وقد تتأخر عنه، إما يسيراً وإما مدة، كما يتأخر المرض عن سببه أو يقارنه، وكثيراً ما يقع الغلط للعبد فى هذا المقام ويذنب الذنب فلا يرى أثره عَقِيْبَه، ولا يدرى أنه يعمل عمله على التدريج شيئاً فشيئاً، كما تعمل السموم والأشياء الضارة حذو القُذَّة بالقُذَّة، فإن تدارك العبد بالأدوية والاستفراغ والحمية، وإلا فهو صائر إلى الهلاك، هذا إذا كان ذنباً واحداً لم يتداركه بما يزيل أثره، فكيف بالذنب على الذنب كل يوم وكل ساعة؟! والله المستعان.

فصل

بعض عقوبات المعاصى

فاستحضر بعض العقوبات التى رتبها الله سبحانه وتعالى على الذنوب، وجوز وصول بعضها إليك، واجعل ذلك داعياً للنفس إلى هجرانها، وأنا أسوق لك منها طرقاً يكفى العاقل مع التصديق ببعضه.

الختـم على القلـب

فمنها: الختم على القلوب والأسماع، والغشاوة على الأبصار، والإقفال على القلوب، وجعل الأكنة عليها، والرين عليها والطبع، وتقليب الأفئدة، والأبصار، والحيلولة بين المرء وقلبه، وإغفال القلب عن ذكر الرب، وإنساء الإنسان نفسه، وترك إرادة الله تطهير القلب، وجعل الصدر ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء، وصرف القلوب عن الحق، وزيادتها مرضاً على مرضها، وإركاسها وإنكاسها، بحيث تبقى منكوسة كما ذكر الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه قال: «القلوب أربعة: فقلب أجرد، فيه سراج يزهر، فذلك قلب المؤمن، وقلب أغلف، فذلك قلب الكافر، وقلب منكوس، فذلك قلب المنافق، وقلب تمده مادتان: مادة إيمان، ومادة نفاق، وهو لما غلب عليه منهما»(١).

ومنها: التثبيط عن الطاعة، والإقعاد عنها.

ومنها: جعل القلب أصم لا يسمع الحق، أبكم لا ينطق به، أعمى لا يراه، فتصير النسبة بين القلب وبين الحق الذى لا ينفعه غيره، كالنسبة بين أذن الأصم والأصوات، وعين الأعمى والألوان، ولسان الأخرس والكلام، وبهذا يعلم أن العمى، والصمم، والبكم، للقلب بالذات والحقيقة، وللجوارح بالعرض والتبعية: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:46] وليس المراد نفى العمى الحسى عن البصر، كيف وقد قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ﴾ [النور:61]، وقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝ أَن جَاءَهُ الأَعْمَى﴾ [عبس:1-2]، وإنما المراد أن العمى التام فى الحقيقة عمى القلب، حتى إن عمى البصر بالنسبة إليه كالأعمى، حتى إنه يصح نفيه بالنسبة إلى كماله وقوته، كما قال ﷺ: «**ليس الشديد بالصرعة ولكنه الذى يملك نفسه عند الغضب**»(٢)، وقوله ﷺ: «**ليس المسكين بالطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذى لا يسأل الناس، ولا يفطن له فيتصدق عليه**»(٣)، ونظائره كثيرة.

---

(1) رواه أحمد في المسند (10745).

(2) صحيح : رواه البخاري (6114) في الأدب، ومسلم (2609) في البر والصلة وأبو داود في الأدب (4779) وأحمد في المسند (7584، 10324).

(3) صحيح : رواه البخاري (1479) في الزكاة، ومسلم (1039) في الزكاة، وأبو داود (1631) في الزكاة، وأحمد في المسند (27404) والنسائي (2572) في الزكاة.

والمقصود: أن من عقوبات المعاصى جعل القلب أعمى، أصم، أبكم.

خسف القلب

ومنها الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان وما فيه، فيخسف به إلى أسفل السافلين، وصاحبه لا يشعر، وعلامة الخسف به أنه لا يزال جَّوالاً حول السفليات، والقاذورات، والرذائل، كما أن القلب الذى رفعه الله وقربه إليه لا يزال جَّوالاً حول العرش.

ومنها البعد عن البر، والخير، ومعالى الأعمال، والأقوال، والأخلاق.

قال بعض السلف: «إن هذه القلوب جوالة، فمنها ما يجول حول العرش، ومنها ما يجول حول الحُشّ».

مسخ القلب

ومنها: مسخ القلب، فيمسخ كما تمسخ الصورة، فيصير القلب على قلب الحيوان الذى شابهه فى أخلاقه، وأعماله، وطبيعته، فمن القلوب ما يمسخ على قلب خنزير لشدة شبه صاحبه به، ومنها ما يمسخ على خلق قلب كلب، أو حمار، أو حية، أو عقرب، وغير ذلك، وهذا تأويل سفيان بن عيينة فى قوله تعالى: ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم**﴾ [الأنعام:38]، قال: منهم من يكون على أخلاق السباع العادية، ومنهم من يكون على أخلاق الكلاب، وأخلاق الخنازير، وأخلاق الحمير، ومنهم من يتطوس فى ثيابه كما يتطوس الطاووس فى ريشه، ومنهم من يكون بليداً كالحمار، ومنهم من يؤثر على نفسه كالديك، ومنهم من يألف ويؤلف كالحمام، ومنهم الحقود كالجمل، ومنهم الذى هو خير كله كالغنم، ومنهم أشباه الثعالب التى تروغ كروغانها، وقد شبه الله تعالى أهل الجهل والغى بالحمر تارة، وبالكلب تارة، وبالأنعام تارة، وتقوى هذه المشابهة باطناً حيث تظهر فى الصورة الظاهرة ظهوراً خفياً، يراه المتفرسون، وتظهر فى الأعمال ظهوراً يراه كل أحد ولا يزال يقوي حتي تستشنع الصورة، فتنقلب له الصورة بإذن الله، وهو المسخ التام، فيقلب الله سبحانه وتعالى الصورة الظاهرة على صورة ذلك الحيوان، كما فعل باليهود وأشباههم، ويفعل بقوم من هذه الأمة يمسخهم قردة وخنازير.

فسبحان الله! كم من قلب منكوس وصاحبه لا يشعر! وقلب ممسوخ، وقلب مخسوف به؟ وكم من مفتون بثناء الناس عليه! ومغرور بستر الله عليه! ومستدرج بنعم الله عليه! وكل هذه عقوبات وإهانات، ويظن الجاهل أنها كرامة.

ومنها: مكر الله بالماكر، ومخادعته للمخادع، واستهزاؤه بالمستهزئ، وإزاغته للقلب الزائغ عن الحق.

نكس القلب

ومنها: نكس القلب حتى يرى الباطل حقاً، والحق باطلاً، والمعروف منكراً، والمنكر معروفاً، ويفسد ويرى أنه يصلح، ويصد عن سبيل الله وهو يرى أنه يدعو إليها، ويشترى الضلالة بالهدى، وهو يرى أنه على الهدى، ويتبع هواه وهو يزعم أنه مطيع لمولاه، وكل هذا من عقوبات الذنوب الجارية على القلب.

حجب القلب عن الرب

ومنها: حجاب القلب عن الرب فى الدنيا، والحجاب الأكبر يوم القيامة، كما قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14) كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:14-15]، فمنعتهم الذنوب أن يقطعوا المسافة بينهم وبين قلوبهم، فيصلوا إليها فيروا ما يصلحها ويزكيها، وما يفسدها ويشقيها، وأن يقطعوا المسافة بين قلوبهم وبين ربهم، فتصل القلوب إليه فتفوز بقربه وكرامته، وتقر به عيناً وتطيب به نفساً، بل كانت الذنوب حجاباً بينهم وبين قلوبهم، وحجاباً بينهم وبين ربهم وخالقهم.

المعيشة الضنك

ومنها: المعيشة الظنك فى الدنيا وفى البرزخ، والعذاب فى الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:124]، وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، ولا ريب أنه من المعيشة الضنك. والآية تتناول ما هو أعم منه، وإن كانت نكرة فى سياق الإثبات، فإن عمومها من حيث المعنى، فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره، فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه، وإن تنعم فى الدنيا بأصناف النعم. ففى

قلبه من الوحشة والذل والحسرات التى تقطع القلوب، والأمانى الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه. وإنما يواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة، وإن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر، فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر، فإنه يفيق صاحبه ويصحو، وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا كان صاحبه فى عسكر الأموات، فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذى أنزله على رسوله ﷺ فى دنياه وفى البرزخ ويوم معاده. ولا تقر العين، ولا يهدأ القلب، ولا تطمئن النفس إلا بإلهها ومعبودها الذى هو حق، وكل معبود سواه باطل، فمن قرَّت عينه بالله قرَّت به كل عين، ومن لم تقرّ عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن به وعمل صالحاً كما قال تعالى:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النحل:97].

فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء فى الدنيا والحياة الطيبة والحسنى يوم القيامة، فلهم أطيب الحياتين، وهم أحياء فى الدارين.

ونظير هذا قوله تعالى:

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾

[النحل:30].

ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾[هود:3].

ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة، وحصلوا على الحياة الطيبة فى الدارين، فإن طيب النفس، وسرور القلب، وفرحه، ولذته، وابتهاجه، وطمأنينته، وانشراحه، ونوره، وسعته، وعافيته -من ترك الشهوات المحرمة، والشبهات الباطلة، وهو النعيم على الحقيقة، ولا نسبة لنعيم البدن إليه.

فقد كان يقول بعض من ذاق هذه اللذة: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف.

وقال آخر: إنه ليمرّ بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة فى مثل هذا إنهم لفى عيش طيب.

وقال آخر: إن فى الدنيا جنة، هى فى الدنيا كالجنة فى الآخرة، فمن دخلها دخل تلك الجنة، ومن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، وقد أشار النبى ﷺ إلى هذه الجنة بقوله: «**إذا مَرَرْتُم برياض الجنة فارتَعُوا**، قالوا: وما رِيَاضُ الجنة؟ قال: **حلق الذكر**»[1]، وقال: «**ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة**»[2].

نعيم الأبرار، وجحيم الفجار

ولا تظن أن قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**﴾ [الانفطار:13-14] مختص بيوم المعاد فقط، بل هؤلاء فى نعيم فى دورهم الثلاثة، وهؤلاء فى جحيم في دورهم الثلاثة، وأى لذة ونعيم فى الدنيا أطيب من بر القلب، وسلامة الصدر، ومعرفة الرب تعالى ومحبته، والعمل على موافقته؟

وهل العيش فى الحقيقة إلا عيش القلب السليم؟ وقد أثنى الله تعالى على خليله عليه السلام بسلامة قلبه فقال: ﴿**وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الصافات:83-84].

وقال حاكياً عنه أنه قال: ﴿**يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الشعراء:88-89]، والقلب السليم هو الذى سلم من الشرك، والغل، والحقد، والحسد، والشح، والكبر، وحب الدنيا والرياسة، فسلم من كل آفة تبعده عن الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم عن كل قاطع يقطع عن الله، فهذا القلب السليم في جنة معجلة فى الدنيا، وفى جنة فى البرزخ، وفى جنة يوم المعاد.

---

(1) حسن : رواه الترمذي (3510) في الدعوات، أحمد في المسند (12114) وحسنه الألباني في صحيح الترمذي.

(2) صحيح : رواه البخاري (1195) في التطوع، ومسلم (1390) في الحج، والترمذي (3916) في المناقب، وأحمد في المسند (15998،16018)، والنسائي (695) في المساجد.

سلامة القلب

ولا تتم له سلامته مطلقاً حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوى يناقض التجريد والإخلاص.

وهذه الخمسة حجب عن الله، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة، تتضمن أفراداً لا تنحصر.

الصراط المستقيم

ولذلك اشتدت حاجة العبد بل ضرورته، إلى أن يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم، فليس العبد أحوج منه إلى هذه الدعوة، وليس شئ أنفع له منها.

فإن الصراط المستقيم يتضمن علوماً وإرادات وأعمالاً وتروكاً ظاهرة وباطنة تجرى عليه كل وقت، فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد، وقد لا يعلمها، وقد يكون ما لايعلمه أكثر مما يعلمه، وما يعلمه قد يقدر عليه، وقد لا يقدر عليه، وهو الصراط المستقيم وإن عجز عنه، وما يقدر عليه قد تريده نفسه، وقد لا تريده كسلاً وتعاوناً، أو لقيام مانع وغير ذلك، وما تريده قد يفعله، وقد لا يفعله، وما يفعله قد يقوم فيه بشروط الإخلاص، وقد لا يقوم، وما يقوم فيه بشروط الإخلاص قد يقوم فيه بكمال المتابعة وقد لا يقوم، وما يقوم فيه بالمتابعة، قد يثبت عليه، وقد يصرف قلبه عنه، وهذا كله واقع سار فى الخلق، فمستقل ومستكثر.

وليس فى طباع العبد الهداية إلى ذلك، بل متى وكل إلى طباعه حيل بينه وبين ذلك كله، وهذا هو الإركاس الذى أركس الله به المنافقين بذنوبهم، فأعادهم إلى طباعهم، وما خلقت عليه نفوسهم من الجهل والظلم، والرب تبارك وتعالى على صراط مستقيم في قضائه، وقدره، ونهيه، وأمره، فيهدي من يشاء إلي صراط مستقيم بفضله، ورحمته، وجعله الهداية حيث تصلح، ويصرف من يشاء عن صراطه المستقيم بعدله، وحكمته، لعدم صلاحية المحل، وذلك موجب صراطه المستقيم الذى هو عليه، فإذا كان يوم القيامة نصب لخلقه صراطاً مستقيماً يوصلهم إليه، فهو على صراط مستقيم.

ونصب لعبادة من أمره صراطاً مستقيماً دعاهم جميعاً إليه حجة منه وعدلاً، وهدى من يشاء منهم إلى سلوكه نعمة منه وفضلاً، ولم يخرج بهذا العدل وهذا القصد، عن صراطه المستقيم الذى هو عليه، فإذا كان يوم لقائه نصب لخلقه صراطاً مستقيماً يوصلهم إلى جنته، ثم صرف عنه من صرف عنه فى الدنيا، وأقام عليه من أقامه عليه فى الدنيا، وجعل نور المؤمنين به وبرسوله، وما جاء به الذى كان فى قلوبهم فى الدنيا نوراً ظاهراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم فى ظلمة الحشر، وحفظ عليهم نورهم حتى قطعوه، كما حفظ عليهم الإيمان به حتى لقوه، وأطفأ نور المنافقين أحوج ما كانوا إليه، كما أطفأه فى قلوبهم فى الدنيا.

وأقام أعمال العصاة بجنبتى الصراط كلاليب وحسكاً تخطفهم كما خطفتهم فى الدنيا عن الاستقامة عليه، وجعل قوة سيرهم، وسرعتهم عليه على قدر قوة سيرهم، وسرعتهم إليه فى الدنيا، ونصب للمؤمنين حوضاً يشربون منه بإزاء شربهم من شرعه فى الدنيا، وحرم من الشرب منه هناك من حرم من الشرب من شرعه ودينه هاهنا.

فانظر إلى الآخرة كأنها رأى عين، وتأمل حكمة الله سبحانه فى الدارين، تعلم حينئذ علماً يقيناً لا شك فيه، أن الدنيا مزرعة الآخرة وعنوانها وأنموذجها، وأن منازل الناس فيها من السعادة والشقاوة على حسب منازلهم فى هذه الدار فى الإيمان والعمل الصالح وضدهما، وبالله التوفيق.

فمن أعظم عقوبات الذنوب الخروج عن الصراط المستقيم فى الدنيا والآخرة.

فصل

أصــل الذنــــوب

ولما كانت الذنوب متفاوتة فى درجاتها ومفاسدها، تفاوتت عقوباتها فى الدنيا والآخرة بحسب تفاوتها.

ونحن نذكر فيها بعون الله وحسن توفيقه فصلاً وجيزاً جامعاً، فنقول: أصلها

نوعان: ترك مأمور، وفعل محظور، وهما الذنبان اللذان ابتلى الله سبحانه بهما أبوى الجن والإنس.

وكلاهما ينقسم باعتبار محله إلى ظاهر على الجوارح، وباطن فى القلوب.

وباعتبار متعلقه إلى حق الله، وحق خلقه.

وإن كان كل حق لخلقه فهو متضمن لحقه، لكن سمى حقاً للخلق، لأنه يجب بمطالبتهم، ويسقط بإسقاطهم.

ثم هذه الذنوب تنقسم إلى أربعة أقسام: ملكية، وشيطانية، وسبعية، وبهيمية، ولا تخرج عن ذلك.

الذنوب الملكية

فالذنوب الملكية: أن يتعاطى ما لا يصلح له من صفات الربوبية، كالعظمة، والكبرياء، والجبروت،والقهر، والعلو، واستعباد الخلق، ونحو ذلك.

ويدخل فى هذا الشرك بالرب تعالى، وهو نوعان: شرك به فى أسمائه وصفاته وجعل آلهة أخرى معه، وشرك به فى معاملته، وهذا الثانى قد لا يوجب دخول النار، وإن أحبط العمل الذى أشرك فيه مع الله غيره.

وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب، ويدخل فيه القول على الله بلا علم فى خلقه وأمره، فمن كان من أهل هذه الذنوب، فقد نازع الله سبحانه فى ربوبيته وملكه، وجعل له نداً، وهذا أعظم الذنوب عند الله، ولا ينفع معه عمل.

فصل

الذنوب الشيطانية

وأما الشيطانية: فالتشبه بالشيطان فى الحسد، والبغى، والغش، والغل، والخداع، والمكر، والأمر بمعاصى الله، وتحسينها، والنهى عن طاعته، وتهجينها، والابتداع فى دينه، والدعوة إلى البدع والضلال.

وهذا النوع يلى النوع الأول فى المفسدة، وإن كانت مفسدته دونه.

فصل

الذنــوب السبعيــة

وأما السبعية: فذنوب العدوان، والغضب، وسفك الدماء، والتوثب على الضعفاء والعاجزين، ويتولد منها أنواع أذى النوع الإنساني، والجرأة على الظلم والعدوان.

الذنــوب البهيـمية

وأما الذنوب البهيمية فمثل: الشره، والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، ومنها يتولد الزنى، والسرقة، وأكل أموال اليتامى، والبخل، والشح، والجبن، والهلع، والجزع، وغير ذلك.

وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق لعجزهم عن الذنوب السبعية والملكية، ومنه يدخلون إلى سائر الأقسام، فهو يجرهم إليها بالزمام، فيدخلون منه إلى الذنوب السبعية، ثم إلى الشيطانية، ثم إلى منازعة الربوبية، والشرك في الوحدانية.

ومن تأمل هذا حق التأمل، تبين له أن الذنوب دهليز الشرك والكفر، ومنازعة الله في ربوبيته.

فصل

الذنوب: كبائر وصغائر

وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة، على أن من الذنوب كبائر وصغائر، قال تعالى: ﴿**إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا**﴾ [النساء:31]، وقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ**﴾ [النجم:32].

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**»[1].

(1) صحيح: رواه مسلم (233) في الطهارة، وابن ماجه (598) في الطهارة وأحمد في المسند (8498) والترمذي (214).

وهذه الأعمال المكفرة لها ثلاث درجات:

إحداها: أن تقصر عن تكفير الصغائر لضعفها وضعف الإخلاص فيها والقيام بحقوقها، بمنزلة الدواء الضعيف الذى ينقص عن مقاومة الداء كمية وكيفية.

الثانية: أن تقاوم الصغائر، ولا ترتقى إلى تكفير شئ من الكبائر.

الثالثة: أن تقوى على تكفير الصغائر، وتبقى فيها قوة تكفر بها بعض الكبائر. فتأمل هذا، فإنه يزيل عنك إشكالات كثيرة.

وفى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟** قلنا: بلى يا رسول الله، فقال: **الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور**»[1].

وفى الصحيحين عنه ﷺ : «**اجتنبوا السبع الموبقات**»، قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: «**الإشراك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»[2].

وفى الصحيحين عنه ﷺ : أنه سئل: أى الذنب أعظم عند الله؟ قال: «**أن تدعو لله نداً وهو خلقك**»، قيل: ثم أى؟ قال: «**أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك**»، قال: ثم أى؟ قيل: «**أن تزانى حليلة جارك**»[3]، فأنزل الله تعالى تصديقها: ﴿**وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ**﴾ الآية [الفرقان:68].

عدد الكبائر

واختلف الناس فى الكبائر، هل لها عدد يحصرها؟ على قولين.

ثم الذين قالوا بحصرها اختلفوا فى عددها، فقال عبد الله بن مسعود: هى أربع، وقال عبد الله بن عمر: هى سبع، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: هى تسع، وقال غيره: هى إحدى عشرة، وقال آخر: هى سبعون.

---

(1) صحيح : رواه البخاري (2654،5976) ومسلم (87) في الإيمان، والترمذي (1901) في البر والصلة، و(2301) في الشهادات، وأحمد في المسند (19872،19881).

(2) صحيح : رواه البخاري (2766،6857) ومسلم (89) في الإيمان.

(3) سبق تخريجه.

وقال أبو طالب المكى: جمعتها من أقوال الصحابة، فوجدتها أربعة فى القلب، وهى الشرك بالله، والإصرار على المعصية، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله. وأربعة فى اللسان وهى: شهادة الزور، وقذف المحصنات، واليمين الغموس، والسحر. وثلاث فى البطن: شرب الخمر، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا. واثنان فى الفرج وهما: الزنى، واللواط. واثنان فى اليدين وهما: القتل، والسرقة. وواحد فى الرجلين، وهو: الفرار من الزحف. وواحد يتعلق بجميع الجسد، وهو عقوق الوالدين.

والذين لم يحصروها بعدد، منهم من قال: كل ما نهى الله عنه فى القرآن فهو كبيرة، وما نهى عنه رسول الله ﷺ فهو صغيرة.

وقالت طائفة: ما اقترن بالنهى عنه وعيد من لعن أو غضب أو عقوبة فهو كبيرة، ومالم يقترن به شئ من ذلك فهو صغيرة.

وقيل: كل ما ترتب عليه حد في الدنيا، أو وعيد فى الآخرة فهو كبيرة، وما لم يرتب عليه لا هذا ولا هذا، فهو صغيرة.

وقيل: كل ما اتفقت الشرائع على تحريمه فهو من الكبائر، وما كان تحريمه فى شريعة دون شريعة فهو صغيرة.

وقيل: كل ما لعن الله ورسوله فاعله فهو كبيرة.

وقيل: هى كل ما ذكر من أول سورة النساء إلى قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء:31].

الذين لم يقسموها إلى كبائر وصغائر

والذين لم يقسموها إلى كبائر وصغائر قالوا: الذنوب كلها بالنسبه إلى الجراءة على الله سبحانه ومعصيته ومخالفة أمره كبائر، فالنظر إلى من عصى أمره وانتهك محارمه يوجب أن تكون الذنوب كلها كبائر، وهى مستوية فى هذه المفسدة.

قالوا: ويوضح هذا أن الله سبحانه لا تضره الذنوب ولا يتأثر بها، فلا يكون بعضها بالنسبة إليه أكبر من بعض، فلم يبق إلا مجرد معصيته ومخالفته، ولا فرق فى ذلك بين ذنب وذنب.

قالوا: ويدل عليه أن مفسدة الذنوب إنما هي تابعة للجراءة والتوثب على حق الرب تبارك وتعالى ولهذا لو شرب رجل خمراً، أو وطئ فرجاً حراماً، وهو لا يعتقد تحريمه، لكان قد جمع بين الجهل، وبين مفسدة ارتكاب الحرام، ولو فعل ذلك من يعتقد تحريمه لكان آتياً بإحدى المفسدتين، وهو الذى يستحق العقوبة دون الأول، فدل على أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوثب.

قالوا: ويدل على هذا أن المعصية تتضمن الاستهانة بأمر المطاع، ونهيه، وانتهاك حرمته، وهذا لا فرق فيه بين ذنب وذنب.

قالوا: فلا ينظر العبد إلى كبر الذنب وصغره فى نفسه، ولكن ينظر إلى قدر من عصاه، وعظمته، وانتهاك حرمته بالمعصية، وهذا لا يفترق فيه الحال بين معصية ومعصية، فإن ملكاً مطاعاً عظيماً لو أمر أحد مملوكيه أن يذهب فى مهمٍّ له إلى بلد بعيد، وأمر آخر أن يذهب فى شغل له إلى جانب الدار، فعصياه وخالفا أمره، لكانا فى مقته والسقوط من عينه سواء.

قالوا: ولهذا كانت معصية من ترك الحج من مكة، ومن ترك الجمعة وهو جار المسجد، أقبح عند الله من معصية من ترك من المكان البعيد، والواجب على هذا أكثر من الواجب على هذا، ولو كان مع رجل مائتا درهم ومنع زكاتها، ومع آخر مائتا ألف ألف فمنع زكاتها لاستويا فى منع ما وجب على كل واحد منهما، ولا يبعد استواؤهما فى العقوبة، إذا كان كل منهما مصراً على منع زكاة ماله، قليلاً كان المال أو كثيراً.

فصل

الحق فى المسألة

وكشف الغطاء عن هذه المسألة أن يقال:

إن الله عزوجل أرسل رسله، وأنزل كتبه، وخلق السموات والأرض، ليعرف، ويعبد، ويوحد، ويكون الدين كله لله، والطاعة كلها له، والدعوة له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:56] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الحجر:85] وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي

خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: 12] وقال تعالى:﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة:97].

فأخبر سبحانه أن القصد بالخلق والأمر أن يُعرف بأسمائه وصفاته، ويُعبد وحده لا يُشرك به، وأن يقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذى قامت به السماوات والأرض، كما قال تعالى:﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد:25].

فأخبر سبحانه أنه أرسل رسله وأنزل كتبه، ليقوم الناس بالقسط وهو العدل، ومن أعظم القسط التوحيد، وهو رأس العدل وقوامه، وإن الشرك لظلم عظيم، فالشرك أظلم الظلم، والتوحيد أعدل العدل، فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر، وتفاوتها فى درجاتها بحسب منافاتها له، وما كان أشد موافقة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات. فتأمل هذا الأصل حق التأمل، واعتبر تفاصيله تعرف به حكمة أحكم الحاكمين، وأعلم العالمين، فيما فرضه على عباده، وحرمه عليهم، وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصى، فلما كان الشرك بالله منافياً بالذات لهذا المقصود كان من أكبر الكبائر على الإطلاق، وحرم الله الجنة على كل مشرك، وأباح دمه، وماله، وأهله، لأهل التوحيد، وأن يتخذوهم عبيداً لهم، لما تركوا القيام بعبوديته، وأبى الله سبحانه أن يقبل من مشرك عملاً، أو يقبل فيه شفاعة، أو يستجيب له فى الآخرة دعوة، أو يقيل له فيها عثرة، فإن المشرك أجهل الجاهلين بالله، حيث جعل له من خلقه نداً، وذلك غاية الجهل به، كما أنه غاية الظلم منه، وإن كان المشرك لم يظلم ربه، وإنما ظلم نفسه.

فصل

شرك الوساطة

ووقعت مسألة، وهى: أن المشرك إنما قصده تعظيم جناب الرب تبارك وتعالى، وأنه لعظمته لا ينبغى الدخول عليه إلا بالوسائط والشفعاء، كحال الملوك، فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية، وإنما قصد تعظيمه، وقال: إنما أعبد

هذه الوسائط لتقربني إليه، وتدلنى، وتدخلنى عليه، فهو المقصود، وهذه وسائل وشفعاء، فلم كان هذا القدر موجباً لسخطه، وغضبه تبارك وتعالى، ومخلداً فى النار، وموجباً لسفك دماء أصحابه، واستباحة حريمهم وأموالهم؟!.

وترتب على هذا سؤال آخر، وهو أنه: هل يجوز أن يشرع الله سبحانه لعباده التقرب إليه بالشفعاء، والوسائط، فيكون تحريم هذا إنما استفيد من الشرع، أم ذلك قبيح فى الفطر والعقول يمتنع أن تأتى به شريعة؟ بل جاءت الشرائع بتقرير ما فى الفطر والعقول من قبحه الذى هو أقبح من كل قبيح، وما السر فى كونه لا يغفره من بين سائر الذنوب؟ كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ [النساء: 48].

فتأمل هذا السؤال، واجمع قلبك وذهنك على جوابه ولا تستهونه، فإن به يحصل الفرق بين المشركين والموحدين، والعالمين بالله والجاهلين به، وأهل الجنة وأهل النار.

نوعا الشرك

فنقول، وبالله التوفيق والتأييد، ومنه نستمد المعونة والتسديد، فإنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، ولا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع.

الشرك شركان

شرك يتعلق بذات المعبود، وأسمائه، وصفاته وأفعاله.

وشرك فى عبادته ومعاملته، وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه لا شريك له فى ذاته، ولا فى صفاته، ولا فى أفعاله.

والشرك الأول نوعان:

أحدهما شرك التعطيل: وهو أقبح أنواع الشرك، كشرك فرعون إذ قال: ﴿**وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الشعراء:23] وقال تعالى مخبراً عنه أنه قال لهامان: ﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا**﴾ [غافر:36-37].

والشرك والتعطيل متلازمان، فكل مشرك معطل، وكل معطل مشرك، لكن الشرك لا يستلزم أصل التعطيل، بل قد يكون المشرك مقراً بالخالق سبحانه وصفاته، ولكنه عطل حق التوحيد.

التعطيل

وأصل الشرك وقاعدته التى يرجع إليها، هو التعطيل، وهو ثلاثة أقسام:

تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه.

وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه، وأوصافه، وأفعاله.

وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد.

ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود الذين يقولون: ما ثم خالق ومخلوق ولا هاهنا شيئان، بل الحق المنزه هو عين الخلق المشبه، ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته، وأنه لم يكن معدوماً أصلاً، بل لم يزل ولا يزال، والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب، ووسائط اقتضت إيجادها، يسمونها بالعقول، والنفوس، ومن هذا شرك من عطل أسماء الرب تعالى، وأوصافه، وأفعاله من غلاة الجهمية والقرامطة، فلم يثبتوا له اسماً ولا صفة، بل جعلوا المخلوق أكمل منه، إذ كمال الذات بأسمائها وصفاتها.

فصل

شرك من جعل مع الله إلهاً آخر

النوع الثانى: شرك من جعل مع الله إلها آخر ولم يعطل أسماءه، وصفاته، وربوبيته كشرك النصارى الذين جعلوه ثالث ثلاثة، فجعلوا المسيح إلهاً، وأمه إلهاً.

ومن هذا شرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور، وحوادث الشر إلى الظلمة.

ومن هذا شرك القدرية القائلين بأن الحيوان هو الذى يخلق أفعال نفسه، وأنها تحدث بدون مشيئة الله وقدرته وإرادته، ولهذا كانوا أشباه المجوس.

ومن هذا شرك الذى حاج إبراهيم فى ربه: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾[البقرة: 258] فهذا جعل نفسه نداً لله تعالى، يحيى ويميت بزعمه، كما يحيى الله ويميت، فألزمه إبراهيم أن طرد قولك أن تقدر على الإتيان بالشمس من غير الجهة التى يأتى بها الله منها، وليس هذا انتقالاً كما زعم بعض أهل الجدل، بل إلزاماً على طرد الدليل إن كان حقاً.

ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات، ويجعلها أرباباً مدبرة لأمر هذا العالم، كما هو مذهب مشركى الصابئة وغيرهم.

ومن هذا شرك عباد الشمس، وعباد النار، وغيرهم.

ومن هؤلاء من يزعم أن معبوده هو الإله على الحقيقة، ومنهم من يزعم أنه أكبر الآلهة، ومنهم من يزعم أنه إله من جملة الآلهة، وإنه إذا خصه بعبادته والتبتل إليه والانقطاع إليه أقبل عليه واعتنى به، ومنهم من يزعم أن معبوده الأدنى يقربه إلى المعبود الذى هو فوقه، والفوقانى يقربه إلى من هو فوقه، حتى تقربه تلك الآلهة إلى الله سبحانه، فتارة تكثر الآلهة والوسائط وتارة تقل.

فصل

الشرك فى العبادة

وأما الشرك فى العبادة: فهو أسهل من هذا الشرك، وأخف أمراً فإنه يصدر ممن يعتقد أنه لا إله إلا الله، وأنه لا يضر، ولا ينفع، ولا يعطى، ولا يمنع إلا الله، وأنه لا إله غيره، ولا رب سواه، ولكن لا يخص الله فى معاملته، وعبوديته، بل يعمل لحظ نفسه تارة، ولطلب الدنيا تارة، ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارة، فلله من عمله وسعيه نصيب، ولنفسه وحظه وهواه نصيب، وللشيطان نصيب، وللخلق نصيب، وهذا حال أكثر الناس، وهو الشرك الذى قال فيه النبى ﷺ فيما رواه ابن حبان فى صحيحه: «**الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النملة،** قالوا: كيف ننجوا منه يا رسول الله؟ قال: **قل اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، واستغفرك لما لا أعلم**».

فالرياء كله شرك، قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:110].

أى: كما أنه إله واحد، ولا إله سواه، فكذلك ينبغى أن تكون العبادة له وحده، فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية، فالعمل الصالح هو الخالى من الرياء المقيد بالسنة.

وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اللهم اجعل عملى كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً».

وهذا الشرك فى العبادة يبطل ثواب العمل، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجباً، فإنه ينزله منزلة من لم يعمل، فيعاقب على ترك الأمر، فإن الله سبحانه إنما أمر بعبادته عبادة خالصة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة:5].

فمن لم يخلص لله فى عبادته لم يفعل ما أمر به، بل الذى أتى به شئ غير الذى أمر به، فلا يصح، ولا يقبل منه، ويقول الله: **«أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك معى فيه غيرى، فهو للذى أشرك به، وأنا منه برئ»**[1].

أقسام الشرك

وهذا الشرك ينقسم إلى: مغفور وغير مغفور، وأكبر وأصغر، والنوع الأول ينقسم إلى: كبير وأكبر، وليس شئ منه مغفوراً، فمنه الشرك بالله فى المحبة والتعظيم، أن يحب مخلوقاً كما يحب الله، فهذا من الشرك الذى لا يغفره الله، وهو الشرك الذى قال سبحانه فيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: 165].

وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعهم الجحيم: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:97،98].

---

(1) صحيح: رواه مسلم (2985) وابن ماجه (4202) وأحمد (7939،9336).

ومعلوم أنهم ما سوّوهم به سبحانه في الخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء، والملك، والقدرة، وإنما سووهم به في الحب، والتأله، والخضوع، والتذلل لهم، وهذا غاية الجهل والظلم. فكيف يُسوى التراب برب الأرباب؟ وكيف يسوى العبيد بمالك الرقاب؟! وكيف يسوى الفقير بالذات، الضعيف بالذات، العاجز بالذات، المحتاج بالذات، الذى ليس له من ذاته إلا العدم، بالغنى بالذات، القادر بالذات، الذى غناه، وقدرته، وملكه، وجوده، وإحسانه، وعلمه، ورحمته، وكماله المطلق التام من لوازم ذاته؟!

فأى ظلم أقبح من هذا؟ وأى حكم أشد جوراً منه؟ حيث عدل من لا عدل له بخلقه، كما قال تعالى: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**﴾ [الأنعام:1] فعدل المشرك من خلق السموات أرض وجعل الظلمات والنور، بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة فى وات ولا فى الأرض، فيا له من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحه!!

فصل

الشرك فى الأفعال والأقوال والإرادات والنيات

ويتبع هذا الشرك الشرك به سبحانه فى الأفعال، والأقوال، والإرادات، والنيات.

فالشرك فى الأفعال كالسجود لغيره، والطواف بغير بيته، وحلق الرأس عبودية وخضوعاً لغيره، وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود الذى هو يمينه فى الأرض، وتقبيل القبور واستلامها، والسجود لها، ولقد لعن النبى ﷺ من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى فيها، فكيف بمن اتخذ القبور أوثاناً يعبدها من دون الله؟!.

ففى الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا من قبور أنبيائهم مساجد**»[1].

وفى الصحيح أيضاً عنه: «**إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد**»[2].

---

(1) صحيح : رواه البخاري (1265) في الجنائز، ومسلم (531) في المساجد، وأحمد في المسند (1887) والدارمي (1403) في الصلاة.

(2) صحيح : روى البخاري شطره الأول (7067) فى الفتن، وأحمد في المسند (3844) واللفظ له. وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

وفى الصحيح أيضاً عنه: «**إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإنى أنهاكم عن ذلك**»(١).

وفى «مسند الإمام أحمد» ﷺ، و«صحيح ابن حبان» عنه ﷺ قال: «**لعن رسول الله زوارت القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج**»(٢).

وقال: «**اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»(٣).

وقال: «**إن من كان قبلكم كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة**»(٤).

فهذا حال من سجد لله فى مسجد على قبر، فكيف حال من سجد للقبر نفسه؟.

وقد قال النبى ﷺ: «**اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد**»(٥)، وقد حمى ﷺ جانب التوحيد أعظم حماية، حتى نهى عن صلاة التطوع لله سبحانه عند طلوع الشمس وعند غروبها، لئلا يكون ذريعة إلى التشبه بعباد الشمس الذين يسجدون لها فى هاتين الحالتين، وسد الذريعة بأن منع من الصلاة بعد العصر والصبح، لاتصال هذين الوقتين بالوقتين اللذين سجد المشركون فيهما للشمس.

وأما السجود لغير الله فقال: «**لا ينبغى لأحد أن يسجد لأحد إلا لله**».

و«**لا ينبغى**» في كلام الله ورسوله ﷺ الذى هو فى غاية الامتناع شرعاً، كقوله تعالى: ﴿**وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا**﴾ [مريم:92] وقوله: ﴿**وَمَا يَنْبَغِي لَهُ**﴾ [يس:69] وقوله: ﴿**وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ**﴾ [الشعراء:210-211] وقوله عن الملائكة: ﴿**مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ**﴾ [الفرقان:18].

(1) صحيح : رواه مسلم في المساجد (532).

(2) ضعيف بهذا التمام : أخرجه أصحاب السنن الأربعة وأحمد (3236) وابن حبان (788) موارد، وضعفه الألباني في ضعيف موارد الظمآن، وانظر الضعيفة (225).

(3) رواه ابن أبي شيبة (2/ 375) ومالك في النداء للصلاة (416).

(4) صحيح: رواه البخاري (427) ومسلم (528) والنسائي (703) في المساجد ورواه أحمد فى المسند (22731).

(5) صحيح: مالك في الموطأ (41).

فصل

الشرك فى اللفظ

ومن الشرك به سبحانه الشرك به فى اللفظ، كالحلف بغيره، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود عنه ﷺ أنه قال: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**» صححه الحاكم وابن حبان(١).

ومن ذلك قول القائل للمخلوق: ماشاء الله وشئت، كما ثبت عن النبى ﷺ أنه قال له رجل: ما شاء الله وشئت، فقال: «**أجعلتنى لله نداً؟ قل: ما شاء الله وحده**»(٢).

هذا مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة كقوله: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير:28] فكيف بمن يقول: أنا متوكل على الله وعليك، وأنا فى حسب الله وحسبك، وما لى إلا الله وأنت، وهذا من الله ومنك، وهذا من بركات الله وبركاتك، والله لى فى السماء، وأنت لى فى الأرض، أو يقول: والله وحياة فلان، أو يقول: نذراً لله ولفلان، أو أنا تائب لله ولفلان، أو أرجو الله وفلاناً، ونحو ذلك؟

فوازن بين هذه الألفاظ وبين قول القائل: ما شاء الله وشئت، ثم انظر أيهما أفحش! يتبين لك أن قائلها أولى بجواب النبى ﷺ لقائل تلك الكلمة، وأنه إذا كان قد جعل لله نداً بها، فهذا قد جعل من لا يدانى رسول الله ﷺ فى شئ من الأشياء -بل لعله أن يكون له من أعدائه- نداً لرب العالمين، فالسجود، والعبادة، والتوكل، والإنابة، والتقوى، والخشية، والحسب، والتوبة، والنذر، والحلف والتسبيح، والتهليل، والتحميد، والاستغفار، وحلق الرأس خضوعاً وتعبداً، والطواف بالبيت، والدعاء، كل ذلك محض حق لله الذى لا يصلح ولا ينبغى لسواه من ملك مقرب ولا نبى مرسل.

وفى «مسند الإمام أحمد»: أن رجلاً أتى به إلى النبى ﷺ قد أذنب ذنباً، فلما وقف بين يديه قال: اللهم أنى أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد، فقال: «**عرف الحق لأهله**».(٣)

---

(1) صحيح : أخرجه الحاكم (1/ 18) وصححه، وابن حبان (1177) موارد ، ورواه الترمذى (1535) وصححه الألبانى، وانظر صحيح موارد الظمآن والصحيحة (2042).

(2) حسن: رواه أحمد في المسند (1839) ، وقال أحمد شاكر: إسناده حسن.

(3) إسناده حسن: أخرجه أحمد فى «المسند» (15524) عن الحسن عن الأسود بن سريع.

فصل

الشـرك فى الإرادات والنيـات

وأما الشرك فى الإرادات والنيات فذلك البحر الذى لا ساحل له، وقل من ينجو منه، فمن أراد بعمله غير وجه الله أو نوى شيئاً غير التقرب إليه، وطلب الجزاء منه، فقد أشرك فى نيته وإرادته.

والإخلاص: أن يخلص لله فى أقواله، وأفعاله، وإرادته، ونيته، وهذه هى الحنيفية ملة إبراهيم التى أمر الله بها عباده كلهم، ولا يقبل من أحد غيرها، وهى حقيقة الإسلام ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[آل عمران: 85] وهى ملة إبراهيم التى من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء.

فصل

حقيقة الشرك

إذا عرفت هذه المقدمة انفتح لك الجواب عن السؤال المذكور، فنقول، ومن الله وحده نستمد الصواب:

حقيقة الشرك: هو التشبه بالخالق، والتشبيه للمخلوق به، هذا هو التشبيه فى الحقيقة، لا إثبات صفات الكمال التى وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسول الله ﷺ، فعكس من نكس الله قلبه، وأعمى عين بصيرته، وأركسه بكسبه، وجعل التوحيد تشبيهاً، والتشبيه تعظيماً وطاعة، فالمشرك مُشبه للمخلوق بالخالق فى خصائص الإلهية.

فإن من خصائص الإلهية التفرد بملك الضر، والنفع، والعطاء، والمنع، وذلك يوجب تعليق الدعاء، والخوف، والرجاء، والتوكل به وحده، فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق، وجعل ما لا يملك لنفسه ضراً، ولا نفعاً، ولا موتاً، ولا حياة، ولا نشوراً فضلاً عن غيره شبيهاً لمن له الأمر كله، فأزمة الأمور كلها بيديه، ومرجعها إليه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع، بل إذا فتح لعبده باب رحمته لم يمسكها أحد، وإن أمسكها عنه لم يرسلها إليه أحد.

فمن أقبح التشبيه تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات، بالقادر الغنى بالذات.

ومن خصائص الإلهية: الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذى لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم، والإجلال، والخشية، والدعاء، والرجاء، والإنابة، والتوبة، والتوكل، والاستعانة، وغاية الذل مع غاية الحب، كل ذلك عقلاً وشرعاً وفطرةً أن يكون له وحده، ويمنع عقلاً وشرعاً وفطرةً أن يكون لغيره، فمن جعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثيل له ولا ند له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله، ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر سبحانه عباده أنه لا يغفره، مع أنه كتب على نفسه الرحمة.

ومن خصائص الإلهية: العبودية التى قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما: غاية الحب، مع غاية الذل، هذا تمام العبودية، وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم فى هذين الأصلين.

فمن أعطى حبه، وذله، وخضوعه لغير الله فقد شبه به فى خالص حقه، وهذا من المحال أن تجئ به شريعة من الشرائع، وقبحه مستقر فى كل فطرة وعقل، ولكن غيرت الشياطين فطر الخلق وعقولهم وأفسدتها عليهم واجتالتهم عنها، ومضى على الفطرة الأولى من سبقت له من الله. الحسنى، فأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرهم وعقولهم، فازدادوا بذلك نوراً على نور: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور:35].

إذا عرف هذا، فمن خصائص الإلهية: السجود، فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به، ومنها: التوكل، فمن توكل على غيره فقد شبهه به.

ومنها: التوبة، فمن تاب لغيره فقد شبهه به.

ومنها: الحلف باسمه تعظيماً وإجلالاً له، فمن حلف بغيره فقد شبهه به، هذا فى جانب التشبيه.

وأما فى جانب التشبه به: فمن تعاظم، وتكبر، ودعا الناس إلى إطرائه فى المدح، والتعظيم، والخضوع، والرجاء وتعليق القلب به خوفاً، ورجاء، والتجاء، واستعانة، فقد تشبه بالله ونازعه فى ربوبيته وإلهيته، وهو حقيق بأن يهينه الله غاية الهوان، ويذله غاية الذل، ويجعله تحت أقدام خلقه.

وفى الصحيح عنه ﷺ قال: «**يقول الله عزوجل: العظمة إزارى والكبرياء ردائى، فمن نازعنى واحداً منهما عذبته**»[1] وإذا كان المصور الذى يصنع الصورة بيده، من أشد الناس عذاباً يوم القيامة، لتشبهه بالله فى مجرد الصنعة، فما الظن بالتشبه بالله فى الربوبية والإلهية؟!

كما قال النبى ﷺ: «**أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم**»[2].

وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**قال الله عزوجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقاً كخلقى، فليخلقوا ذَرَّة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة**»[3] فنبه بالذرة والشعيرة على ما هو أعظم منها وأكبر.

والمقصود: أن هذا حال من تشبه به فى صنعته، فكيف حال من تشبه به فى خواص ربوبيته وإلهيته؟ وكذلك من تشبه بالاسم الذى لا ينبغى إلا له وحده، كملك الأملاك، وحاكم الحكام، ونحوه.

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: «**إن أخنع الأسماء عند الله رجل يسمى بشاهنشاه -أى ملك الملوك- لا ملك إلا الله**»[4] وفى لفظ: «**أغيظ رجل على الله، رجل يسمى بملك الأملاك**»[5].

فهذا مقت الله وغضبه على من تشبه به فى الاسم الذى لا ينبغى إلا له، فهو سبحانه ملك الملوك وحده، وهو حاكم الحكام وحده، فهو الذى يحكم على الحكام كلهم، ويقضى عليهم، لا غيره.

---

(1) صحيح: رواه مسلم (2620) في البر والصلة، وأبو داود (4090) في اللباس، وابن ماجه (4174) في الزهد، وأحمد في المسند (7335،8677).
(2) صحيح: رواه البخاري (2105) بلفظ «أحيوا ما خلقتم» ومسلم (2108) في اللباس، وأحمد في المسند (3548) والنسائي (5364).
(3) صحيح: رواه البخاري (7559) ومسلم (2111) في اللباس، وأحمد في المسند (7126) .
(4) صحيح: رواه البخاري (6205،6206) في الأدب، ومسلم (2143) في الآداب والترمذي في الآداب (2837) وأحمد في المسند (7285).
(5) صحيح: رواه مسلم (2143) في الآداب، أحمد في المسند (27393).

فصل

سوء الظن بالله

إذا تبين هذا، فهاهنا أصل عظيم يكشف سر المسألة، وهو أن أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به، فإن المسيء به الظن قد ظن به خلاف كماله المقدس، وظن به ما يناقض أسماءه، وصفاته، ولهذا توعد الله سبحانه الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم، كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح:6]، وقال تعالى لمن أنكر صفة من صفاته: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت:23].

وقال تعالى عن خليله إبراهيم أنه قال لقومه: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ (85) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات:85-87]، أي: فما ظنكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟ وما ظننتم به حتى عبدتم معه غيره؟ وما ظننتم بأسمائه، وصفاته، وربوبيته من النقص حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيء عليم، وهو على كل شيء قدير، وأنه غني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، وأنه قائم بالقسط على خلقه وأنه المنفرد بتدبير خلقه لا يشركه فيه غيره، والعالم بتفاصيل الأمور، فلا يخفى عليه خافية من خلقه، والكافي لهم وحده، فلا يحتاج إلى معين، والرحمن بذاته، فلا يحتاج في رحمته إلى من يستعطفه، وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء، فإنهم محتاجون إلى من يعرفهم أحوال الرعية وحوائجهم، ويعينهم على قضاء حوائجهم، وإلى من يسترحمهم ويستعطفهم بالشفاعة، فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور علمهم.

فأما القادر على كل شيء، الغني بذاته عن كل شيء، العالم بكل شيء، الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه ينقص بحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده، وظن به ظن السوء، وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده، ويمتنع في العقول والفطر جوازه، وقبحه مستقر في العقول السليمة فوق كل قبيح.

يوضح هذا: أن العابد معظم لمعبوده، مُتأله له، خاضع ذليل له، والرب تعالى وحده هو الذى يستحق كمال التعظيم، والإجلال، والتأله، والخضوع، والذل، وهذا خالص حقه، فمن أقبح الظلم أن يعطى حقه لغيره، أو يشرك بينه وبينه فيه، ولا سيما إذا كان الذى جعل شريكه فى حقه هو عبده ومملوكه كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

[الروم:28].

أى إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكه فى رزقه، فكيف تجعلون لى من عبيدى شركاء فيما أنا منفرد به وهو الإلهية، التى لا تنبغى لغيرى، ولا تصح لسواى؟!

فمن زعم ذلك فما قدرنى حق قدرى، ولا عظمنى حق تعظيمى، ولا أفردني بما أنا منفرد به وحدى دون خلقى، فما قدر الله. حق قدره من عبد معه غيره، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج:73-74].

فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره ممن لا يقدر على خلق أضعف حيوان وأصغره، وإن سلبه الذباب شيئاً مما عليه لم يقدر على استنقاذه منه، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الزمر:67]، فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه فى عبادته من ليس له شئ من ذلك البتة، بل هو أعجز شئ وأضعفه، فما قدر القوى العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل.

وكذلك ما قدره حق قدره من قال: إنه لم يرسل إلى خلقه رسولاً، ولا أنزل كتاباً، بل نسبه إلى ما لا يليق به ولا يحسن منه من إهمال خلقه وتضييعهم وتركهم سدي، وخلقهم باطلاً وعبثاً، ولا قدره حق قدره من نفى حقائق أسمائه الحسنى وصفاته العلى، فنفى سمعه، وبصره، وإرادته واختياره وعلوه فوق خلقه، وكلامه وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريد، أو نفى عموم قدرته وتعلقها

بأفعال عباده من طاعتهم ومعاصيهم، فأخرجها عن قدرته، ومشيئته، وخلقه، وجعلهم يخلقون لأنفسهم ما يشاءون بدون مشيئة الرب، فيكون فى ملكه ما لا يشاء، ويشاء ما لا يكون، تعالى الله عن قول أشباه المجوس علواً كبيراً.

وكذلك ما قدره حق قدره من قال: إنه يعاقب عبده على ما لا يفعله العبد، ولا له عليه قدرة ولا تأثير له فيه البتة، بل هو نفس فعل الرب جل جلاله، فيعاقب عبده على فعله هو سبحانه الذى جبر العبد عليه، وجبره على الفعل أعظم من إكراه المخلوق للمخلوق، وإذا كان من المستقر فى الفطر والعقول أن السيد لو أكره عبده على فعل أو ألجأه إليه ثم عاقبه عليه لكان قبيحاً، فأعدل العادلين، وأحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، كيف يجبر العبد على فعل لا يكون للعبد فيه صنع ولا تأثير، ولا هو واقع بإرادته، بل ولا هو فعله البتة، ثم يعاقب عليه عقوبة الأبد؟! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وقول هؤلاء شر من أقوال المجوس، والطائفتان ما قدروا الله حق قدره.

وكذلك ما قدر الله حق قدره من لم يصنه عن نتن ولا حش، ولا مكان يرغب عن ذكره، بل جعله فى كل مكان، وصانه عن عرشه أن يكون مستوياً عليه: ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾ [فاطر:10].

وتعرج الملائكة والروح إليه، وتنزل من عنده ﴿**يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ**﴾ [السجدة:5].

فصانه عن استوائه على سرير الملك، ثم جعله فى كل مكان يأنف الإنسان بل غيره من الحيوان أن يكون فيه.

وما قدره حق قدره من نفى حقيقة محبته، ورحمته، ورأفته، ورضاه، وغضبه، ومقته، ولا من نفى حقيقة حكمته التى هى الغايات المحمودة المقصودة بفعله، ولا من نفى حقيقة فعله، ولم يجعل له فعلاً اختيارياً يقوم به، بل أفعاله مفعولات منفصلة عنه، فنفى حقيقة مجيئه وإتيانه، واستوائه على عرشه، وتكليمه موسى من جانب الطور، ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده بنفسه، إلى غير ذلك من أفعاله، وأوصاف كماله، التى نفوها وزعموا أنهم بنفيها قد قدروه حق قدره.

وكذلك لم يقدره حق قدره من جعل له صاحبة وولداً، أو جعله سبحانه يحل فى مخلوقاته، أو جعله عين هذا الوجود.

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال: إنه رفع أعداء رسول الله ﷺ وأهل بيته وأعلى ذكرهم، وجعل فيهم الملك، والخلافة، والعز، ووضع أولياء رسوله، وأهل بيته، وأهانهم، وأذلهم، وضرب عليهم الذلة أينما ثقفوا، وهذا يتضمن غاية القدح فى جناب الرب، تعالى عن قول الرافضة علواً كبيراً.

وهذا القول مشتق من قول اليهود والنصارى في رب العالمين: إنه أرسل ملكاً ظالماً، فادعى النبوة لنفسه، وكذب على الله، ومكث زمناً طويلاً يكذب عليه كل وقت، ويقول: قال الله كذا وأمر بكذا ونهى عن كذا وينسخ شرائع أنبيائه ورسله، ويستبيح دماء أتباعهم، وأموالهم، وحريمهم، ويقول: الله أباح لى ذلك، والرب تبارك وتعالى يؤيده، ويظهره، ويعليه، ويعزه، ويجيب دعواته، ويمكنه ممن خالفه، ويقيم الأدلة على صدقه، ولا يعاديه أحد إلا ظفر به، فيصدقه بقوله وفعله وتقريره، ويحدث أدلة تصديقه شيئاً بعد شيء.

ومعلوم أن هذا يتضمن أعظم القدح والطعن فى الرب سبحانه وتعالى وعلمه، وحكمته، ورحمته، وربوبيته، تعالى عن قول الجاحدين علواً كبيراً.

فوازن بين قول هؤلاء، وقول إخوانهم من الرافضة تجد القولين كما قال الشاعر:

رضيعـــى لبان ثدى أم تقاسمـــا بأسحـــم داج عـوض لا نتفـــرق

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال: إنه جوز أن يعذب أولياءه ومن لم يعصه طرفة عين ويدخلهم دار الجحيم، وينعم أعداءه ومن لم يؤمن به طرفة عين، ويدخلهم دار النعيم، وأن كلا الأمرين بالنسبة إليه سواء، وإنما الخبر المحض جاء عنه بخلاف ذلك، فمعناه للخبر لا لمخالفة حكمته وعدله.

وقد أنكر سبحانه في كتابه على من جوز عليه ذلك غاية الإنكار، وجعل الحكم به من أسوأ الأحكام.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[ص:27،28].

وقال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾[الجاثية:21،22].

وقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[القلم:35،36].

وكذلك لم يقدره حق قدره من يزعم أنه لا يحيى الموتى، ولا يبعث من فى القبور، ولا يجمع خلقه ليوم يجازى فيه المحسن بإحسانه، والمسئ بإساءته ويأخذ للمظلوم فيه حقه من ظالمه، ويكرم المتحملين للمشاق فى هذه الدار من أجله، وفى مرضاته بأفضل كرامته، ويبين لخلقه الذين يختلفون فيه، ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين.

وكذلك لم يقدره حق قدره من هان عليه أمره فعصاه، ونهيُه فارتكبه، وحقُّهُ فضيعه، وذكره فأهمله، وغفل قلبه عنه، وكان هواه آثر عنده من طلب رضاه، وطاعة المخلوق أهم عنده من طاعته، فلله الفضلة فى قلبه وعمله، وسواه المقدَّم فى ذلك لأنه المهم عنده، يستخف بنظر الله إليه، وإطلاعه عليه وهو فى قبضته، وناصيته بيده، ويعظم نظر المخلوق عليه وإطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه، يستحى من الناس ولا يستحيي من الله، ويخشى الناس، ولا يخشى الله، ويعامل الخلق بأفضل ما يقدر عليه وإن عامل الله عامله بأهون ما عنده وأحقره، وإن قام فى خدمة من يحبه من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة، وقد فرَّغ له قلبه وجوارحه، وقدَّمه على كثير من مصالحه، حتى إذا قام فى حق ربه إن ساعده القدر قام قياماً لا يرضاه مخلوق من مخلوق مثله، وبذل له من ماله ما يستحيى أن يواجه به مخلوقاً مثله، فهل قدر الله حق قدره من هذا وصفه؟.

وهل قدره حق قدره من شارك بينه وبين عدوه فى محض حقه من الإجلال، والتعظيم، والطاعة، والذل، والخضوع، والخوف، والرجاء؟ فلو جعل له من أقرب

الخلق إليه شريكاً في ذلك لكان ذلك جراءة، وتوثباً على محض حقه، واستهانة به، وتشريكاً بينه وبين غيره، فيما لا ينبغي ولا يصلح إلا له سبحانه، فكيف وإنما شرك بينه وبين أبغض الخلق إليه، وأهونهم عليه، وأمقتهم عنده وهو عدوه على الحقيقة؟ فإنه ما عبد من دون الله إلا الشيطان، كما قال تعالى: **﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾** [يس: 60-61].

ولما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقعت عبادتهم في نفس الأمر للشياطين، وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة.

كما قال تعالى: **﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾**[سبأ: 40-41].

فالشيطان يدعو المشرك إلى عبادته ويوهمه أنه ملك، وكذلك عباد الشمس والقمر، والكواكب، يزعمون أنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب وهي التي تخاطبهم، وتقضي لهم الحوائج، ولهذا إذا طلعت الشمس قارنها الشيطان فيسجد لها الكافر، فيقع سجودهم له، وكذلك عند غروبها، وكذلك من عبد المسيح وأمه لم يعبدهما وإنما عبد الشيطان.

فإنه يزعم أنه يعبد من أمره بعبادته وعبادة أمه، ورضيها لهم، وأمرهم بها، وهذا هو الشيطان الرجيم، لا عبد الله ورسوله، فنزل هذا كله على قوله تعالى: **﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾**[يس: 60، 61].

فما عبد أحد من بني آدم غير الله كائناً من كان إلا وقعت عبادته للشيطان. فيستمتع العابد بالمعبود في حصول غرضه، ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له وإشراكه مع الله الذي هو غاية رضا الشيطان، ولهذا قال تعالى: **﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ﴾**[الأنعام: 128]، أي: من إغوائهم وإضلالهم، **﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾**[الأنعام: 128]

فهذه إشارة لطيفة إلى السر الذى لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله، وأنه لا يغفر بغير التوبة منه، وأنه يوجب الخلود فى العذاب، وأنه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهى عنه، بل يستحيل على الله سبحانه أن يشرع لعباده عبادة إله غيره، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله، ونعوت جلاله، وكيف يظن بالمنفرد -بالربوبية، والإلهية، والعظمة، والجلال، أن يأذن فى مشاركته فى ذلك، أو يرضى به؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

فصل

الشرك والكبر

فلما كان الشرك أكبر شئ منافاة للأمر الذى خلق له الله الخلق، وأمر لأجله بالأمر، كان أكبر الكبائر عند الله.

وكذلك الكبر وتوابعه كما تقدم، فإن الله سبحانه خلق الخلق، وأنزل الكتاب، لتكون الطاعة له وحده، والشرك والكبر ينافيان ذلك.

وكذلك حرَّم الله الجنة على أهل الشرك والكبر، فلا يدخلها من فى قلبه مثقال ذرة من كبر.

فصل

القول على الله بغير علم

ويلى ذلك فى كبر المفسدة: القول على الله بلا علم فى أسمائه، وصفاته، وأفعاله، ووصفه بضدّ ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله، فهو أشد شئ مناقضة ومنافاة لحكمة من له الخلق والأمر، وقدح فى نفس الربوبية وخصائص الرب، فإن صدر ذلك عن علم فهو عناد أقبح من الشرك وأعظم إثماً عند الله.

فإن المشرك المقرّ بصفات الرب خير من المعطل الجاحد لصفات كماله، كما أن من أقر لملك بالملك، ولم يجحده ملكه ولا الصفات التى استحق بها الملك، لكن جعل معه شريكاً فى بعض الأمور يقربه إليه -خير ممن جحد صفات الملك، وما يكون به ملكاً، هذا أمر مستقر فى سائر الفطَر والعقول.

فأين القدح فى صفات الكمال والجحد له من عبادة واسطة بين المعبود الحق، وبين العابد، يتقرب إليه بعبادة تلك الواسطة إعظاماً له وإجلالاً؟

فداء التعطيل هذا الداء العضال الذى لا دواء له، ولهذا حكى الله عن إمام المعطلة فرعون أنه أنكر على موسى ما أخبره به من أن ربه فوق السموات، فقال: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾[غافر: 36،37].

واحتج الشيخ أبو الحسن الأشعرى فى كتبه على المعطلة بهذه الآية.

وقد ذكر لفظه فى غير هذا الموضع، والقول على الله بلا علم والشرك متلازمان، ولما كانت البدع المضلة جهلاً بصفات الله وتكذيباً بما أخبر به عن نفسه وأخبر به عن رسوله عناداً وجهلاً، كانت من أكبر الكبائر، وإن قصرت عن الكفر. ولما كانت أحب إلى إبليس من كبائر الذنوب،كما قال بعض السلف: «البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، لأن المعصية يُتاب منها والبدعة لا يُتاب منها». وقال إبليس: أهْلَكْتُ بنى آدم بالذنوب، وأهلكونى بالاستغفار وبلا إله إلا الله، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء، فهم يذنبون ولا يتوبون، لأنهم يحسبون أنهم يُحسنون صُنعاً.

ومعلوم أن المذنب إنما ضرره على نفسه، وأما المبتدع فضرره على النوع، وفتنة المبتدع فى أصل الدين، وفتنة المذنب في الشهوة، والمبتدع قد قعد للناس على صراط الله المستقيم يصدهم عنه، والمذنب ليس كذلك، والمبتدع قادح فى أوصاف الرب وكماله، والمذنب ليس كذلك، والمبتدع مناقض لما جاء به الرسول، والعاصى ليس كذلك، والمبتدع يقطع على الناس طريق الآخرة، والعاصى بطئ السير بسبب ذنوبه.

فصل

الظلم والعدوان

ثم لما كان الظلم والعدوان منافيين للعدل الذى به قامت السموات والأرض، وأرسل الله -سبحانه- رسله عليهم الصلاة والسلام، وأنزل كتبه ليقوم الناس به- كان من أكبر الكبائر عند الله، وكانت درجته فى العظمة بحسب مفسدته فى نفسه،

وكان قتل الإنسان ولده الطفل الصغير الذى لا ذنب له- وقد جبل الله سبحانه القلوب على محبته ورحمته وعطفها عليه، وخص الوالدين من ذلك بمزية ظاهرة، فقتله خشية أن يشاركه فى مطعمه ومشربه وماله -من أقبح الظلم وأشده، وكذلك قتله أبويه اللذين كانا سبب وجوده، وكذلك قتله ذا رحمه.

وتتفاوت درجات القتل بحسب قبحه واستحقاق من قتله للسعى فى إبقائه ونصيحته.

ولهذا كان أشد الناس عذاباً يوم القيامة من قتل نبياً أو قتله نبى، ويليه من قتل إماماً أو عالماً يأمر الناس بالقسط، ويدعوهم إلى الله، وينصحهم فى دينهم، وقد جعل الله سبحانه جزاء قتل النفس المؤمنة عمداً الخلود فى النار، وغضب الجبار، ولعنته، وإعداد العذاب العظيم له، هذا موجب قتل المؤمن عمداً ما لم يمنع منه مانع.

ولا خلاف أن الإسلام الواقع بعد القتل طوعاً واختياراً مانع من نفوذ ذلك الجزاء، وهل تمنع توبة المسلم منه بعد وقوعه؟ فيه قولان للسلف والخلف، وهما روايتان عن الإمام أحمد.

توبة القاتل

والذين قالوا لا تمنع التوبة من نفوذه، رأوا أنه حق لآدمى لم يستوفه فى دار الدنيا، وخرج منها بظلامته، فلا بد أن يستوفى له فى دار العدل.

قالوا: وما استوفاه الوارث فإنما استوفى محض حقه الذى خيَّره الله بين استيفائه والعفو عنه، وما ينفع المقتول من استيفاء وارثه؟! وأى استدراك لظلامته حصل له باستيفاء وارثه؟!

وهذا أصح القولين فى المسألة: أن حق المقتول لا يسقط باستيفاء الوارث، وهما وجهان لأصحاب أحمد والشافعى وغيرهم.

ورأت طائفة أنه يسقط بالتوبة واستيفاء الوارث، فإن التوبة تهدم ما قبلها، والذنب الذى قد جناه قد أقيم عليه حده.

قالوا: وإذا كانت التوبة تمحو أثر الكفر والسحر، وهما أعظم إثماً من القتل، فكيف تقصر عن محو أثر القتل؟ وقد قبل الله توبة الكفار الذين قتلوا أولياءه، وجعلهم من خيار عباده، ودعا الذين أحرقوا أولياءه وفتنوهم عن دينهم إلى

التوبة، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: 53].

فهذه في حق التائب، وهي تتناول الكفر فما دونه.

قالوا: وكيف يتوب العبد من الذنب ويعاقب عليه بعد التوبة؟ هذا معلوم انتفاؤه في شرع الله وجزائه.

قالوا: وتوبة هذا المذنب تسليم نفسه، ولا يمكن تسليمها إلى المقتول، فأقام الشارع وليَّه مقامه، وجعل تسليم النفس إليه كتسليمها إلى المقتول، بمنزلة تسليم المال الذي عليه لوارثه، فإنه يقوم مقام تسليمه للموروث.

والتحقيق في المسألة: أن القتل تتعلق به ثلاثة حقوق: حق لله، وحق للمقتول، وحق للولي، فإذا سلم القاتل نفسه طوعاً واختياراً إلى الولي ندماً على ما فعل، وخوفاً من الله، وتوبة نصوحاً، سقط حق الله بالتوبة وحق الولي بالاستيفاء، أو الصلح أو العفو، وبقي حق المقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن، ويصلح بينه وبينه، فلا يبطل حق هذا، ولا تبطل توبة هذا.

التوبة من الحقوق المالية

وأما مسألة المال فقد اختلف فيها: فقالت طائفة: إذا أدى ما عليه من المال إلى الوارث برئ من عهدته في الآخرة، كما برئ منها في الدنيا.

وقالت طائفة: بل المطالبة لمن ظلمه بأخذه باقية عليه يوم القيامة، وهو لم يستدرك ظلامته بأخذ وارثه له، فإنه منعه من انتفاعه به طول حياته، ومات ولم ينتفع به، وهذا ظلم لم يستدركه هو، وإنما انتفع غيره باستدراكه، وبنوا على هذا أنه لو انتقل المال من واحد إلى واحد وتعدد الورثة، كانت المطالبة به للجميع، لأنه حق كان يجب عليه دفعه إلى كل واحد منهم عند كونه هو الوارث، وهذا قول طائفة من أصحاب مالك وأحمد.

وفصل شيخنا رحمه الله بين الطائفتين، فقال: إن تمكن الموروث من أخذ ماله والمطالبة به فلم يأخذه حتى مات، صارت المطالبة به للوارث في الآخرة، كما هي كذلك في الدنيا، وإن لم يتمكن من طلبه وأخذه، بل حال بينه وبينه ظلماً وعدواناً، فالطلب له في الآخرة.

وهذا التفصيل من أحسن ما يقال، فإن المال إذا استهلكه الظالم على الموروث وتعذر عليه أخذه منه صار بمنزلة عبده الذى قتله قاتل، وداره التى أحرقها غيره، وطعامه وشرابه الذى أكله وشربه غيره. ومثل هذا إنما تلف على الموروث لا على الوارث، فحق المطالبة لمن تلف على ملكه. يبقى أن يقال: فإذا كان المال عقاراً، أو أرضاً، أو أعياناً قائمة باقية بعد الموت، فهى ملك للوارث يجب على الغاصب دفعها إليه فى كل وقت، فإذا لم يدفع إليه أعيان ماله استحق المطالبة بها عند الله كما يستحق المطالبة بها فى الدنيا.

وهذا سؤال قوى لا مخلص منه إلا بأن يقال: المطالبة بهما جميعاً، كما لو غصب مالاً مشتركاً بين جماعة استحق كل منهم المطالبة لحقه منه، وكما لو استولى على وقف مرتب على بطون فأبطل حق البطون كلهم منه كانت المطالبة يوم القيامة لجميعهم، ولو يكن بعضهم أولى بها من بعض، والله أعلم.

فصل

جريمة القتل

ولما كانت مفسدة القتل هذه المفسدة قال الله تعالى:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:32].

وقد أشكل فهم هذا على كثير من الناس، وقالوا: معلوم أن إثم قاتل مائة أعظم عند الله من إثم قاتل نفس واحدة، وإنما أتوه من ظنهم أن التشبيه فى مقدار الإثم والعقوبة، واللفظ لم يدل على هذا، ولا يلزم من تشبيه الشئ بالشئ أخذه بجميع أحكامه.

وقد قال تعالى: **﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾** [النازعات:46].

وقال: **﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾** [الأحقاف:35].

وذلك لا يوجب أن لبثهم فى الدنيا إنما كان هذا المقدار.

وقال النبى ﷺ : «**من صلى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الفجر فى جماعة فكأنما قام الليل كله**»[1]، أى: مع العشاء، كما جاء فى لفظ آخر. وأصرح من هذا قوله: «**من صام رمضان وأتبعه بست من شوال فكأنما صام الدهر**»[2] وقوله ﷺ : «**من قرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن**»[3] ومعلوم أن ثواب فاعل هذه الأشياء لم يبلغ ثواب المشبه به، فيكون قدرهما سواء، ولو كان قدر الثواب سواء لم يكن لمصلى العشاء والفجر جماعة فى قيام الليل منفعة غير التعب والنصب، وما أوتى أحد -بعد الإيمان- أفضل من الفهم عن الله، ورسوله ﷺ ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فإن قيل: ففى أى شئ وقع التشبيه بين قاتل نفس واحدة، وقاتل الناس جميعاً؟.

قيل: فى وجوه متعددة:

أحدها: أن كلاً منهما عاص لله ورسوله ﷺ مخالف لأمره، متعرض لعقوبته، وكل منهما قد باء بغضب الله ولعنته، واستحقاق الخلود فى نار جهنم، وأعد له عذاباً عظيماً، وإنما التفاوت فى دركات العذاب، فليس إثم من قتل نبياً، أو إماماً عادلاً، أو عالماً يأمر الناس بالقسط كإثم من قتل من لا يؤبه له من آحاد الناس.

الثانى: أنهما سواء فى استحقاق إزهاق النفس.

الثالث: أنهما سواء فى الجراءة على سفك الدم الحرام، فإن من قتل نفساً بغير استحقاق، بل لمجرد الفساد فى الأرض، أو لأخذ ماله،فإنه يجترئ على قتل كل من ظفر به وأمكنه قتله، فهو معاد للنوع الإنسانى.

ومنها: أنه يسمى قاتلاً، أو فاسقاً، أو ظالماً، أو عاصياً بقتله واحداً، كما يسمى كذلك بقتله الناس جميعاً.

ومنها: أن الله سبحانه جعل: «**المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتواصلهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**» فإذا

(1) صحيح : رواه مسلم (656) في المساجد، وأحمد في المسند (410) والدارمي (1224).
(2) صحيح : رواه مسلم في الصيام (1164) وابن ماجه (1716) في الصيام والترمذي (759) في الصوم وأبو داود (2433) وأحمد في المسند (23022،23044) والدارمي (1754).
(3) صحيح : رواه الترمذي (2896) في فضائل القرآن، وأحمد في المسند (23042) والنسائي (996) في الافتتاح. وصححه الألباني في صحيح النسائي برقم (995).

أتلف القاتل من هذا الجسد عضواً فكأنما أتلف سائر الجسد، وآلم جميع أعضائه. فمن آذى مؤمناً واحداً فكأنما آذى جميع المؤمنين، وفى أذى جميع المؤمنين أذى جميع الناس، فإن الله يدفع عن الناس بالمؤمنين الذين بينهم، فإيذاء الخفير إيذاء المخفور، وقد قال ﷺ: «**لا تقتل نفس ظلماً بغير حق إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه أول من سن القتل**»(١) ولم يجئ هذا الوعيد فى أول زان ولا أول سارق ولا أول شارب مسكر، وإن كان أول المشركين قد يكون أولى بذلك من أول قاتل، لأنه أول من سن الشرك، ولهذا رأى النبى ﷺ عمرو بن لحى الخزاعى يعذب بأعظم العذاب في النار، لأنه أول من غير دين إبراهيم عليه السلام

وقال تعالى: ﴿**وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ**﴾[البقرة:41]

أى فيقتدى بكم من بعدكم، فيكون إثم كفره عليكم، وكذلك حكم من سن سنة سيئة فاتبع عليها.

وفى «جامع الترمذى» عن ابن عباس ﷺ عن النبى ﷺ قال: «**يجئ المقتول بالقاتل يوم القيامة، ناصيته ورأسه بيده، وأوداجه تشخب دماً، يقول: يارب، سل هذا فيم قتلني؟**» فذكروا لابن عباس التوبة، فتلا هذه الآية: ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا**﴾ [النساء:93].

ثم قال: ما نسخت هذه الآية ولا بدلت، وأنى له التوبة؟ قال الترمذى: هذا حديث حسن(٢).

وفيه أيضاً، عن نافع قال: «نظر عبد الله بن عمر يوماً إلى الكعبة، فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمنون عند الله أعظم حرمة منك». قال: هذا حديث حسن(٣)

وفي «صحيح البخاري» عن سمرة بن جندب قال: «أول ما ينتن من الإنسان بطنه، فمن استطاع منكم أن لا يأكل إلا طيباً فليفعل، ومن استطاع أن لا يحول بينه وبين الجنة ملء كف من دم أهراقه، فليفعل»(٤)

(1) صحيح: رواه البخاري (7321) في الأنبياء، ومسلم (1677) في القسامة وابن ماجه (2616) في الديات، وأحمد في المسند (3623،4081) والنسائي (2673) في العلم، والنسائي (3985) كتاب تحريم الدم.

(2) صحيح: رواه الترمذي (3029) في التفسير وصححه الألباني فيه، ورواه النسائي (4005) في تحريم الدم، وأحمد في المسند (1942،3435).

(3) حسن: رواه الترمذي (2032) في البر والصلة وحسنه الألباني.

(4) صحيح: رواه البخاري (7152) في الأحكام.

وفي صحيحه أيضاً عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : «**لا يزال المؤمن فى فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً**»[1].

وذكر البخارى أيضاً عن ابن عمر قال: «**من ورطات الأمور التى لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله**»[2].

وفى الصحيحين عن ابن مسعود: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»[3].

وفيهما أيضاً عنه ﷺ : «**لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**»[4].

وفى صحيح البخارى عنه ﷺ : «**من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً**»[5].

هذه عقوبة قاتل عدو الله إذا كان فى عهده وأمانه، فكيف عقوبة قاتل عبده المؤمن؟! وإذا كانت امرأة قد دخلت النار فى هرة حبستها حتى ماتت جوعاً وعطشاً، فرآها النبى ﷺ فى النار، والهرة تخدشها فى وجهها وصدرها[6]، فكيف عقوبة من حبس مؤمناً حتى مات بغير جرم؟! وفى بعض السنن عنه ﷺ : «**لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مؤمن بغير حق**»[7].

فصل

جريمة الزنى

ولما كانت مفسدة الزنى من أعظم المفاسد، وهى منافية لمصلحة نظام العالم فى حفظ الأنساب،وحماية الفروج، وصيانه الحرمات، وتوقى ما يوقع أعظم العداوة

---

(1) صحيح : رواه البخاري (6862) في الديات، وأحمد في المسند (5648).
(2) صحيح : رواه البخاري في الديات (6863).
(3) صحيح : رواه البخاري (48) في الإيمان، ومسلم (64) في الإيمان، وابن ماجه (96) وأحمد في المسند (4332، 4380) والنسائي (4105) تحريم الدم.
(4) صحيح : رواه البخاري (6868) في الفتن، ومسلم (66) في الإيمان وابن ماجه (3943) في الفتن، والترمذي (2193) في الفتن.
(5) صحيح : رواه البخاري (3166) في الديات، وابن ماجه (2686)، وأحمد في المسند (6706).
(6) صحيح : رواه البخاري (745) وابن ماجه (1265) وأحمد في المسند (26424).
(7) صحيح : رواه الترمذي (1395) في الديات والنسائي (3987) وابن ماجه (2619) في الديات وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (2138).

والبغضاء بين الناس، من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وابنته وأخته وأمه، وفى ذلك خراب العالم -كانت تلى مفسدة القتل فى الكبر، ولهذا قرنها الله سبحانه بها فى كتابه، ورسوله ﷺ فى سننه كما تقدم.

قال الإمام أحمد: لا أعلم بعد قتل النفس شيئاً أعظم من الزنى.

وقد أكد الله سبحانه حرمته، بقوله: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ﴾ [الفرقان: 68-70].

فقرنه بالشرك وقتل النفس، وجعل جزاء ذلك الخلود فى العذاب المضاعف، ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح، وقال تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: 32].

فأخبر عن فحشه فى نفسه، وهو القبيح الذى قد تناهى قبحه حتى استقر فحشه في العقول حتى عند كثير من الحيوان، كما ذكر البخارى فى صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودى قال: «رأيت في الجاهلية قرداً زنى بقردة فاجتمع القرود عليهما فرجموهما حتى ماتا»[1] ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلاً، فإنه سبيل هلكة وبوار وافتقار فى الدنيا، وعذاب وخزى ونكال فى الآخرة.

ولما كان نكاح أزواج الآباء من أقبحه خصه بمزيد ذم، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [النساء:22].

وعلق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه، فلا سبيل له إلى الفلاح بدونه، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون:1-7].

وهذا يتضمن ثلاثة أمور: أن من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين، وأنه من الملومين، ومن العادين، ففاته الفلاح، واستحق اسم العدوان، ووقع فى اللوم، فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك.

(1) صحيح: رواه البخاري (3849) في مناقب الأنصار.

ونظير هذا: أنه سبحانه ذم الإنسان، وأنه خلق هلوعاً لا يصبر على سراء ولا ضراء، بل إذا مسه الخير منع وبخل، وإذا مسه الشر جزع، إلا من استثناه بعد ذلك من الناجين من خلقه، فذكر منهم: **﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾** [المعارج: 29-31].

فأمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم، وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم، يطلع عليها: **﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾** [غافر: 19].

ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدماً على حفظ الفرج، فإن الحوادث مبدؤها من النظر، كما أن معظم النار من مستصغر الشرر، فتكون نظرة، ثم خطرة، ثم خطوة، ثم خطيئة.

ولهذا قيل: من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه. اللحظات، والخطرات، واللفظات، والخطوات.

فينبغي للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة، يلازم الرباط على ثغورها، فمنها يدخل عليه العدو، فيجوس خلال الديار، ويتبر ما علا تتبيراً.

فصل

مداخل المعاصي

وأكثر ما تدخل المعاصي على العبد من هذه الأبواب الأربعة، فنذكر في كل باب منها فصلاً يليق به.

النظرة

فأما اللحظات: فهي رائد الشهوة ورسولها، وحفظها أصل حفظ الفرج، فمن أطلق بصره أورد نفسه موارد الهلكات.

وقال النبي ﷺ: **«لا تتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى، وليست لك الأخرى»**[1].

---

(1) حسن: رواه أبو داود (2145) في النكاح، والترمذي (2777) في الأدب وأحمد في المسند (22482) (22512) وحسنه الألباني في صحيح أبي داود.

وفي المسند عنه ﷺ: «**النظرة سهم مسموم من سهام إبليس**[1] **فمن غض بصره عن محاسن امرأة لله، أورث الله قلبه حلاوة إلى يوم يلقاه**» هذا معنى الحديث.

وقال: «**غضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم**»[٢] وقال: «**إياكم والجلوس على الطرقات**»، قالوا: يا رسول الله، مجالسنا، ما لنا بد منها. قال: «**فإن كنتم لا بد فاعلين، فأعطوا الطريق حقه**» قالوا: وما حقه؟ قال: «**غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام**»[٣].

والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فإن النظرة تولد خطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة، فيقع الفعل ولابد، مالم يمنع منه مانع وفي هذا قيل: «الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده».

قال الشاعر:

كل الحـوادث مَبدَاهَـا من النـظر ... ومعظم النار من مستصغر الشَّـرر

كـم نظرة بلغت من قلب صاحبها ... كَمَبْلَغ السَّهـم بين القـوس والوَتَر

والعبـد مـا دام ذا طـرف يُقَلِّبُـهُ ... في أعين الغير موقـوف على الخطر

يَسُـرُّ مُقْلَتَـهَ ما ضَـرَّ مُهجتَـهُ ... لا مرحـباً بسـرور عَـادَ بالضَّرَر

ومن آفات النظر: أنه يورث الحسرات، والزفرات، والحرقات، فيرى العبد ما ليس قادراً عليه ولا صابراً عنه، وهذا من أعظم العذاب: أن ترى ما لا صبر لك على بعضه، ولا قدرة لك على بعضه.

قال الشاعر:

وكنـت متى أرسَلْـتَ طَرفَكَ رائداً ... لقلبـك يوماً، أتعَبَتْـكَ المنـاظرُ

رأيـت الذى لا كُلُّـهُ أنـت قـادر ... عليـه ولا عـن بَعْضـه أنْتَ صَابِرُ

(1) ضعيف جداً: أخرجه أحمد في المسند، والحاكم في المستدرك(4/ 313) والقضاعي في مسند الشهاب (21/ 1) وانظر الضعيفة للألباني (1065).
(2) رواه أحمد (22251)، والهيثمي في المجمع (4/ 145).
(3) صحيح: رواه مسلم (2121) في اللباس، وأبو داود (4815) في الأدب وأحمد في المسند (10916) (11044).

وهذا البيت يحتاج إلى شرح، ومراده أنك ترى ما لا تصبر عن شئ منه، ولا تقدر على شئ منه، فإن قوله: «لا كله أنت قادر عليه» نفى لقدرته على الكل، الذى لا ينفى إلا بنفى القدرة عن كل واحد.

وكم ممن أرسل لحظاته فما أقلعت إلا وهو يتشحط بينهن قتيلاً، كما قيل:

يا ناظراً، ما أقلعت لحظاته حتى تَشَحَّطَ بينهن قتيلاً

ولى من أبيات:

مَلَّ السلامة فَاغْتَدَتْ لحَظَاتُهُ وَقْفاً على طَلَلٍ يُظَنُّ جميلاً

ما زال يَتْبَعُ إثرَهُ لحظاته حَتَّى تَشَحَّط بينهن قتيلاً

ومن العجب: أن لحظة الناظر سهم لا يصل إلى المنظور إليه، حتى يتبوأ مكاناً من قلب الناظر، ولى من قصيدة:

يا رامياً بسهام اللَّحظ مجتهداً أنت القتيل بما ترمي، فلا تُصب

وباعثَ الطَّرف يَرتادُ الشِّفَاءَ لـه احْبسْ رسولك، لا يأتيكَ بالعَطَب

وأعجب من ذلك: أن النظرة تجرح القلب جرحاً، فيتبعها جرحاً على جرح، ثم لا يمنعه ألم الجراحة من استدعاء تكرارها، ولى أيضاً فى هذا المعنى:

ما زلتَ تَتْبَعُ نظرة في نظرة في إثر كل مَليحَة ومليح

وتظن ذاك دواء جرحك وهو في التحـ ـقيق تجريح على تجريح

فَذَبَحْتَ طَرْفَكَ باللحاظ وبالبكا فالقلب منك ذبيح أى ذبيح

وقد قيل: إن حبس اللحظات أيسر من دوام الحسرات.

فصل

الخطرة

وأما الخطرات: فشأنها أصعب، فإنها مبدأ الخير والشر، ومنها تتولد الإرادات، والهمم، والعزائم، فمن راعى خطراته ملك زمام نفسه، وقهر هواه، ومن غلبته خطراته، فهواه ونفسه له أغلب، ومن استهان بالخطرات قادته قهراً إلى الهلكات.

ولا تزال الخطرات تتردد على القلب حتى تصير منى باطلة: ﴿**كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ [النور: 39] وأخس الناس همة، وأوضعهم نفساً من رضى من الحقائق بالأمانى الكاذبة، واستجلبها لنفسه، وتحلى بها، وهى لعمر الله رؤوس أموال المفلسين، ومتاجر البطالين، وهى قوت النفس الفارغة التى قد قنعت من الوصل بزورة الخيال، ومن الحقائق بكواذب الآمال، كما قال الشاعر:

أمانـــي من سعدى رواء على الظمـا سقتنــــا بها سعدى على ظمــأ بردا

منى إن تكن حقا تكن أحســـن المنى وإلا فقد عشــــنا بهـــا زمناً رغــــدا

وهى أضر شئ على الإنسان، وتتولد من العجز والكسل، وتولد التفريط والحسرة والندم، والمتمنى لما فاته مباشرة الحقيقة بجسمه، حول صورتها فى قلبه وعانقها وضمها إليه، فقنع بوصال صورة وهمية خيالية صورها فكره.

وذلك لا يجدى عليه شيئاً، وإنما مثله مثل الجائع والظمآن، يصور فى وهمه صورة الطعام والشراب، وهو لا يأكل ولا يشرب.

والسكون إلى ذلك واستجلابه يدل على خساسة النفس ووضاعتها، وإنما شرف النفس وزكاؤها وطهارتها وعلوها، بأن ينفى عنها كل خطرة لا حقيقة لها، ولا يرضى أن يُخطرها بباله، ويأنف لنفسه منها.

ثم الخطرات بعد أقسام تدور على أربعة أصول:

خطرات يستجلب بها منافع دنياه.

وخطرات يستدفع بها مضار دنياه.

وخطرات يستجلب بها مصالح آخرته.

وخطرات يستدفع بها مضار آخرته.

فليحصر العبد خطراته، وأفكاره، وهمومه فى هذه الأقسام الأربعة، فإذا انحصرت له فيها فما أمكن اجتماعه منها لم يتركه لغيره، وإذا تزاحمت عليه الخطرات، لتزاحم متعلقاتها قدم الأهم فالأهم الذى يخشى فوته، وأخر الذى ليس بأهم ولا يخاف فوته.

بقـى قسمـان آخـران:

أحدهما: مهم لا يفوت.

والثانى: غير مهم، ولكنه يفوت.

ففى كل منهما ما يدعو إلى تقديمه، فهنا يقع التردد والحيرة، فإن قدم المهم خشى فوات ما دونه، وإن قدم ما دونه فاته الاشتغال به عن المهم، وكذلك يعرض له أمران لا يمكن الجمع بينهما، ولا يحصل أحدهما إلا بتفويت الآخر.

فهذا موضع استعمال العقل والفقه والمعرفة، ومن هاهنا ارتفع من ارتفع، وأنجح من أنجح، وخاب من خاب، وأكثر من ترى ممن يعظم عقله ومعرفته يؤثر غير المهم الذى لا يفوت على المهم الذى يفوت، ولا تجد أحداً يسلم من ذلك، ولكن مستقل ومستكثر.

والتحكيم فى هذا الباب للقاعدة الكبرى التى عليها مدار الشرع والقدرة وإليها يرجع الخلق والأمر، وهى إيثار أكبر المصلحتين وأعلاهما، وإن فاتت المصلحة التى هى دونها، والدخول فى أدنى المفسدتين لدفع ما هو أكبر منها.

فيفوت مصلحة، ليحصل ما هو أكبر منها، ويرتكب مفسدة، لدفع ما هو أعظم منها.

خطـرات العاقـل

فخطرات العاقل وفكره لا يتجاوز ذلك، وبذلك جاءت الشرائع، ومصالح الدنيا والآخرة لا تقوم إلا على ذلك، وأعلى الفكر وأجلها وأنفعها: ما كان لله والدار الآخرة، فما كان لله فهو أنواع:

أحدها: الفكرة فى آياته المنزلة وتعلقها، وفهم مراده منها، وكذلك أنزلها الله تعالى، لا لمجرد تلاوتها، بل التلاوة وسيلة.

قال بعض السلف: أنزل الله القرآن ليعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً.

الثانى: الفكرة فى آياته المشهودة والاعتبار بها، والاستدلال بها على أسمائه، وصفاته، وحكمته، وإحسانه، وبره، وجوده، وقد حض سبحانه عباده على التفكر فى آياته وتدبرها وتعلقها، وذم الغافل عن ذلك.

الثالث: الفكرة فى آلائه وإحسانه، وإنعامه على خلقه بأصناف النعم، وسعة رحمته ومغفرته وحلمه.

وهذه الأنواع الثلاثة تستخرج من القلب معرفة الله، ومحبته، وخوفه، ورجاءه، ودوام الفكرة فى ذلك مع الذكر يصبغ القلب فى المعرفة والمحبة صبغة تامة.

الرابع: الفكرة فى عيوب النفس وآفاتها، وفى عيوب العمل، وهذه الفكرة عظيمة النفع، وهى باب لكل خير، وتأثيرها في كسر النفس الأمارة بالسوء، ومتى كسرت عاشت النفس المطمئنة وانتعشت وصار الحكم لها، فحيى القلب، ودارت كلمته فى مملكته،وبث أمراءه وجنده فى مصالحه.

الخامس: الفكرة فى واجب الوقت ووظيفته، وجمع الهم كله عليه، فالعارف لزم وقته، فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها، فجميع المصالح إنما تنشأ من الوقت، وإن ضيعه لم يستدركه أبداً.

قال الشافعى ﷺ: «صحبت الصوفية فلم استفد منهم سوى حرفين: أحدهما قولهم: الوقت سيف، فإن قطعته وإلا قطعك.

وذكر الكلمة الأخرى: ونفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل».

فوقت الإنسان هو عمره فى الحقيقة، وهو مادة حياته الأبدية فى النعيم المقيم، ومادة معيشته الضنك فى العذاب الأليم، وهو يمر أسرع من مر السحاب، فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره، وغير ذلك ليس محسوباً فى حياته، وإن عاش فيه عاش عيش البهائم، فإذا قطع وقته فى الغفلة، والشهوة، والأمانى الباطلة، وكان خير ما قطعه به النوم والبطالة، فموت هذا خير له من حياته.

وإذا كان العبد وهو فى الصلاة ليس له من صلاته إلا ما عقل منها، فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله ولله.

وما عدا هذه الأقسام من الخطرات والفكر، فإما وساوس شيطانية، وإما أمانى باطلة وخدع كاذبة، بمنزلة خواطر المصابين فى عقولهم من السكارى والمحشوشين والموسوسين، ولسان حال هؤلاء يقول عند انكشاف الحقائق:

إن كـانَ منزلتى في الحشرِ عِندكُمُ ... ما قد لَقِيــتُ، فقد ضَيَّعْــتُ أيَّامـي

أمنية ظَفَرَتْ نفسي بها زمناً والیوم أحْسَبُهَا أضغاث أحلامِ

واعلم أن ورود الخاطر لا يضر، وإنما يضر استدعاؤه ومحادثته، فالخاطر كالمار على الطريق، فإن لم تستدعه وتركته مر وانصرف عنك، وان استدعيته سحرك بحديثه وخدعه وغروره، وهو أخف شئ على النفس الفارغة الباطلة، وأثقل شئ على القلب والنفس الشريفة السماوية المطمئنة.

وقد ركب الله سبحانه فى الإنسان نفسين: نفساً أمارة، ونفساً مطمئنة، وهما متعاديتان، فكل ما خف على هذه ثقل على هذه، وكل ما التذت به هذه تألمت به الأخرى، فليس على النفس الأمارة أشق من العمل لله وإيثار رضاه على هواها، وليس لها أنفع منه، وليس على النفس المطمئنة أشق من العمل لغير الله. وإجابة داعى الهوى.

وليس عليها شئ أضر منه، والملك مع هذه عن يمنة القلب، والشيطان مع تلك عن يسرة القلب، والحرب مستمرة لا تضع أوزارها إلا أن تستوفى أجلها من الدنيا، والباطل كله يتحيز مع الشيطان والأمارة، والحق كله يتحيز مع الملك والمطمئنة، والحرب دول وسجال، والنصر مع الصبر، ومن صبر وصابر ورابط واتقى الله فله العاقبة فى الدنيا والآخرة، وقد حكم الله حكماً لا يبدل أبداً: أن العاقبة للتقوى، والعاقبة للمتقين، فالقلب لوح فارغ، والخواطر نقوش تنقش فيه، فكيف يليق بالعاقل أن تكون نقوش لوحه ما بين كذب وغرور وخدع، وأماني باطلة، وسراب لا حقيقة له؟ فأى حكمة وعلم وهدى ينتقش مع هذه النقوش؟ وإذا أراد أن ينقش ذلك فى لوح قلبه كان بمنزلة كتابه العلم النافع فى محل مشغول بكتابة ما لا منفعة فيه، فإن لم يفرغ القلب من الخواطر الردية، لم تستقر فيه الخواطر النافعة، فإنها لا تستقر إلا فى محل فارغ، كما قيل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً فارغاً فَتَمَكّنا

وكهذا كثر من أرباب السلوك بنوا سلوكهم على حفظ الخواطر، وأن لا يمكنوا خاطراً يدخل قلوبهم، حتى تصير القلوب فارغة قابلة للكشف وظهور حقائق العلويات فيها، وهؤلاء حفظوا شيئاً وغابت عنهم أشياء، فإنهم أخلوا القلوب من أن يطرقها خاطر، فبقيت فارغة لا شئ فيها، فصادفها الشيطان خالية، فبذر فيها

الباطل فى قوالب أوهمهم أنها أعلى الأشياء وأشرفها،وعوضهم بها عن الخواطر التى هى مادة العلم والهدى، وإذا خلا القلب عن الخواطر جاء الشيطان فوجد المحل خالياً، فشغله بما يناسب حال صاحبه، حيث لم يستطع أن يشغله بالخواطر السفلية فشغله بإرادة التجريد والفراغ من الإرادة التى لا صلاح للعبد ولا فلاح إلا بأن تكون هى المستولية على قلبه، وهى إرادة مراد الله الدينى الأمرى الذى يحبه ويرضاه، وشغل القلب والاهتمام بمعرفته على التفصيل به، والقيام به وتنفيذه فى الخلق، والتطرق إلى ذلك والتوصل إليه بالدخول فى الخلق لتنفيذه، فيضلهم الشيطان عن ذلك بأن دعاهم إلى تركه وتعطيله من باب الزهد فى خواطر الدنيا وأسبابها.

وأوهمهم أن كمالهم فى ذلك التجريد والفراغ، وهيهات هيهات، إنما الكمال فى امتلاء القلب والسر من الخواطر والإرادات والفكر فى تحصيل مراضى الرب تعالى من العبد، ومن الناس والفكر فى طرق ذلك والتوصل إليه، فأكمل الناس أكثرهم خواطر وفكر وإرادات لذلك، كما أن أنقص الناس أكثرهم خواطر وفكر وإرادات لحظوظه وهواه أين كانت، والله المستعان.

وهذا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كانت تتزاحم عليه الخواطر فى مراضى الرب تعالى فربما استعملها فى صلاته، وكان يجهز جيشه وهو فى الصلاة، فيكون قد جمع بين الجهاد والصلاة، وهذا باب من تداخل العبادات فى العبادة الواحدة.

وهو باب عزيز شريف، لا يعرفه إلا صادق حاذق الطلب، متضلع من العلم عالى الهمة، بحيث يدخل فى عبادة يظفر فيها بعبادات شتى، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فصـــل

اللفظـــة

وأما اللفظات: فحفظها بأن لا يخرج لفظة ضائعة، بأن لا يتكلم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة فى دينه، فإذا أراد أن يتكلم بالكلمة نظر: هل فيها ربح وفائدة أم لا؟ فإن لم يكن فيها ربح أمسك عنها، وإن كان فيها ربح نظر: هل تفوت بها كلمة

هي أربح منها؟ فلا يضيعها بهذه، وإذا أردت أن تستدل على ما في القلب فاستدل عليه بحركة اللسان، فإنه يطلعك على ما في القلب، شاء صاحبه أم أبى.

قال يحيى بن معاذ: «القلوب كالقدور تغلي بما فيها، وألسنتها مغارفها، فانظر إلى الرجل حين يتكلم فإن لسانه يغترف لك مما في قلبه، حلو وحامض، وعذب وأجاج، وغير ذلك، ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه»، أي: كما تطعم بلسانك طعم ما في القدور من الطعام فتدرك العلم بحقيقة ذلك، كذلك تطعم ما في قلب الرجل من لسانه فتذوق ما في قلبه من لسانه، كما تذوق ما في القدر بلسانك.

وفي حديث أنس المرفوع: «**لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه**»[1].

وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: «**الفم والفرج**»[2]، قال الترمذي حديث حسن صحيح.

وقد سأل معاذ النبي ﷺ عن العمل الذي يدخله الجنة ويباعده من النار، فأخبره برأسه وعموده وذروة سنامه، ثم قال: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟** قال: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه ثم قال: **كف عليك هذا**. فقال: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟! فقال: **ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس على وجوههم -أو على مناخرهم- إلا حصائد ألسنتهم**»[3]، قال الترمذي: حديث صحيح.

ومن العجب: أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنى والسرقة وشرب الخمر ومن النظر المحرم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتى ترى الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يلقى لها بالاً ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب، وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم، ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات، ولا يبالي ما يقول.

---

(1) ضعيف : رواه أحمد في المسند (12636) وفي إسناده على بن مسعدة الباهلي وانظر مجمع الزوائد (1/ 53) والمنذري (3/ 527) في الترغيب.

(2) حسن : رواه الترمذي (2004) في البر والصلة، وابن ماجه (4246) في الزهد وأحمد(7847) (8852) وحسنه الألباني في صحيح الترمذي.

(3) صحيح : رواه الترمذي في الإيمان (2616) وابن ماجه في الفتن (3973) وأحمد في المسند (21511) وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

وإذا أردت أن تعرف ذلك، فانظر إلى ما رواه مسلم فى صحيحه من حديث جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الذى يَتَألَّى عَلَيَّ أنى لا أغفر لفلان؟ قد غفرت له وأحبطت عملك**»[1]، فهذا العابد الذى قد عبد الله ما شاء أن يعبده أحبطت هذه الكلمة الواحدة عمله كله.

وفى حديث أبى هريرة نحو ذلك، ثم قال أبو هريرة: «تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»[2].

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالاً يهوى بها فى نار جهنم**»[3]، وعند مسلم: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوى بها فى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب**»[4].

وعند الترمذى من حديث بلال بن الحارث المزنى عن النبى ﷺ: «**إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله. له بها سخطه إلى يوم يلقاه**» وكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث![5].

وفى «جامع الترمذى» أيضاً من حديث أنس قال: «توفى رجل من الصحابة، فقال رجل: أبشر بالجنة، فقال رسول الله ﷺ: «**وما يدريك؟ فلعله تكلم فيما لا يعنيه، أو بخل بما لا ينقصه**»، قال: حديث حسن[6].

---

(1) صحيح : رواه مسلم (2621) في البر والصلة.
(2) صحيح : رواه أبو داود (4901) في الأدب، وأحمد في المسند (8093) وصححه الألباني في صحيح أبي داود.
(3) صحيح : رواه البخاري (6478) في الرقاق، ومسلم (2988) وأحمد في المسند (8206).
(4) صحيح : رواه البخاري (6477) ومسلم (2988) في الزهد والرقائق وأحمد (8206).
(5) صحيح : رواه الترمذي (2319) في الزهد، وابن ماجه (3969) وأحمد في المسند (15425) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (3220).
(6) ضعيف : رواه الترمذي (2316) في الزهد ، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي.

وفى لفظ: «إن غلاماً استشهد يوم أحد، فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع، فمسحت أمه التراب عن وجهه، وقالت: هنيئاً لك يا بنى، لك الجنة، فقال النبى ﷺ: **وما يدريك؟ لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه، ويمنع ما لا يضره**»[1].

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة يرفعه: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**»[2].

وفى لفظ لمسلم: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا شهد أمراً فليتكلم بخير أو ليسكت**»[3].

وذكر الترمذى بإسناد صحيح عنه ﷺ أنه قال: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[4].

وعن سفيان بن عبد الله الثقفى قال: «قلت يا رسول الله، قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: **قل آمنت بالله ثم استقم**، قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف على؟ فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: **هذا**»، والحديث صحيح[5].

وعن أم حبيبة زوج النبى ﷺ عن النبى ﷺ قال: «**كل كلام ابن آدم عليه لا له: إلا أمراً بمعروف، أو نهياً عن منكر، أو ذكراً لله عزوجل**»، قال الترمذى: حديث حسن[6].

وفى حديث آخر: «**إذا أصبح العبد، فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان تقول: اتق الله فينا فإنما نحن بك، فإذا استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا**»[7].

وقد كان السلف يحاسب أحدهم نفسه فى قوله: يوم حار، ويوم بارد، ولقد رئى بعض الأكابر من أهل العلم فى النوم فسئل عن حاله فقال: أنا موقوف على

---

(1) ضعيف : أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت (109)، والطحاوي في مشكل الآثار (3/ 154).

(2) صحيح : رواه البخاري (6018) في الأدب، ومسلم (47) في الإيمان، وابن ماجه (3971) في الفتن، والترمذي (2500) في صفة القيامة، وأحمد في المسند (7571 ، 9312).

(3) صحيح : رواه مسلم (1468) في الرضاع.

(4) صحيح : رواه الترمذي (2317، 2318) في الزهد، وابن ماجه (3976) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (3226).

(5) صحيح : رواه مسلم (38) في الإيمان، وابن ماجه (2972) في الفتن، وأحمد في المسند (14990).

(6) ضعيف : رواه الترمذي (2412) في الزهد، وابن ماجه (3974) في الفتن وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (794).

(7) حسن : رواه الترمذي (2407) في الزهد، وأحمد في المسند (11498) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (351) وصحيح سنن الترمذي.

كلمة قلتها، قلت: ما أحوج الناس إلى غيث، فقيل لى: وما يدريك؟ أنا أعلم بمصلحة عبادى. وقال بعض الصحابة لجاريته يوماً: هاتى السفرة نعبث بها، ثم قال: استغفر الله ما أتكلم بكلمة إلا وأنا أخطمها وأزمها إلا هذه الكلمة خرجت منى بغير خطام ولا زمام. أو كما قال.

وأيسر حركات الجوارح حركة اللسان وهى أضرها على العبد. واختلف السلف والخلف هل يكتب جميع ما يلفظ به أو الخير والشر فقط؟ على قولين أظهرهما الأول.

وقال بعض السلف: كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلا ما كان من الله. وما والاه. وكان الصديق ﷺ يمسك بلسانه ويقول: «هذا أوردنى الموارد»، والكلام أسيرك، فإذا خرج من فيك صرت أنت أسيره، والله عند لسان كل قائل: **﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾** [ق: 18].

وفى اللسان آفتان عظيمتان، إن خلص من إحداهما لم يخلص من الأخرى: آفة الكلام، وآفة السكوت، وقد يكون كل منهما أعظم إثماً من الأخرى فى وقتها، فالساكت عن الحق شيطان أخرس، عاص لله، مراء مداهن إذا لم يخف على نفسه. والمتكلم بالباطل شيطان ناطق، عاص لله، وأكثر الخلق منحرف فى كلامه وسكوته. فهم بين هذين النوعين، وأهل الوسط وهم أهل الصراط المستقيم كفوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه فى الآخرة، فلا ترى أحدهم يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة فضلاً أن تضره في آخرته وإن العبد ليأتى يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها، ويأتى بسيئات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله وما اتصل به.

فصل

الخطـــوة

وأما الخطوات، فحفظها بأن لا ينقل قدمه إلا فيما يرجو ثوابه، فإن لم يكن فى خطاه مزيد ثواب فالقعود عنها خير له، ويمكنه أن يستخرج من كل مباح يخطو إليه قربة ينويها لله، فتقع خطاه قربة.

ولما كانت العثرة عثرتين: عثرة الرجل، وعثرة اللسان، جاءت إحداهما قرينة الأخرى في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان:63]، فوصفهم بالاستقامة في لفظاتهم وخطواتهم، كما جمع بين اللحظات والخطرات في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر:19].

فصل

من أحكام الزنى

وهذا كله ذكرناه مقدمة بين يدى تحريم الفواحش ووجوب حفظ الفرج، وقد قال رسول الله ﷺ: «**أكثر ما يدخل الناس النار: الفم والفرج**»[1].

وفي الصحيحين عنه ﷺ: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بأحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[2]، وهذا الحديث في اقتران الزنى بالكفر وقتل النفس نظير الآية التى فى الفرقان، ونظير حديث ابن مسعود.

وبدأ رسول الله ﷺ بالأكثر وقوعاً، والذى يليه فالزنى أكثر وقوعاً من قتل النفس، وقتل النفس أكثر وقوعاً من الردة، وأيضاً فإنه انتقال من الأكثر إلى ما هو أكثر منه، ومفسدة الزنى مناقضة لصلاح العالم، فإن المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها، وزوجها، وأقاربها، ونكست رؤوسهم بين الناس، وإن حملت من الزنى، فإن قتلت ولدها جمعت بين الزنى والقتل، وإن حملته على الزوج أدخلت على أهله وأهلها أجنبياً ليس منهم، فورثهم وليس منهم، ورآهم وخلا بهم وانتسب إليهم وليس منهم، إلى غير ذلك من مفاسد زناها، وأما زنى الرجل فإنه يوجب اختلاط الأنساب أيضاً، وإفساد المرأة المصونة، وتعريضها للتلف والفساد، ففى هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين، وإن عمرت القبور فى البرزخ والنار فى الآخرة، فكم فى الزنى من استحلال حرمات، وفوات حقوق، ووقوع مظالم!.

---

(1) سبق تخريجه.

(2) صحيح: رواه البخاري (6878) في الديات، ومسلم (1676) في القسامة وابن ماجه (2534) في الحدود، وأحمد في المسند (4055).

ومن خاصيته: أنه يوجب الفقر، ويقصر العمر، ويكسو صاحبه سواد الوجه، ويورث المقت بين الناس.

ومن خاصيته أيضاً: أنه يشتت القلب ويمرضه إن لم يمته، ويجلب الهم، والحزن، والخوف ويباعد صاحبه من الملك ويقربه من الشيطان. فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدته، ولهذا شرع فيه القتل على أشنع الوجوه وأفحشها، وأصعبها، ولو بلغ العبد أن امرأته أو حرمته قتلت، كان أسهل عليه من أن يبلغه أنها زنت.

وقال سعد بن عبادة رضي الله عنه: «لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**أتعجبون من غيرة سعد؟ والله لأنا أغير منه، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**»[1]. متفق عليه.

وفي الصحيحين أيضاً عنه ﷺ: «**إن الله يغار، وإن المؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتي العبد ما حرم عليه**»[2].

وفي الصحيحين أيضاً عنه ﷺ: «**لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، ولا أحد أحب إليه المدح من الله، ومن أجل ذلك أثنى على نفسه**»[3].

وفي الصحيحين في خطبته ﷺ في صلاة الكسوف أنه قال: «**يا أمة محمد، والله إنه لا أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد، والله. لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ثم رفع يديه، وقال: اللهم هل بلغت؟**»[4].

---

(1) صحيح: رواه البخاري (7416) في المحاربين، ومسلم (1499) في التوبة، وأحمد (17703) والدارمي (2227) في النكاح.

(2) صحيح: رواه البخاري (5223) في النكاح، ومسلم (2761) في التوبة والترمذي (1168) في الرضاع، وأحمد (10567).

(3) صحيح: رواه البخاري (4634) في التفسير، ومسلم (2760) في التوبة وأحمد (3605، 4142) والترمذي (3530) في الدعوات.

(4) صحيح: رواه البخاري (1044) في الجمعة، ومسلم (901) في الكسوف وأحمد في المسند (24784) ومالك في الموطأ (444).

وفي ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عقب صلاة الكسوف سر بديع لمن تأمله، وظهور الزنى من أمارات خراب العالم، وهو من أشراط الساعة، كما في الصحيحين عن أنس بن مالك أنه قال: «لأحدثنكم حديثاً لا يحدثكموه أحد بعدي، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **من أشراط الساعة أن يقل العلم، ويظهر الجهل، ويظهر الزنى، ويقل الرجال، وتكثر النساء، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد**»[1]

وقد جرت سنة الله سبحانه في خلقه أنه عند ظهور الزني يغضب الله سبحانه ويشتد غضبه، فلابد أن يؤثر غضبه في الأرض عقوبة.

قال عبد الله بن مسعود: «ما ظهر الربا والزنى في قرية إلا أذن الله بإهلاكها»، ورأى بعض أحبار بني إسرائيل ابنه يغمز امرأة فقال: مهلاً يا بني، فصرع الأب عن سريره فانقطع نخاعه، وأسقطت امرأته، وقيل له: «هكذا غضبك لي؟ لا يكون في جنسك خير أبداً».

وخص سبحانه حد الزنى من بين الحدود بثلاث خصائص:

أحدها: القتل فيه بأشنع القتلات، وحيث خففه جمع فيه بين العقوبة على البدن بالجلد، وعلى القلب بتغريبه عن وطنه سنة.

الثاني: أنه نهى عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة في دينه، بحيث تمنعهم من إقامة الحد عليهم: فإنه سبحانه من رأفته ورحمته بهم شرع هذه العقوبة فهو أرحم بكم، ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة، فلا يمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره.

وهذا -وإن كان عاماً في سائر الحدود- ولكن ذكر في حد الزنى خاصة، لشدة الحاجة إلى ذكره، وإن الناس لا يجدون في قلوبهم من الغلظة والقسوة على الزاني ما يجدونه على السارق والقاذف وشارب الخمر، فقلوبهم ترحم الزاني أكثر مما ترحم غيره من أرباب الجرائم، والواقع شاهد بذلك فنهوا أن تأخذهم هذه الرأفة وتحملهم على تعطيل حد الله.

---

(1) صحيح: رواه البخاري (5577) في العلم، ومسلم (2671).

وسبب هذه الرحمة: أن هذا ذنب يقع من الأشراف والأوساط والأرذال، وفى النفوس أقوى الدواعى إليه، والمشارك فيه كثير، وأكثر أسبابه العشق، والقلوب مجبولة على رحمة العاشق، وكثير من الناس يعد مساعدته طاعة وقربة، وإن كانت الصورة المعشوقة محرمة عليه، ولا يستنكر هذا الأمر، فإنه مستقر عند ما شاء الله من أشباه الأنعام، ولقد حكى لنا من ذلك شيئاً كثيراً نقاص العقول، كالخدام والنساء.

وأيضاً فإن هذا ذنب غالباً ما يقع مع التراضى من الجانبين، ولا يقع فيه من العدوان والظلم والاغتصاب ما تنفر النفوس منه.

وفيها شهوة غالبة له فيصور ذلك لها فتقوم بها رحمة تمنع إقامة الحد، وهذا كله من ضعف الإيمان، وكمال الإيمان أن تقوم به قوة يقيم بها أمر الله، ورحمة يرحم بها المحدود، فيكون موافقاً لربه تعالى فى أمره ورحمته.

الثالث: أنه -سبحانه- أمر أن يكون حدهما بمشهد من المؤمنين، فلا يكون فى خلوة بحيث لا يراهما أحد، وذلك أبلغ فى مصلحة الحد وحكمة الزجر، وحد الزانى المحصن مشتق من عقوبة الله -تعالى- لقوم لوط بالقذف بالحجارة، وذلك لاشتراك الزنى واللواط فى الفحش، وفى كل منهما فساد يناقض حكمة الله فى خلقه وأمره، فإن فى اللواط من المفاسد ما يفوت الحصر والتعداد، ولأن يقتل المفعول به خير له من أن يؤتى، فإنه يفسد فساداً لا يرجى له بعده صلاح أبداً، ويذهب خيره كله، وتمص الأرض ماء الحياء من وجهه، فلا يستحى بعد ذلك من الله ولا من خلقه، وتعمل فى قلبه وروحه نطفة الفاعل ما يعمل السم فى البدن.

وقد اختلف الناس: هل يدخل الجنة مفعول به؟ على قولين سمعت شيخ الإسلام يحكيهما.

والذين قالوا: لا يدخل الجنة احتجوا بأمور:

منها: أن النبى ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة ولَدُ زِنْيَة**»[1]، فإذا كان هذا حال ولد الزنى مع أنه لا ذنب له فى ذلك، ولكنه مظنة كل شر وخبث، وهو جدير أن لا

(1) رواه الدارمي (2093)، والطحاوي في مشكل الآثار (1/ 393).

يجيء منه خير أبداً، لأنه مخلوق من نطفة خبيثة، وإذا كان الجسد الذى تربى على الحرام النار أولى به، فكيف بالجسد المخلوق من النطفة الحرام؟.

قالوا: والمفعول به شر من ولد الزنى، وأخزى وأقبح وأوقح، وهو جدير أن لا يوفق لخير، وأن يحال بينه وبينه، وكلما عمل خيراً قيض الله. له ما يفسده عقوبة له، وقل أن ترى من كان كذلك فى صغره إلا وهو فى كبره شر مما كان، ولا يوفق لعلم نافع، ولا عمل صالح، ولا توبة نصوح.

والتحقيق فى المسألة أن يقال: إن تاب المبتلى بهذا البلاء وأناب، ورزق توبة نصوحاً وعملاً صالحاً، وكان فى كبره خيراً منه فى صغره، وبدل سيئاته حسنات، وغسل عار ذلك عنه بأنواع الطاعات والقربات، وغض بصره، وحفظ فرجه عن المحرمات، وصدق الله فى معاملته فهذا مغفور له، وهو من أهل الجنة، فإن الله يغفر الذنوب جميعاً، وإذا كانت التوبة تمحو كل ذنب، حتى الشرك بالله وقتل أنبيائه وأوليائه والسحر والكفر وغير ذلك، فلا تقصر عن محو هذا الذنب، وقد استقرت حكمة الله تعالى به عدلاً وفضلاً أن «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»[1]، وقد ضمن الله سبحانه لمن تاب من الشرك، وقتل النفس، والزنى، أنه يبدل سيئاته حسنات، وهذا حكم عام لكل تائب من كل ذنب.

وقد قال تعالى: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [الزمر:53]، فلا يخرج من هذا العموم ذنب واحد، ولكن هذا فى حق التائبين خاصة.

وأما المفعول به إن كان فى كبره شراً مما كان فى صغره، لم يوفق لتوبة نصوح ولا لعمل صالح، ولا استدرك ما فات وأحيا ما أمات، ولا بدل السيئات بالحسنات، فهذا بعيد أن يوفق عند الممات لخاتمة يدخل بها الجنة، عقوبة له على عمله، فإن الله سبحانه يعاقب على السيئة بسيئة أخرى، وتتضاعف عقوبة السيئات بعضها ببعض، كما يثيب على الحسنة بحسنة أخرى.

وإذا نظرت إلى حال كثير من المحتضرين وجدتهم يُحال بينهم وبين حسن الخاتمة، عقوبة لهم على أعمالهم السيئة.

(1) حسن: رواه ابن ماجه (4250) في الزهد، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (3446).

قال الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي رحمه الله: واعلم أن لسوء الخاتمة -أعاذنا الله منها- أسباباً، ولها طرق وأبواب، أعظمها الانكباب على الدنيا، والإعراض من الآخرة، والإقدام والجرأة على معاصى الله -عزوجل- وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة، ونوع من المعصية، وجانب من الإعراض، ونصيب من الجرأة والإقدام، فملك قلبه، وسبى عقله، وأطفأ نوره، وأرسل عليه حجبه، فلم تنفع فيه تذكرة، ولا نجعت فيه موعظة، فربما جاءه الموت على ذلك، فسمع النداء من مكان بعيد، فلم يتبين المراد، ولا علم ما أراد، وإن كرر عليه الداعي وأعاد.

قال: ويُروى أن بعض رجال الناصر نزل به الموت، فجعل ابنه يقول: قل لا إله إلا الله، فقال: الناصر مولاى، فأعاد عليه القول، فأعاد مثل ذلك، ثم أصابته غشية، فلما أفاق قال: الناصر مولاى، وكان هذا دأبه، كلما قيل له: قل: لا إله إلا الله، قال: الناصر مولاى، ثم قال لابنه: يا فلان، الناصر إنما يعرفك بسيفك، والقتل القتل، ثم مات. قال عبد الحق: وقيل لآخر -ممن أعرفه- :قل: لا إله إلا الله، فجعل يقول: الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا، والبستان الفلانى افعلوا فيه كذا.

قال: وفيما أذن لى أبو طاهر السلفى أن أحدث به عنه أن رجلاً نزل به الموت، فقيل له: قل: لا إله إلا الله، فجعل يقول بالفارسية: ده يازده ده وازده، تفسيره: عشرة بأحد عشر.

وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله، فجعل يقول:

أين الطريق إلى حَمَّام منْجَاب؟

قال: وهذا الكلام له قصة، وذلك أن رجلاً كان واقفاً بإزاء داره، وكان بابها يشبه باب الحمام، فمرت به جارية لها منظر، فقالت: أين الطريق إلى حمام منجاب؟ فقال: هذا حمام منجاب، فدخلت الدار ودخل وراءها، فلما رأت نفسها فى داره وعلمت أنه قد خدعها أظهرت له البشرى والفرح باجتماعها معه، وقالت له: يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا، وتقر به عيوننا، فقال لها: الساعة آتيك بكل ما تريدين وتشتهين، وخرج وتركها فى الدار، ولم يغلقها، فأخذ ما يصلح ورجع فوجدها قد خرجت وذهبت، ولم تخنه فى شئ، فهام الرجل وأكثر الذكر لها، وجعل يمشى فى الطرق والأزقة ويقول:

يا رب قائلة يوماً، وقد تَعِبَتْ   كيف الطريق إلى حَمَّامِ منْجَابِ؟

فبينما هو يوماً يقول ذلك، وإذا بجارية أجابته من طاق:

هَلاَّ جعلت سريعاً إذ ظَفِرْتَ بها   حِرْزاً على الدَّارِ أو قُفْلاً على الباب؟

فازداد هيمانه واشتد هيجانه، ولم يزل على ذلك، حتى كان هذا البيت آخر كلامه من الدنيا.

ولقد بكى سفيان الثورى ليلة إلى الصباح، فلما أصبح قيل له: كل هذا خوفاً من الذنوب؟ فأخذ تبنة من الأرض، وقال: الذنوب أهون من هذا، وإنما أبكى من خوف سوء الخاتمة.

وهذا من أعظم الفقه، أن يخاف الرجل أن تخذله ذنوبه عند الموت، فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى.

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبى الدرداء أنه لما احتضر جعل يغمى عليه ثم يفيق، ويقرأ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:110].

فمن هذا خاف السلف من الذنوب، أن تكون حجاباً بينهم وبين الخاتمة الحسنى.

قال: واعلم أن سوء الخاتمة -أعاذنا الله تعالى منها- لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، ما سمع بهذا ولا علم به ولله الحمد، وإنما تكون لمن له فساد فى الأصل، أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة، فيأخذه قبل إصلاح الطوية، ويصطلم قبل الإنابة، فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة، والعياذ بالله.

قال: ويروى أنه كان بمصر رجل يلزم مسجداً للأذان والصلاة، وعليه بهاء الطاعة، وأنوار العبادة، فرقى يوماً المنارة على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصرانى، فاطلع فيها، فرأى ابنة صاحب الدار فافتتن بها، فترك الأذان، ونزل إليها، ودخل الدار عليها، فقالت له: ما شأنك وما تريد؟ قال: أريدك، فقالت: لماذا؟ قال: قد سبيت لبى، وأخذت بمجامع قلبى، قالت: لا أجيبك إلى ريبة أبداً، قال: أتزوجك، قالت: أنت مسلم وأنا نصرانية وأبى لا يزوجنى منك، قال: أتنصر،

قالت: إن فعلت أفعل، فتنصر الرجل ليتزوجها، وأقام معهم فى الدار، فلما كان فى أثناء ذلك اليوم رقى إلى سطح كان فى الدار فسقط منه، فمات، فلم يظفر بها، وفاته دينه.

قال:ويروى أن رجلاً علق شخصاً فاشتد كلفه به، وتمكن حبه من قلبه، حتى وقع ألم به ولزم الفراش بسببه وتمنع ذلك الشخص عليه واشتد نفاره عنه، فلم تزل الوسائط يمشون بينهما حتى وعده بأن يعوده، فأخبره بذلك الناس، ففرح واشتد فرحه وانجلى غمه، وجعل ينتظره للميعاد الذى ضرب له، فبينما هو كذلك إذ جاءه الساعى بينهما، فقال: إنه وصل معى إلى بعض الطريق ورجع، ورغبت إليه وكلمته، فقال: إنه ذكرنى وفرح بى، ولا أدخل مدخل الريبة، ولا أعرض نفسى لمواقع التهم، فعاودته فأبى وانصرف، فلما سمع البائس أسقط في يده، وعاد إلى أشد مما كان به، وبدت عليه علائم الموت، فجعل يقول فى تلك الحال:

يا سَلْمُ يا راحَةَ العَليلِ ويَا شِفَا المُدْنَفِ النَّحيلِ
رضاك أشهى إلى فؤادى من رحمةِ الخالق الجليلِ

فقلت له:يا فلان اتق الله، قال: قد كان، فقمت عنه، فما جاوزت باب داره حتى سمعت صيحة الموت، فعياذاً بالله من سوء العاقبة، وشؤم الخاتمة.

فصل

عقوبة اللواط

ولما كانت مفسدة اللواط من أعظم المفاسد كانت عقوبته فى الدنيا والآخرة من أعظم العقوبات.

وقد اختلف الناس:هل هو أغلظ عقوبة من الزنى، أو الزنى أغلظ عقوبة منه، أو عقوبتهما سواء؟ على ثلاثة أقوال:

فذهب أبو بكر الصديق، وعلى بن أبى طالب، وخالد بن الوليد، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس، وجابر بن زيد، وعبد الله بن معمر، والزهرى، وربيعة بن أبى عبد الرحمن، ومالك، وإسحاق بن راهويه، والإمام أحمد -فى أصح

الروايتين عنه- والشافعي في أحد قوليه- إلى أن عقوبته أغلظ من عقوبة الزنى، وعقوبته القتل على كل حال، محصناً كان أو غير محصن.

وذهب عطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، وسعيد بن المسيب، وإبراهيم النخعي،وقتادة، والأوزاعي، والشافعي -في ظاهر مذهبه-، والإمام أحمد-في الرواية الثانية عنه-، وأبو يوسف، ومحمد، إلى أن عقوبته وعقوبة الزنى سواء.

وذهب الحاكم، وأبو حنيفه إلى أن عقوبته دون عقوبة الزاني، وهي التعزير.

قالوا: لأنه معصية من المعاصي لم يقدر الله ولا رسوله فيها حداً مقدراً، فكان فيها التعزير، كأكل الميتة، والدم، ولحم الخنزير.

قالوا: ولأنه وطء في محل لا تشتهيه الطباع، بل ركبها الله تعالى على النفرة منه حتى الحيوان البهيم، فلم يكن فيه حد كوطء الحمار وغيره.

قالوا: ولأنه لا يسمى زانياً لغة، ولا شرعاً، ولا عرفاً، فلا يدخل في النصوص الدالة على حد الزانيين.

قالوا: وقد رأينا في قواعد الشريعة أن المعصية إذا كان الوازع منها طبيعياً اكتفى بذلك الوازع من الحد، وإذا كان في الطباع تقاضيها جُعل فيها الحد بحسب اقتضاء الطباع لها. ولهذا جُعل الحد في الزنى، والسرقة، وشرب المسكر دون أكل الميته، والدم ولحم الخنزير.

قالوا: وطرد هذا: أنه لا حد في وطء البهيمة ولا الميتة، وقد جبل الله -سبحانه- الطباع على النفرة من وطء الرجل رجلاً مثله أشد نفرة، كما جبلها على النفرة من استدعاء الرجل من يطؤه، بخلاف الزني، فإن الداعي فيه من الجانبين.

قالوا: ولأن أحد النوعين إذا استمتع بشكله لم يجب عليه الحد، كما لو تساحقت المرأتان، واستمتعت كل واحدة منهما بالأخرى.

قال أصحاب القول الأول -وهو جمهور الأمة- وحكاه غير واحد إجماعاً للصحابة: ليس في المعاصي أعظم مفسدة من هذه المفسدة، وهي تلي مفسدة الكفر، وربما كانت أعظم من مفسدة القتل، كما سنبينه إن شاء الله.

قالوا: ولم يبتل الله سبحانه بهذه الكبيدة قبل قوم لوط أحداً من العالمين، وعاقبهم عقوبة لم يعاقب بها أمة غيرهم، وجمع عليهم من أنواع العقوبات، بين الإهلاك، وقلب ديارهم عليهم، والخسف بهم، ورجمهم بالحجارة من السماء، فنكل بهم نكالاً لم ينكله أمة سواهم، وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التى تكاد الأرض تميد من جوانبها إذا عُملت عليها، وتهرب الملائكة من أقطار السموات والأرض إذا شاهدوها، خشية نزول العذاب على أهلها، فيصيبهم معهم، وتعج الأرض إلى ربها تبارك وتعالى وتكاد الجبال تزول عن أماكنها، وقتل المفعول به خير له من وطئه، فإنه إذا وطئه قتله قتلاً لا ترجى الحياة معه، بخلاف قتله، فإنه مظلوم شهيد، وربما ينتفع به فى آخرته.

قالوا: والدليل على هذا: أن الله سبحانه جعل حد القاتل إلى خيرة الولى، إن شاء قتل وإن شاء عفا، وحتم قتل اللوطى حداً، كما أجمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ ودلت عليه سنة رسول الله ﷺ الصحيحة الصريحة التى لا معارض لها، بل عليها عمل أصحابه، وخلفائه الراشدين.

وقد ثبت عن خالد بن الوليد: «أنه وجد في بعض ضواحي العرب رجلاً، ينكح كما تنكح المرأة، فكتب إلى أبى بكر الصديق رضي الله عنه فاستشار أبو بكر الصحابة رضي الله عنهم فكان علي بن أبى طالب أشدهم قولاً فيه، فقال: ما فعل هذا إلا أمة من الأمم واحدة، وقد علمتم ما فعل الله بها، أرى أن يحرق بالنار، فكتب أبو بكر إلى خالد فحرقه».

وقال عبد الله بن عباس: «ينظر أعلى بناء في القرية، فيرمى اللوطي منها منكساً، ثم يتبع بالحجارة».

وأخذ عبد الله بن عباس هذا الحد من عقوبة الله للوطية، وابن عباس هو الذى روى عن النبى ﷺ أنه قال: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**».

رواه أهل السنن، وصححه ابن حبان وغيره[1]، واحتج الإمام أحمد بهذا الحديث، وإسناده على شرط البخارى.

(1) حسن صحيح : رواه الترمذي (1456) وأبو داود (4462) وابن ماجه(2561) في الحدود وقال الألباني في صحيح أبي داود: حسن صحيح.

قالوا: وثبت عنه ﷺ أنه قال: «**لعن الله من عمل عمل قوم لوط، لعن الله من عمل عمل قوم لوط، لعن الله من عمل عمل قوم لوط**»[1]، ولم يجئ عنه ﷺ لعنه الزانى ثلاث مرات في حديث واحد، وقد لعن جماعة من أهل الكبائر، فلم يتجاوز بهم فى اللعن مرة واحدة، وكرر لعن اللوطية، وأكده ثلاث مرات. وأطبق أصحاب رسول الله ﷺ على قتله، لم يختلف فيه منهم رجلان، وإنما اختلفت أقوالهم فى صفة قتله، فظن بعض الناس أن ذلك اختلاف منهم في قتله، فحكاها مسألة نزاع بين الصحابة، وهي بينهم مسألة إجماع، لا مسألة نزاع.

قالوا: ومن تأمل قوله -سبحانه وتعالى- : ﴿**وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا**﴾ [الإسراء: 32].

وقوله فى اللواط: ﴿**أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأعراف:80].

تبين له تفاوت ما بينهما، وأنه سبحانه نكر الفاحشة في الزنى، أي: هو فاحشة من الفواحش، وعرفها في اللواط، وذلك يفيد أنه جامع لمعانى اسم الفاحشة، كما تقول: زيد الرجل، ونعم الرجل زيد، أي: أتأتون الخصلة التى استقر فحشها عند كل أحد، وهي لظهور فحشها وكماله غنية عن ذكرها، بحيث لا ينصرف الاسم إلى غيرها، وهذا نظير قول فرعون لموسى: ﴿**وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ**﴾ [الشعراء: 19] أي: الفعلة الشنعاء الظاهرة المعلومة لكل أحد.

ثم أكد سبحانه شأن فحشها بأنها لم يعملها أحد من العالمين قبلهم، فقال: ﴿**مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأعراف: 80]، ثم زاد في التأكيد بأن صرح بما تشمئز منه القلوب وتنبو عنه الأسماع، وتنفر منه الطباع أشد نفرة، وهو إتيان الرجل رجلاً مثله ينكحه كما ينكح الأنثى، فقال: ﴿**إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ**﴾ [الأعراف: 81]، ثم نبه على استغنائهم عن ذلك، وأن الحامل لهم عليه ليس إلا مجرد الشهوة لا الحاجة التي لأجلها مال الذكر إلى الأنثى، من قضاء الوطر، ولذة الاستمتاع، وحصول المودة والرحمة التي تنسى المرأة لها أبويها

(1) صحيح : رواه أحمد (2812) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع (5112) والمنذرى فى الترغيب والترهيب.

وتذكر بعلها، وحصول النسل الذى هو حفظ هذا النوع الذى هو أشرف المخلوقات، وتحصين المرأة وقضاء وطرها، وحصول علاقة المصاهرة التي هى أخت النسب، وقيام النساء على الرجال، وخروج أحب الخلق إلى الله من جماعهن كالأنبياء والأولياء والمؤمنين، ومكاثرة النبى ﷺ الأنبياء بأمته، إلى غير ذلك من مصالح النكاح، والمفسدة التي في اللواط تقاوم ذلك كله، وتربى عليه بما لا يمكن حصر فساده، ولا يعلم تفصيله إلا الله.

ثم أكد قبح ذلك بأن اللوطية عكسوا فطرة الله التى فطر الله عليها الرجال، وقلبوا الطبيعة التى ركبها الله في الذكور، وهي شهوة النساء دون الذكور، فقلبوا الأمر، وعكسوا الفطرة والطبيعة، فأتوا الرجال شهوة من دون النساء ولهذا قلب الله سبحانه عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها، وكذلك قلبوا هم، ونكسوا في العذاب على رؤوسهم.

ثم أكد -سبحانه- قبح ذلك بأن حكم عليهم بالإسراف وهو مجاوزة الحد، فقال: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف:81] فتأمل هل جاء مثل ذلك أو قريب منه في الزني؟.

وأكد سبحانه ذلك عليهم بقوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأنبياء: 74].

ثم أكد سبحانه عليهم الذم بوصفين فى غاية القبح، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ [الأنبياء:74]، وسماهم مفسدين فى قول نبيهم: ﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت:30]، وسماهم ظالمين فى قول الملائكة لإبراهيم: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [العنكبوت:31] فتأمل من عوقب بمثل هذه العقوبات، ومن ذمه الله بمثل هذه المذمات، ولما جادل فيهم خليله إبراهيم الملائكة وقد أخبروه بإهلاكهم، قيل له: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: 76].

وتأمل خبث اللوطية وفرط تمردهم على الله حيث جاءوا نبيهم لوطاً لما سمعوا بأنه قد طرقه أضياف، هم من أحسن البشر صوراً، فأقبل اللوطية إليه يهرولون، فلما رآهم قال لهم: ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود:78]، ففدى أضيافه ببناته يزوجهم بهن خوفاً على نفسه وأضيافه من العار الشديد، فقال: ﴿يَا قَوْمِ

﴿هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: 78]، فردوا عليه، ولكن رد جبار عنيد: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾[هود: 79]، فنفث نبى الله نفثة مصدور، خرجت من قلب مكروب، فقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[هود:80]، فنفس له رسل الله، وكشفوا له عن حقيقة الحال، وأعلموه أنهم ليسوا ممن يوصل إليهم، ولا إليه بسببهم، فلا تخف منهم ولا تعبأ بهم، وهون عليك، فقالوا: ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾[هود: 81]، وبشروه بما جاءوا به من الوعد له ولقومه من الوعيد المصيب، فقالوا: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[هود:81]، فاستبطأ نبى الله موعد هلاكهم وقال: أريد أعجل من هذا، فقالت الملائكة: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[هود:81]، فوالله ما كان بين إهلاك أعداء الله ونجاة نبيه وأوليائه إلا ما بين السحر وطلوع الفجر، وإذا بديارهم قد اقتلعت من أصولها، ورفعت نحو السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب ونهيق الحمير، فبرز المرسوم الذى لا يرد عن الرب الجليل، إلى عبده ورسوله جبرائيل، بأن يقلبها عليهم كما أخبر به محكم التنزيل، فقال عز من قائل: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود:82]، فجعلهم آية للعالمين، وموعظة للمتقين، ونكالاً وسلفاً لمن شاركهم فى أعمالهم من المجرمين،وجعل ديارهم بطريق السالكين، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (75) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (76) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:75-77]، أخذهم على غرة، وهم نائمون، وجاءهم بأسه وهم فى سكرتهم يعمهون، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، فقلبت تلك اللذات آلاماً، فأصبحوا بها يعذبون.

مآرب كانت فى الحياة لأهلها عذابا فصارت فى الممات عَذاباً

ذهبت اللذات، وأعقبت الحسرات، وانقضت الشهوات، وأورثت الشقوات، تمتعوا قليلاً، وعذبوا طويلاً، رتعوا مرتعاً وخيماً، فأعقبهم عذاباً أليماً، أسكرتهم خمرة تلك الشهوة، فما استفاقوا منها إلا فى ديار المعذبين، وأرقدتهم تلك الغفلة فما استيقظوا منها إلا وهم في منازل الهالكين، فندموا والله أشد الندامة حين لا ينفع الندم، وبكوا على ما أسلفوا بدل الدموع بالدم، فلو رأيت الأعلى والأسفل

من هذه الطائفة، والنار تخرج من منافذ وجوههم وأبدانهم وهم بين أطباق الجحيم، وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كؤوس الحميم، ويقال لهم وهم على وجوههم يُسحبون: ذوقوا ما كنتم تكسبون.

﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور:16].

وقد قرب الله مسافة العذاب بين هذه الأمة وبين إخوانهم في العمل، فقال مخوفاً لهم أن يقع الوعيد:﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:83].

فيا ناكحي الذكران يَهْنيكُم البشرى ... فيوم معاد الناس إن لكم أجراً
كلوا واشربوا وازنوا ولُوطُوا وأبشروا ... فإن لكم زفا إلى الجنة الحمرا
فإخوانكم قد مهدوا الدار قبلكم ... وقالوا إلينا عَجِّلوا، لكم البُشْرى
وها نحن أسلاف لكم في انتظاركم ... سيجمعنا الجبار في ناره الكبرى
فلا تحسبوا أن الذين نَكَحْتُمُو ... يغيبون عنكم، بل تَرَوْنَهُمَ جهرا
ويلعن كُلٌّ منكما لخليله ... ويشقى به المحزون في الكَرَّةِ الأخرى
يُعَذَّبُ كُلا منهما بشريكه ... كما اشتركا في لذة توجب الوِزْرَا

فصل

عقوبة اللواط وعقوبة الزنى

في الأجوبة عما احتج به من جعل عقوبة هذه الفاحشة دون عقوبة الزنى.

أما قولهم: إنها معصية لم يجعل الله فيها حداً معيناً، فجوابه من وجوه.

أحدها: أن المبلغ عن الله جعل حد صاحبها القتل حتماً، وما شرعه رسول الله ﷺ فإنما شرعه عن الله، فإن أردتم أن حدها غير معلوم بالشرع فهو باطل، وإن أردتم أنه غير ثابت بنص الكتاب لم يلزم من ذلك انتفاء حكمه لثبوته بالسنة.

والثاني: أن هذا ينقض عليكم بالرجم، فإنه إنما ثبت بالسنة.

فإن قلتم: بل ثبت بقرآن نسخ لفظه وبقي حكمه.

قلنا: فينقض عليكم بحد شارب الخمر.

والثالث: أن نفي دليل معين لا يستلزم نفي مطلق الدليل ولا نفي المدلول، فكيف وقد قدمنا أن الدليل الذى نفيتموه غير منتف؟

وأما قولكم: إنه وطء فى محل لا تشتهيه الطباع، بل ركب الله الطباع على النفرة منه فهو كوطء الميتة والبهيمة، فجوابه من وجوه:

أحدها: أنه قياس فاسد الاعتبار، مردود بسنة رسول الله ﷺ وإجماع الصحابة، كما تقدم بيانه.

والثانى: أن قياس وطء الأمرد الجميل الذى فتنته تربو على كل فتنة، على وطء أتان أو امرأة ميتة من أفسد القياس، وهل يعدل ذلك أحد قط بأتان أو بقرة أو ميتة، أو سبى ذلك عقل عاشق، أو أسر قلبه، أو استولى على فكره ونفسه؟ وليس فى القياس أفسد من هذا.

الثالث: أن هذا منتقض بوطء الأم، والبنت، والأخت، فإن النفرة الطبيعية عنه حاصلة مع أن الحد فيه من أغلظ الحدود -فى أحد القولين- وهو القتل بكل حال محصناً كان أو غير محصن، وهذا إحدى الروايتين عن أحمد، وهو قول إسحاق بن راهويه، وجماعة من أهل الحديث.

وقد روى أبو داود والترمذى من حديث البراء بن عازب، قال: «لقيت عمى ومعه الراية، فقلت: إلى أين تريد؟ قال: بعثنى رسول الله ﷺ إلى رجل نكح امرأة أبيه من بعده أن أضرب عنقه وآخذ ماله»، قال الترمذى: هذا حديث حسن[1]، قال الجوزجانى: عم البراء اسمه الحارث بن عمرو.

وفي سنن أبى داود وابن ماجه من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**من وقع على ذات محرم فاقتلوه**»[2].

ورفع إلى الحجاج رجل اغتصب أخته على نفسها، فقال: احبسوه وسلوا من هاهنا من أصحاب رسول الله ﷺ فسألوا عبد الله بن مطرف، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من تخطى حرم المؤمنين فخطوا وسطه بالسيف**»[3].

---

(1) صحيح : رواه الترمذي (1362) في الأحكام، وأبو داود (4457) وابن ماجه (2607) في الحدود، والنسائي (3331) (3332) وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(2) ضعيف : رواه الترمذي (1462) في الحدود، وابن ماجه(2564) في الحدود وانظر ضعيف الجامع (5878) والإرواء (2352).

(3) منكر : أخرجه العقيلى (2/ 201) وابن عدى (3/ 175) والبيهقى فى الشعب (4/ 379) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (5515) والضعيفة (4572) وقال الألبانى فى الضعيفة: عبد الله بن مطرف خطأ والصواب عبد الله بن أبى مطرف.

وفيه دليل على القتل بالتوسيط، وهذا دليل مستقل في المسألة، وهو أن من لا يباح وطؤه بحال فحد وطئه القتل، دليله: من وقع على أمه أو ابنته، وكذلك يقال فى وطء ذوات المحارم، ووطء من لا يباح له وطؤه بحال، وكان حده القتل كاللوطى.

والتحقيق: أن يستدل على المسألتين بالنص، والقياس يشهد لصحة كل منهما، وقد اتفق المسلمون على أن من زنى بذات محرمه فعليه الحد، وإنما اختلفوا في صفة الحد، هل هو القتل بكل حال، أو حده حد الزانى؟ على قولين:

فذهب الشافعى ومالك وأحمد -فى إحدى روايتيه- أن حده حد الزانى.

وذهب أحمد، وإسحاق، وجماعة من أهل الحديث إلى أن حده القتل بكل حال.

وكذلك اتفقوا كلهم على أنه لو أصابها باسم النكاح عالماً بالتحريم أنه يحد، إلا أبا حنيفة وحده، فإنه رأى فى ذلك شبهة مسقطة للحد.

ومنازعوه يقولون: إذا أصابها باسم النكاح فقد زاد الجريمة غلظاً وشدة، فإنه ارتكب محذورين عظيمين: محذور العقد، ومحذور الوطء، فكيف تخفف عنه العقوبة بضم محذور العقد إلى محذور الزنى؟

وأما وطء الميتة ففيه قولان للفقهاء، وهما فى مذهب أحمد وغيره.

أحدهما: يجب به الحد، وهو قول الأوزاعى، فإن فعله أعظم جرماً وأكبر ذنباً، وانضم إلى فاحشته هتك حرمة الميت.

فصل

واطئ البهيمة

وأما واطئ البهيمة فللفقهاء فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه يؤدب، ولا حد عليه، وهذا قول مالك، وأبى حنيفة والشافعى فى أحد قوليه، وقول إسحاق.

والقول الثانى: حكمه حكم الزانى، يجلد إن كان بكراً، ويرجم إن كان محصناً، وهذا قول الحسن.

والقول الثالث: أن حكمه حكم اللوطى، نص عليه أحمد، فيخرج على الروايتين فى حده، هل هو القتل حتماً أو هو كالزانى؟.

والذين قالوا: حده القتل، احتجوا بما رواه أبو داود من حديث ابن عباس عن النبى ﷺ : «**من أتى بهيمة فاقتلوه، واقتلوها معه**»[1].

قالوا: ولأنه وطء لا يباح بحال، فكان فيه القتل كحد اللوطى.

ومن لم ير عليه حداً قالوا: لم يصح فيه الحديث، ولو صح لقلنا به، ولم يحل لنا مخالفته.

قال إسماعيل بن سعيد الشالنجى: سألت أحمد عن الذى يأتي البهيمة، فوقف عندها، ولم يثبت حديث عمرو بن أبى عمرو فى ذلك.

وقال الطحاوى: الحديث ضعيف، وأيضاً فراويه ابن عباس، وقد أفتى به لا حد عليه، قال أبو داود: وهذا يضعف الحديث.

ولا ريب أن الزاجر الطبعي عن إتيان البهيمة أقوى من الزاجر الطبعى عن التلوط، وليس الأمر أنهما فى طباع الناس سواء، فإلحاق أحدهما بالآخر من أفسد القياس كما تقدم.

فصل

اللواط والسحاق

وأما قياسكم وطء الرجل لمثله على تدالك المرأتين، فمن أفسد القياس، إذ لا إيلاج هناك، وإنما نظيره مباشرة الرجل الرجل من غير إيلاج، على أنه قد جاء فى بعض الآثار المرفوعة: «**إذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان**»[2]، ولكن لا يجب الحد بذلك، لعدم الإيلاج، وإن أطلق عليها اسم الزنى العام، كزنى العين واليد والرجل والفم.

---

(1) حسن صحيح : رواه الترمذي (1455) في الحدود، وأبو داود (4464) في الحدود وقال الألباني حسن صحيح، وانظر صحيح أبي داود.

(2) ضعيف جداً . رواه البيهقي (8/ 233) والمقاصد الحسنة (556) وانظر كشف الخفاء للعجلوني (1467).

إذا ثبت هذا: فأجمع المسلمون على أن حكم التلوط مع المملوك كحكمه مع غيره، ومن ظن أن تلوط الإنسان بمملوكه جائز، واحتج على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المعارج:30]، وقاس ذلك على أمته المملوكة - فهو كافر، يستتاب كما يستتاب المرتد، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، وتلوط الإنسان بمملوكه كتلوطه بمملوك غيره فى الإثم والحكم.

فصل

دواء اللواط

فإن قيل: وهل مع هذا كله دواء لهذا الداء العضال؟ ورقية لهذا السحر القتال؟ وما الأحتيال لدفع هذا الخبال؟ وهل من طريق قاصد إلى التوفيق؟ وهل يمكن السكران من خمر الهوى أن يفيق؟ وهل يملك العاشق قلبه والعشق قد وصل إلى سويدائه؟ وهل للطبيب بعد ذلك حيلة في برئه من سويدائه؟ إن لامه لائم التذ بملامه ذكراً لمحبوبه، وإن عذله عاذل أغراه عذله، وسار به فى طريق مطلوبه، ينادي عليه شاهد حاله بلسان مقاله:

وَقَفَ الهوى بى حَيثُ أنتَ، فَلَيسَ لي مُتَأَخَّـر عنـه ولا مُتقـدَّم

وأهَنْتَني فَأهَنْتَ نفـسي جاهـداً ما مَنْ يَهُونُ علـيك ممن يكَـرَّمُ

أشبهتَ أعدائي، فصرت أحبهـم إذ كان حظي منك حظي منهـم

أجد الملامـة في هـواك لذيـذة حبـاً لذكـرِكَ، فَلْيَلُمْني اللُّـوَّمُ

ولعل هذا هو المقصود بالسؤال الأول الذى وقع عليه الاستفتاء، والداء الذى طلب له الدواء.

فصل

طرف دواء اللواط

قيل: نعم، الجواب من رأس «**ما أنزل الله من داء إلا جعل له دواء علمه من علمه وجهله من جهله**».

والكلام في دواء هذا الداء من طريقين:

أحدهما: حسم مادته قبل حصولها.

والثاني: قلعها بعد نزوله، وكلاهما يسير على من يسره الله عليه، ومتعذر على من لم يعنه الله، فإن أزمة الأمور بيديه.

فأما الطريق المانع من حصول هذا الداء، فأمران:

منافع غض البصر

أحدهما: غض البصر كما تقدم، فإن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، ومن أطلق لحظاته دامت حسراته، وفي غض البصر عدة منافع:

أحدها: أنه امتثال لأمر الله الذى هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده، فليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربه تبارك وتعالى، وما سعد من سعد في الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامره، وما شقى من شقى في الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره.

الثانية: أنه يمنع من وصول أثر السهم المسموم- الذى لعل فيه هلاكه- إلى قلبه.

الثالثة: أنه يورث القلب أنساً بالله وجمعية عليه، فإن إطلاق البصر يفرق القلب ويشتته، ويبعده عن الله، وليس على القلب شئ أضر من إطلاق البصر، فإنه يوقع الوحشة بين العبد وبين ربه.

الرابعة: أنه يقوى القلب ويفرحه، كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه.

الخامسة: أنه يكسب القلب نوراً، كما أن إطلاقه يكسبه ظلمة، ولهذا ذكر الله سبحانه آية النور عقيب الأمر بغض البصر، قال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور:30].

ثم قال إثر ذلك: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور:35]، أى: مثل نوره فى قلب عبده المؤمن الذى امتثل أوامره واجتنب نواهيه، وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات عليه من كل ناحية، كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان، فما شئت من بدع وضلالة، واتباع هوى، واجتناب هدى، وإعراض عن أسباب السعادة، واشتغال بأسباب الشقاوة، فإن ذلك إنما يكشفه له النور الذى فى القلب، فإذا نفذ ذلك النور بقى صاحبه كالأعمى الذى يجوس فى حنادس الظلمات.

السادسة: أنه يورث فراسة صادقة يميز بها بين الحق والباطل، والصادق والكاذب، وكان شجاع الكرماني يقول: من عمر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشبهات، واغتذى بالحلال -لم تخطئ له فراسة. وكان شجاع هذا لا تخطئ له فراسة.

والله سبحانه يجزي العبد على عمله بما هو من جنس عمله، ومن ترك لله شيئاً عوضه الله خيراً منه، فإذا غض بصره عن محارم الله، عوضه الله بأن يطلق نور بصيرته عوضاً عن حبس بصره لله، ويفتح عليه باب العلم والإيمان، والمعرفة والفراسة الصادقة المصيبة التى إنما تنال ببصيرة القلب، وضد هذا ما وصف الله به اللوطية من العمه الذى هو ضد البصيرة فقال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[الحجر: 72]، فوصفهم بالسكرة التى هي فساد العقل، والعمه الذى هو فساد البصيرة، فالتعلق بالصور يوجب فساد العقل، وعمه البصيرة، وسكر القلب، كما قال القائل:

سُكْرَان: سُكْرُ هوى، وسُكْرُ مُدَامَةٍ — ومتـى إفاقـة من به سُكْـرَانِ؟

وقال الآخر:

قالـوا: جُنِنْتَ بمن تهوى فقلت لهم: — العشـق أعظم مما بالمجانـين

العشق لا يَسْتَفِيـقُ الدَّهْـرَ صاحبـه — وإنما يُصْرَعُ المجنـون في الحـين

السابعة: أنه يورث القلب ثباتاً، وشجاعة، وقوة، فجمع الله له بين سلطان النصرة والحجة، وسلطان القدرة والقوة، كما فى الأثر «الذى يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله».

وضد هذا تجد في المتبع لهواه -من ذل النفس، ووضاعتها، ومهانتها، وخستها، وحقارتها -ما جعله الله سبحانه فيمن عصاه.

كما قال الحسن: «إنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين، إن ذل العصية في رقابهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه».

وقد جعل الله سبحانه العز قرين طاعته، والذل قرين معصيته، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون:8]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:139].

والإيمان قول وعمل، ظاهر وباطن، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر:10]، أي من كان يريد العزة فليطلبها بطاعة الله. وذكره من الكلم الطيب، والعمل الصالح.

وفي دعاء القنوت: «**إنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت**».[1]

ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه، وله من العز، بحسب طاعته، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه، وله من الذل بحسب معصيته.

الثامنة: أنه يسد على الشيطان مدخله إلى القلب، فإنه يدخل مع النظرة، وينفذ معها إلى القلب أسرع من نفوذ الهواء في المكان الخالي، فيمثل له صورة المنظور إليه ويزينها، ويجعلها صنماً يعكف عليه القلب ثم يعده ويمنيه ويوقد على القلب نار الشهوة، ويلقي عليه حطب المعاصي التي لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة، فيصير القلب في اللهيب.

فمن ذلك اللهيب تلك الأنفاس التي يجد فيها وهج النار، وتلك الزفرات والحرقات، فإن القلب قد أحاطت به النيران من كل جانب، فهو في وسطها كالشاة في وسط التنور، ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات للصور المحرمة: أن جعل لهم في البرزخ تنور من نار، وأودعت أرواحهم فيه إلى يوم حشر أجسادهم، كما أراه الله تعالى لنبيه ﷺ في المنام في الحديث المتفق على صحته[2].

التاسعة: أنه يفرغ القلب للفكرة في مصالحه والاشتغال بها، وإطلاق البصر ينسيه ذلك ويحول بينه وبينه، فينفرط عليه أمره، ويقع في اتباع هواه، وفي الغفلة عن ذكر ربه، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:28] وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه.

---

(1) صحيح: رواه الترمذي (464) في أبواب الصلاة، وأبو داود (1425) في الصلاة والنسائي (1745،1746) في قيام الليل، وابن ماجه (1178) في إقامة الصلاة وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(2) صحيح: رواه البخاري (7047) في التعبير، ومسلم (2275) في تعبير الرؤيا.

العـاشـرة:أن بين العين والقلب منفـذاً وطريقاً يـوجب انتقـال أحـدهمـا عن الآخر، وأن يصلح بصلاحه، ويفسد بفساده، فإذا فسد القلب فسد النظر، وإذا فسد النظر فسد القلب، وكذلك في جانب الصلاح، فإذا خربت العين وفسدت خرب القلب وفسد، وصار كالمزبلة التي هي محل النجاسات، والقاذورات، والأوساخ، فلا يصلح لسكنى معرفة الله، ومحبته، والإنابة إليه، والأنس به، والسرور بقربة فيه، وإنما يسكن فيه أضداد ذلك.

فهذه إشارة إلى بعض فوائد غض البصر تطلعك على ما وراءها.

منـــع تعلـق القـــلب

الطريق الثاني المانع من حصول تعلق القلب: اشتغال القلب بما يبعده عن ذلك، ويحول بينه وبين الوقوع فيه، وهو إما خوف مقلق، أو حب مزعج، فمتى خلا القلب من خوف ما فواته أضرّ عليه من حصول هذا المحبوب، أو خوف ما حصوله أضر عليه من فوات هذا المحبوب، أو محبته ما هو أنفع له وخير له من هذا المحبوب، وفواته أضر عليه من فوات هذا المحبوب -لم يجد بداً من عشق الصور.

وشرح هذا: أن النفس لا تترك محبوباً إلا لمحبوب أعلى منه أو خشية مكروه حصوله أضرّ عليها من فوات هذا المحبوب، وهذا يحتاج صاحبه إلى أمرين إن فقدهما أو أحدهما لم ينتفع بنفسه:

أحدهما:بصيرة صحيحة يفرق بها بين درجات المحبوب والمكروه، فيؤثر أعلى المحبوبين على أدناهما، ويحتمل أدنى المكروهين؛ ليخلص من أعلاهما، وهذا خاصة العقل، ولا يُعَدُّ عاقلاً من كان بضدّ ذلك، بل قد تكون البهائم أحسن حالاً منه.

الثاني:قوة عزم، وصبر يتمكن به من هذا الفعل والترك، فكثيراً ما يعرف الرجل قدر التفاوت، ولكن يأبى له ضعف نفسه، وهمته، وعزيمته على أشياء لا تنفع من خسته، وحرصه ووضاعة نفسه وخسة همته، ومثل هذا لا ينتفع بنفسه، ولا ينتَفع به غيره، وقد منع الله سبحانه إمامة الدين إلا من أهل الصبر واليقين، فقال تعالى، وبقوله يهتدى المهتدون منهم: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا

صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:24]، وهذا هو الذي ينتفع بعلمه، وينتفع به الناس، وضده لا ينتفع بعلمه، ولا ينتفع به غيره، ومن الناس من ينتفع بعلمه في نفسه ولا ينتفع به غيره، فالأول يمشي في نوره ويمشي الناس في نوره، والثاني قد طفئ نوره، فهو يمشي في الظلمات ومن تبعه في ظلمته، والثالث يمشي في نوره وحده.

فصل

توحيد المحبوب

إذا عرفت هذه المقدمة فلا يمكن أن يجتمع في القلب حب المحبوب الأعلى، وعشق الصور أبداً، بل هما ضدان لا يتلاقيان، بل لابد أن يخرج أحدهما صاحبه. فمن كانت قوة حبه كلها للمحبوب الأعلى الذي محبة ما سواه باطلة، وعذاب على صاحبها -صرفه ذلك عن محبة ما سواه، وإن أحبه لم يحبه إلا لأجله، أو لكونه وسيلة إلى محبته، أو قاطعاً له عما يضادّ محبته وينقصها، والمحبة الصادقة تقتضي توحيد المحبوب، وأن لا يشرك بينه وبين غيره في محبته، وإذا كان المحبوب من الخلق يأنف ويغار أن يشرك معه محبة غيره في محبته، ويمقته لذلك، ويبعده ولا يحظيه بقربه، ويعدّه كاذباً في دعوى محبته، مع أنه ليس أهلاً لصرف كلّ قوة المحبة إليه- فكيف بالحبيب الأعلى الذي لا تنبغي المحبة إلا له وحده، وكل محبة لغيره فهي عذاب على صاحبها ووبال؟ ولهذا لا يغفر الله سبحانه أن يشرك به في هذه المحبة، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

فمحبة الصور تفوّت محبة ما هو أنفع للعبد منها، بل تفوق محبة ما ليس له صلاح ولا نعيم، ولا حياة نافعة إلا بمحبته وحده، فليختر العبد إحدى المحبتين، فإنهما لا يجتمعان في القلب ولا يرتفعان منه، بل مَنْ أعرض عن محبة الله وذكره والشوق إلى لقائه ابتلاه بمحبة غيره؛ فيعذبه بها في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة، فإمّا أن يعذبه بمحبة الأوثان، أو بمحبة الصُّلبان، أو المردان، أو محبة النيران، أو محبة النسوان، أو محبة الإماء، أو محبة العشراء والإخوان، أو محبة ما دون ذلك مما هو في غاية الحقارة والهوان؛ فالإنسان عبد محبوبه كائناً من كان، كما قيل:

أنتَ الْقَتِــيلُ بكُلِّ مَــنْ أحْبَبْـــتَهُ   فَاخْتَرْ لنَفْسكَ فى الْهَوَى مَنْ تَصْطَفي

فمن لم يكن إلهه مالكه ومولاه، كان إلهه هواه، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:23].

فصل

خاصية التعبد

وخاصية التعبد: الحب مع الخضوع، والذل للمحبوب، فمن أحب محبوباً وخضع له فقد تعبد قلبه له، بل التعبد أحد مراتب الحب، ويقال له: التتيم أيضاً، فإن أول مراتبه العلاقة، وسميت علاقة لتعلق المحب بالمحبوب، قال الشاعر:

وَعَلقْتُ لَيْلَى وهى ذات تمائــم   ولم يبد للأتراب من ثديهـــا حَجْمُ

وقال الآخر:

أعــلاقـــة أم الوليــد بعـــد مـــا   أفْنَـــانُ رَأْســـك كَالثَّغَامِ الْمَخلَّسِ

ثم بعدها الصبابة، وسميت بذلك لانصباب القلب إلى المحبوب، قال الشاعر:

تشكــى المحبون الصَّبَابة، ليتنى   تَحَمَّلْتُ ما يَلْقَونَ منْ بينهم وَحْدى

فكانت لقلبى لَـذَّةُ الحب كلهـا   فلم يلقها قبلى مُحبٌّ ولا بَعْــدى

ثم الغرام، وهو لزوم الحب للقلب لزوماً لا ينفك عنه، ومنه سمى الغريم غريماً، لملازمته صاحبه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان:65] وقد أولع المتأخرون باستعمال هذا اللفظ فى الحب، وقل أن تجده فى أشعار العرب.

ثم العشق وهو إفراط المحبة، ولهذا لا يوصف به الرب سبحانه، ولا يطلق فى حقه.

ثم الشوق وهو سفر القلب إلى المحبوب أحث السفر، وقد جاء إطلاقه فى حق الرب تعالى كما فى «مسند الإمام أحمد» من حديث عمار بن ياسر: أنه صلى صلاة فأوجز فيها، فقيل له فى ذلك، فقال: أما إنى دعوت فيها بدعوات كان النبى عليه الصلاة والسلام يدعو بهن: «**اللهم إنى أسألك بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحينى إذاكانت الحياة خيراً لي، وتوفنى إذا كانت الوفاة**

خيراً لي، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغني، وأسألك نعيماً لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»[١].

وفي أثر آخر: «طال شوق الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً».

وهذا هو المعنى الذي عبر عنه ﷺ بقوله: **«من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه»**[٢].

وقال بعض أهل البصائر في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾[العنكبوت:5].

لما علم الله سبحانه شدة شوق أوليائه إلى لقائه، وأن قلوبهم لا تهتدي دون لقائه -ضرب لهم أجلاً وموعداً للقائه، تسكن نفوسهم به.

وأطيب العيش وألذه على الإطلاق عيش المحبين المشتاقين المستأنسين، فحياتهم هي الحياة الطيبة في الحقيقة، ولا حياة للقلب أطيب ولا أنعم ولا أهنأ منها، وهي الحياة الطيبة في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[النحل:97] ليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين، والكفار، والأبرار، والفجار، من طيب المأكل، والملبس، والمشرب، والمنكح، بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه في ذلك أضعافاً مضاعفة، وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحاً أن يحييه حياة طيبة، وهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده، وأي حياه أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت هما واحداً في مرضاة الله؟ ولم يتشعب قلبه، بل أقبل على الله، واجتمعت إرادته وأفكاره التي كانت متقسمة بكل واد منها شعبة على الله، فصار ذكر محبوبه الأعلى، وحبه، والشوق إلى لقائه، والأنس بقربه، هو المستولي عليه، وعليه تدور همومه،

(1) صحيح: رواه النسائي (1305) وأحمد في المسند (17859) وصححه الألباني في صحيح النسائي.

(2) صحيح: رواه البخاري (6507) ومسلم (2683) في الذكر والدعاء، والترمذي(1066) في الجنائز، وابن ماجه (4264) في الزهد، وأحمد في المسند (22188).

وإرادته، وقصوده بل خطرات قلبه، فإن سكت سكت بالله، وإن نطق نطق بالله، وإن سمع فبه يسمع، وإن بصر فبه يبصر، وبه يبطش، وبه يمشي، وبه يتحرك، وبه يسكن، وبه يحيى، وبه يموت، وبه يبعث، كما في «صحيح البخاري» عنه ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «**ما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، فبى يسمع، وبى يبصر، وبى يبطش، وبى يمشي، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه، وما ترددت فى شيء أنا فاعله، كترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت، وأكره مساءته، ولا بد له منه**»[1].

فتضمن هذا الحديث الشريف الإلهي، الذى حرام على غليظ الطبع كثيف القلب فهم معناه، والمراد به -حصر أسباب محبته فى أمرين: أداء فرائضه، والتقرب إليه بالنوافل، وأخبر سبحانه أن أداء فرائضه أحب ما يتقرب به إليه المتقربون، ثم بعدها النوافل، وأن المحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوباً لله، فإذا صار محبوباً لله أوجبت محبة الله له محبة أخرى منه لله فوق المحبة الأولى، فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه، وملكت عليه روحه، ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه ألبتة، فصار ذكر محبوبه وحبه ومثله الأعلى مالكاً لزمام قلبه مستولياً على روحه استيلاء المحبوب على محبة الصادق فى محبته، التى قد اجتمعت قوى محبة حبه كلها له.

ولا ريب أن هذا المحب إن سمع سمع بمحبوبه، وإن أبصر أبصر به، وإن بطش بطش به، وإن مشى مشى به، فهو فى قلبه ومعه وأنيسه وصاحبه، فالباء هاهنا للمصاحبة، وهى مصاحبة لا نظير لها، ولا تدرك بمجرد الإخبار عنها والعلم بها، فالمسألة حالية لا علمية محضة.

وإذا كان المخلوق يجد هذا فى محبة المخلوق التى لم يخلق لها ولم يفطر عليها، كما قال بعض المحبين:

خيالك فى عيني، وذكرك فى فمى ... ومثواك في قلبى، فأين تغيب؟

(1) صحيح: رواه البخاري (6502) في الرقاق.

وقال الآخر:

ومن عَجَبٍ أني أحنّ إليهم … فأسأل عنهم من لَقِيْتُ، وهم معي

وتطلبهم عيني، وهم في سوادها … ويشتاقُهم قلبي، وهُم بين أضلُعي

وهذا ألطف من قول الآخر:

إن قُلْتُ: غِبْتَ، فقلبي لا يُصَدِّقُني … إذ أنت فيه مكان السِّرِّ لم تغبِ

أو قلت: ما غِبْتَ، قال الطَّرْفُ: ذا كَذِب … فقد تحيرت بين الصدق والكذبِ

فليس شئ أدنى إلى المحب من محبوبه، وربما تمكنت منه المحبة، حتى يصير أدنى إليه من نفسه، بحيث ينسى نفسه ولا ينساه، كما قال:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما … تمثل لي لَيْلَى بكُلِّ سبيل

وقال آخر:

يراد من القلب نسْيَانكُم … وتأبى الطباع على الناقل

وخص في الحديث السمع، والبصر، واليد، والرجل بالذكر، فإن هذه الآلات آلات الإدراك وآلات الفعل، والسمع والبصر يوردان على القلب الإرادة والكراهة، ويجلبان إليه الحب والبغض، فيستعمل اليد والرجل، فإذا كان سمع العبد بالله، وبصره بالله كان محفوظاً في آلات إدراكه، وكان محفوظاً في حبه وبغضه، فحفظ في بطشه ومشيه.

وتأمل كيف اكتفى بذكر السمع، والبصر، واليد، والرجل عن اللسان فإنه إذا كان إدراك السمع الذي يحصل باختياره تارة وبغير اختياره تارة، وكذلك البصر قد يقع بغير الاختيار فجأة، وكذلك حركة اليد والرجل التي لابد للعبد منهما. فكيف بحركة اللسان التي لا تقع إلا بقصد واختيار؟ وقد يستغني العبد عنها إلا حيث أمر بها.

وأيضاً فانفعال اللسان عن القلب أتم من انفعال سائر الجوارح، فإنه ترجمانه ورسوله.

وتأمل كيف حقق تعالى كون العبد به سمعه، وبصره، وبطشه، ومشيه بقوله: **«كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله**

التي يمشي بها» تحقيقاً لكونه مع عبده، وكون عبده به في إدراكاته بسمعه وبصره وحركاته بيده ورجله.

وتأمل كيف قال **«فبي يسمع، وبي يبصر»** ولم يقل: فلي يسمع ولي يبصر. وربما يظن الظان أن اللام أولى بهذا الموضع؛ إذ هي أدل على الغاية ووقوع هذه الأمور لله، وذلك أخص من وقوعها به، وهذا من الوهم والغلط؛ إذ ليست الباء ههنا لمجرد الاستعانه؛ فإن حركات الأبرار، والفجار، وإدراكاتهم إنما هي بمعونة الله لهم، وإنما الباء هاهنا للمصاحبة، أي إنما يسمع، ويبصر، ويبطش، ويمشي وأنا صاحبه ومعه،كقوله في الحديث الآخر: **«أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»**[1] وهذه هي المعية الخاصة في قوله تعالى: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة:40] وقول النبي: **«ما ظنك باثنين الله ثالثهما»**[2] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت:69] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[النحل:128] قوله: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[الأنفال:46] وقوله: ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[الشعراء:62] وقوله تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾[طه:46].

فهذه الباء مقيدة لمعني هذه المعية دون اللام، ولا يتأتى للعبد الإخلاص، والصبر، والتوكل، ونزوله في منازل العبودية إلا بهذه الباء وهذه المعية.

فمتى كان العبد بالله هانت عليه المشاق، وانقلبت عليه المخاوف في حقه أماناً، فبالله يهون كل صعب، ويسهل كل عسير ويقرب كل بعيد، وبالله تزول الهموم، والغموم، والأحزان، فلا هم مع الله، ولا غم ولا حزن إلا حيث يفوته معنى هذه الباء، فيصير قلبه حينئذ كالحوت، إذا فارق الماء يثب وينقلب حتى يعود إليه.

ولما حصلت هذه الموافقة من العبد لربه في محابه حصلت موافقة الرب لعبده في حوائجه ومطالبه؛ فقال: **«ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»** أي

---

(1) صحيح: رواه أحمد في المسند (10585) وابن ماجه (3792) في الأدب، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (3074).

(2) صحيح: رواه البخاري (3653) في فضائل القرآن، (4663) في تفسير القرآن، ومسلم (2381) في فضائل الصحابة، وأحمد في المسند (12).

كما وافقني في مرادي بامتثال أوامري، والتقرب إلى بمحابي، فأنا أوافقه في رغبته ورهبته فيما يسألني أن أفعله به ويستعيذني أن يناله، وقوى أمر هذه الموافقة من الجانبين حتى اقتضى ذلك تردد الرب سبحانه في إماتة عبده لأنه يكره الموت والرب تعالى يكره ما يكرهه عبده ويكره مساءته، فمن هذه الجهة يقتضى أن لا يميته ولكن مصلحته في إماتته، فإنه ما أماته إلا ليحييه، ولا أمرضه إلا ليصحه، ولا أفقره إلا ليغنيه، ولا منعه إلا ليعطيه، ولم يخرجه من الجنة في صلب أبيه إلا ليعيده إليها، على أحسن أحواله، ولم يقل لأبيه: اخرج منها إلا وهو يريد أن يعيده إليها، فهذا هو الحبيب على الحقيقة لا سواه؛ بل لو كان في كل منبت شعرة من العبد محبة تامة لله، لكان بعض ما يستحقه على عبده:

نَقِّل فؤادك حيث شئت منَ الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبداً لأول مَنْزِل

فصل

آخر مراتب الحب

ثم التتيم، وهو آخر مراتب الحب، وهو تعبد المحب لمحبوبه، يقال: تيمه الحب، إذا عبده، ومنه: تيم الله، أي عبد الله، وحقيقة التعبد: الذل والخضوع للمحبوب ومنه قولهم: طريق معبد، أي مذلل قد ذللته الأقدام؛ فالعبد هو الذي ذلله الحب والخضوع لمحبوبه، ولهذا كانت أشرف أحوال العبد ومقاماته هي العبودية؛ فلا منزل له أشرف منها.

وقد ذكر الله أكرم الخلق عليه وأحبهم إليه، وهو رسوله محمدﷺ بالعبودية في أشرف مقاماته، وهي مقام الدعوة إليه، ومقام التحدي بالنبوة، ومقام الإسراء، فقال سبحانه: **﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾** [الجن:19] وقال: **﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾** [البقرة:23] وقال: **﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾** [الإسراء:1] وفي حديث الشفاعة: «**اذهبوا إلى محمد، عبد غفر الله له**

ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[1] فنال مقام الشفاعة بكمال عبوديته، وكمال مغفرة الله له، والله سبحانه خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك له، التى هى أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع الخضوع والذل، وهذا هو حقيقة الإسلام وملة إبراهيم التى من رغب عنها فقد سفه نفسه، قال تعالي: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[البقرة:130-133].

ولهذا كان أعظم الذنوب عند الله الشرك.

الشـرك فى المحبة

وأصل الشرك بالله. الإشراك فى المحبة كما قال تعالي: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة:165] فأخبر سبحانه أن من الناس من يشرك به نداً يحبه كما يحب الله، وأخبر أن الذين آمنوا أشد حباً لله من أصحاب الأنداد لأندادهم.

وقيل: بل المعنى أنهم أشد حباً لله، فإنهم وإن أحبوا الله، لكن لما شركوا بينه وبين أندادهم فى المحبة ضعفت محبتهم لله، والموحدون لله لما خلصت محبتهم له كانت أشد من محبة أولئك، والعدل برب العالمين، والتسوية بينه وبين الأنداد هو فى هذه المحبة، كما تقدم.

ولما كان مراد الله من خلقه خلوص هذه المحبة له أنكر على من اتخذ من دونه ولياً أو شفيعاً غاية الإنكار، وجمع ذلك تارة، وأفرد أحدهما عن الآخر فقال تعالي: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا

(1) صحيح: رواه البخاري (4476) في التفسير، ومسلم (193) في الإيمان.

تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس:3]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة:4]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:51].

وقال في الإفراد: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:43-44]، وقال تعالى: ﴿مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الجاثية:10].

فإذا والى العبد ربه وحده أقام له الشفعاء، وعقد الموالاة بينه وبين عباده المؤمنين فصاروا أولياءه فى الله، بخلاف من اتخذ مخلوقاً ولياً من دون الله.

فهذا لون وذاك لون. كما أن الشفاعة الشركية الباطلة لون، والشفاعة الثابتة التى إنما تنال بالتوحيد لون، وهذا موضع فرقان بين أهل التوحيد وأهل الإشراك، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

والمقصود: أن حقيقة العبودية لا تحصل مع الإشراك بالله فى المحبة، بخلاف المحبة لله، فإنها من لوازم العبودية وموجباتها؛ فإن محبة الرسول -بل تقديمه فى الحب على الأنفس والآباء والأبناء- لا يتم الإيمان إلا بها، إذ محبته من محبة الله، وكذلك كل حب فى الله ولله، كما فى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان**»[1].

وفى لفظ الصحيحين: «**لا يجد حلاوة الإيمان إلا من كان فيه ثلاث خصال:- أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى فى النار**»[2].

وفى الحديث الذى فى السنن: «**من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»[3].

---

(1) صحيح: رواه البخاري في الإيمان (16) ومسلم (43) في الإيمان وابن ماجه(4033) وأحمد (11591).

(2) صحيح: رواه البخاري (16) ومسلم (43).

(3) صحيح: رواه الترمذي (2521) في صفة القيامة، ورواه أبو داود في السنة (4681) وانظر صحيح الجامع (5965) وصحيح أبي داود للألباني.

وفى حديث آخر: «**ما تحاب رجلان فى الله إلا كان أفضلهما أشدهما حباً لصاحبه**»[1].

فإن هذه المحبة من لوازم محبة الله وموجباتها، وكلما كانت أقوى كان أصلها كذلك.

فصل

أنواع المحبة

وها هنا أربعة أنواع من المحبة، يجب التفريق بينها، وإنما ضل من ضل بعدم التمييز بينها.

أحدها: محبة الله، ولا تكفى وحدها فى النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه؛ فإن المشركين، وعباد الصليب، واليهود، وغيرهم يحبون الله.

الثاني: محبة ما يحب الله، وهذه هى التى تدخله فى الإسلام وتخرجه من الكفر، وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها.

الثالث: الحب لله وفيه، وهى من لوازم محبة ما يحب، ولا تستقيم محبة ما يحب إلا فيه وله.

الرابع: المحبة مع الله، وهى المحبة الشركية، وكل من أحب شيئاً مع الله لا لله ولا من أجله، ولا فيه، فقد اتخذه نداً من دون الله، وهذه محبة المشركين.

وبقى قسم خامس ليس مما نحن فيه، وهو المحبة الطبيعية، وهى ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه، كمحبة العطشان للماء، والجائع للطعام، ومحبة النوم، والزوجة، والولد، فتلك لا تذم إلا إذا ألهت عن ذكر الله، وشغلت عن محبته، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ [المنافقون:9] وقال تعالى: ﴿**رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ [النور:37].

---

(1) صحيح: رواه الحاكم في المستدرك (4/ 171،544) والبخاري في الأدب المفرد (544) وصححه الألباني في صحيح الجامع (5594).

فصل

كمال المحبة

ثم الخلة وهى تتضمن كمال المحبة ونهايتها، بحيث لا يبقى فى قلب المحب سعة لغير محبوبه، وهى منصب لا يقبل المشاركة بوجه ما، وهذا المنصب خاص للخليلين صلوات الله وسلامه عليهما: إبراهيم ومحمد، كما قال ﷺ «**إن الله اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً**»[١].

وفي الصحيح عنه ﷺأنه قال: «**لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله**»[٢]

وفى حديث آخر: «**إنى أبرأ إلى كل خليل من خُلَّته**»[٣].

ولما سأل إبراهيم عليه السلام الولد فأعطيه، وتعلق حبه بقلبه، فأخذ منه شعبة، غار الحبيب على خليله أن يكون فى قلبه موضع لغيره، فأمره بذبحه، وكان الأمر فى المنام ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاء وامتحاناً، ولم يكن المقصود ذبح الولد، ولكن المقصود ذبحه من قلبه ليخلص القلب للرب، فلما بادر الخليل إلى الامتثال، وقدم محبة ربه على محبة ولده، حصل المقصود فرفع الذبح، وفدى الولد بذبح عظيم، فإن الرب تعالى ما أمر بشئ ثم أبطله رأساً، بل لابد أن يبقى بعضه أو بدله كما أبقى شريعة الفداء وكما أبقى استحباب الصدقة بين يدى المناجاة، وكما أبقى الخمس صلوات بعد رفع الخمسين وأبقى ثوابها، وقال: «**لا يبدل القول لدي، هى خمس فى الفعل، وهى خمسون فى الأجر**».

---

(1) صحيح : رواه ابن ماجه (141)، والحاكم في المستدرك (2/ 550) وهذه الجملة من حديث ابن ماجه قال فيها الألباني: لكن جملة الاتخاذ صحيحة وبينما الجزء الثاني من الحديث قال: موضوع، وانظر ضعيف ابن ماجه برقم (27).

(2) صحيح : رواه البخاري (3456) في فضائل الصحابة، ومسلم (2383) في فضائل الصحابة، والترمذي (3655) في المناقب وأحمد في المسند (4399)، (3570).

(3) صحيح : رواه مسلم (532) في فضائل الصحابة والترمذي (3655) في المناقب، وأحمد في المسند (4110).

فصل

المحبة والخلة

وأما ما يظنه بعض الغالطين أن المحبة أكمل من الخلة، وأن إبراهيم خليل الله، ومحمد ﷺ ، حبيب الله فمن جهله، فإن المحبة عامة، والخلة خاصة. والخلة نهاية المحبة، وقد أخبر النبي ﷺ أن الله اتخذه خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ونفى أن يكون له خليل غير ربه، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها، ولعمر بن الخطاب وغيرهم.

وأيضاً فإن الله سبحانه ﴿**يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾ [البقرة:222]، و﴿**يُحِبُّ الصَّابِرِينَ**﴾ [آل عمران:146] و ﴿**يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [آل عمران:148] و﴿**يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ [المائدة:42] والشاب التائب حبيب الله، وخلته خاصة بالخليلين، وإنما هذا من قلة العلم والفهم، عن الله ورسوله ﷺ .

فصل

إيثار الأعلى

قد تقدم أن العبد لا يترك ما يحبه ويهواه إلا لما يحبه ويهواه، ولكن يترك أضعفهما محبة لأقواهما محبة؛ كما أنه يفعل ما يكرهه لحصول ما محبته أقوى عنده من كراهة ما يفعله، أو لخلاصه من مكروه، كراهته عنده أقوى من كراهة ما يفعله.

وتقدم أن خاصية العقل إيثار أعلى المحبوبين على أدناهما، وأيسر المكروهين على أقواهما، وتقدم أن هذا من كمال قوة الحب والبغض.

ولا يتم له هذا إلا بأمرين: قوة الإدراك، وشجاعة القلب، فإن التخلف عن ذلك والعمل بخلافه يكون إما لضعف الإدراك، بحيث إنه لم يدرك مراتب المحبوب والمكروه على ما هي عليه. وإما لضعف في النفس وعجز في القلب، بحيث لا يطاوعه على إيثار الأصلح لرفع علمه بأنه الأصلح، فإذا صح إدراكه وقويت نفسه وتشجع قلبه على إيثار المحبوب الأعلى والمكروه الأدنى، فقد وفق لأسباب السعادة.

فمن الناس من يكون سلطان شهوته أقوى من سلطان عقله وإيمانه، فيقهر الغالب الضعيف، ومنهم من يكون سلطان إيمانه وعقله أقوى من سلطان شهوته. وإذا كان كثير من المرضى يحميه الطبيب عما يضرّه فتأبى عليه نفسه وشهوته إلا تناوله، ويقدم شهوته على عقله، وتسميه الأطباء: عديم المروءة، فهكذا أكثر مرضى القلوب يؤثرون ما يزيد مرضهم، لقوة شهوتهم له.

فأصل الشر من ضعف الإدراك وضعف النفس ودناءتها، وأصل الخير من كمال الإدراك وقوة النفس وشرفها وشجاعتها.

فالحب والإرادة أصل كل شئ ومبدؤه، والبغض والكراهة أصل كل شئ ومبدؤه، وهاتان القوتان فى القلب، أصل سعادة العبد وشقاوته.

ووجود الفعل الاختيارى لا يكون إلا بوجود سببه من الحب والإرادة.

وأما عدم الفعل فتارة يكون لعدم مقتضيه وسببه، وتارة يكون لوجود البغض والكراهة المانعة منه، وهذا متعلق الأمر والنهي، وهو الذى يسمى الكف، وهو متعلق الثواب والعقاب، وبهذا يزول الاشتباه فى مسألة الترك، وهو أمر وجودى أو عدمي؟ والتحقيق أنه قسمان: فالترك المضاف إلى عدم السبب المقتضى عدمي، والمضاف إلى السبب المانع من الفعل وجودي.

فصل

إيثار الأنفع

وكل واحد من الفعل والترك الاختياريين إنما يؤثره الحى لما فيه من حصول المنفعة التى يلتذ بحصولها، وزوال الألم الذى يحصل له الشفاء بزواله، ولهذا يقال: شفى صدره، وشفى قلبه، قال:

هى الشِّفَاءُ لدائى لو ظفرت بها — وليس منها شفاء الداء مَبْذُولُ

وهذا مطلوب يؤثره العاقل بل الحيوان البهيم؛ ولكن يغلط فيه أكثر الناس غلطاً قبيحاً، فيقصد حصول اللذة بما يعقب عليه أعظم الألم فيؤلم نفسه من حيث يظن أنه يحصل لذتها، ويشفى قلبه بما يعقب عليه غاية المرض، وهذا شأن من قصر نظره على

العاجل ولم يلاحظ العواقب، وخاصة العقل النظر فى العواقب، فأعقل الناس من آثر لذته وراحته الآجلة الدائمة على العاجلة المنقضية الزائلة، وأسْفَه الخلق من باع نعيم الأبد وطيب الحياة الدائمة واللذة العظمى التى لا تنغيص فيها ولا نقص بوجه ما بلذة منقضية مشوبة بالآلام والمخاوف، وهى سريعة الزوال وشيكة الانقضاء.

قال بعض العلماء: «فكرت فيما يسعى فيه العقلاء، فرأيت سعيهم كله فى مطلوب واحد، وإن اختلفت طرقهم فى تحصيله، رأيتهم جميعاً إنما يسعون فى دفع الهم والغم عن نفوسهم، فهذا بالأكل والشرب، وهذا بالتجارة والكسب، وهذا بالنكاح، وهذا بسماع الغناء والأصوات المطربة، وهذا باللهو واللعب، فقلت: هذا المطلوب مطلوب العقلاء، ولكن الطرق كلها غير موصلة إليه، بل لعل أكثرها إنما يوصل إلى ضده ولم أر فى جميع هذه الطرق كلها طريقاً موصله إليه إلا الإقبال على الله ومعاملته وحده وإيثار مرضاته على كل شئ».

فإن سالك هذه الطريق إن فاته حظه من الدنيا فقد ظفر بالحظ العالى الذى لا فوت معه، وإن حصل للعبد حصل له كل شئ، وإن فاته فاته كل شئ، وإن ظفر بحظه من الدنيا ناله على أهنأ الوجوه؛ فليس للعبد أنفع من هذه الطرق، ولا أوصل منها إلى لذته وبهجته وسعادته، وبالله التوفيق.

فصل

أقسام المحبوب

والمحبوب قسمان: محبوب لنفسه، ومحبوب لغيره، والمحبوب لغيره لابد أن ينتهى إلى المحبوب لنفسه، دفعاً للتسلسل المحال، وكل ما سوى المحبوب الحق فهو محبوب لغيره، وليس شئ يحب لنفسه إلا الله وحده، وكل ما سواه مما يحب فإنما محبته تبع لمحبة الرب تبارك وتعالى، كمحبة ملائكته، وأنبيائه، وأوليائه، فإنها تبع لمحبته سبحانه، وهى من لوازم محبته، فإن محبة المحبوب توجب محبة ما يحبه، وهذا موضع يجب الاعتناء به، فإنه محل فرقان بين المحبة النافعة لغيره، والمحبة التى لا تنفع بل قد تضر.

فاعلم أنه لا يحب لذاته إلا من كان كماله من لوازم ذاته، وإلهيته وربوبيته وغناه من لوازم ذاته، وما سواه فإنما يبغض ويكره لمنافاته محابه ومضادته لها،

وبغضه وكراهته بحسب قوة هذه المنافاة وضعفها، فما كان أشد منافاة لمحابه، كان أشد كراهة من الأعيان، والأوصاف، والأفعال، والإرادات، وغيرها، فهذا ميزان عادل توزن به موافقة الرب ومخالفته وموالاته ومعاداته، فإذا رأينا شخصاً يحب ما يكرهه الرب تعالى ويكره ما يحبه علمنا أن فيه من معاداته بحسب ذلك، وإذا رأينا الشخص يحب ما يحبه الرب ويكره ما يكرهه، وكلما كان الشيء أحب إلى الرب كان أحب إليه وآثر عنده، وكلما كان أبغض إليه كان أبغض إليه وأبعد منه؛ علمنا أن فيه من موالاة الرب بحسب ذلك.

فتمسك بهذا الأصل في نفسك وفي غيرك، فالولاية عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابِّه ومساخطه، وليست بكثرة صوم، ولا صلاة، ولا تمزق، ولا رياضة.

والمحبوب لغيره قسمان أيضاً:

أحدهما: ما يلتذ المحب بإدراكه وحصوله.

والثاني: ما يتألم به ولكن يحتمله لإفضائه إلى المحبوب، كشرب الدواء الكريه، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:216].

فأخبر سبحانه أن القتال مكروه لهم مع أنه خير لهم لإفضائه إلى أعظم محبوب وأنفعه، والنفوس تحب الراحة، والدعة، والرفاهية، وذلك شر لها لإفضائه إلى فوات هذا المحبوب، فالعاقل لا ينظر إلى لذة المحبوب العاجل فيؤثرها، وألم المكروه العاجل فيرغب عنه؛ فإن ذلك قد يكون شراً له، بل قد يجلب عليه غاية الألم، ويفوته أعظم اللذة، بل عقلاء الدنيا يتحملون المشاق المكروهة لما يعقبهم من اللذة بعدها، وإن كانت منقطعة.

فالأمور أربعة: مكروه يوصل إلى مكروه. ومكروه يوصل إلى محبوب، ومحبوب يوصل إلى محبوب، ومحبوب يوصل إلى مكروه، فالمحبوب الموصل إلى محبوب قد اجتمع فيه داعي الفعل من وجهين، والمكروه الموصل إلى محبوب قد اجتمع فيه داعي الترك من وجهين.

بقي القسمان الآخران يتجاذبهما الداعيان –وهما معترك الابتلاء والامتحان–

فالنفس تؤثر أقربهما جواراً منها، وهو العاجل، والعقل والإيمان يؤثران أنفعهما وأبقاهما، والقلب بين الداعيين، وهو إلى هذا مرة، وإلى هذا مرة، وها هنا محل الابتلاء شرعاً وقدراً؛ فداعي العقل والإيمان ينادي كل وقت: حي على الفلاح «عِنْدَ الصباح يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرَى» وفى الممات يحمد العبد التقى فإن اشتد ظلام ليلَ المحبة، وتحكم سلطان الشهوة والإرادة يقول: يا نفسى اصبري. فما هى إلا ساعة ثم تنقضي، ويذهب هذا كله ويزول.

فصل

الحب أصل كل عمل

وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل، فأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله، كما أن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله، وكل إرادة تمنع كمال الحب لله ورسوله، وتزاحم هذه المحبة أو شبهة تمنع كمال التصديق، فهى معارضة لأصل الإيمان أو مضعفة له، فإن قويت حتى عارضت أصل الحب والتصديق كانت كفراً أو شركاً أكبر، وإن لم تعارضه قدحت فى كماله، وأثرت فيه ضعفاً وفتوراً فى العزيمة والطلب، وهى تحجب الواصل وتقطع الطالب وتنكس الراغب، فلا تصح الموالاة إلا بالمعاداة، كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين أنه قال لقومه: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:75-77] فلم يصح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة، فإنه لا ولاء إلا لله، ولا ولاء إلا بالبراءة من كل معبود سواه. قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة:4] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:26-28] أى جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية فى عقبة يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض وهى كلمة: لا إله إلا الله، وهى التى ورَّثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة.

كلمة التوحيد

وهى الكلمة التى قامت بها الأرض والسموات، وفطر الله عليها جميع المخلوقات، وعليها أسست الملة، ونصبت القبلة، وجردت سيوف الجهاد، وهى محض حق الله على جميع العباد، وهى الكلمة العاصمة للدم، والأموال، والذرية فى هذه الدار، والمنجية من عذاب القبر، وعذاب النار، هى المنشور الذى لا يدخل أحد الجنة إلا به، والحبل الذى لا يصل إلى الله من لم يتعلق بسببه، وهى كلمة الإسلام: ومفتاح دار السلام، وبها انقسم الناس إلى شقى وسعيد، ومقبول، وطريد، وبها انفصلت دار الكفر من دار الإيمان، وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان، وهى العمود الحامل للفرض والسنة و «**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِه لا إله إلا الله دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[1].

روح كلمة التوحيد

وروح هذه الكلمة وسرها: إفراد الرب جل ثناؤه، وتقدَّست أسماؤه، وتبارك اسمه، وتعالى جده، ولا إله غيره بالمحبة، والإجلال، والتعظيم، والخوف، والرجاء، وتوابع ذلك من التوكل، والإنابة، والرغبة، والرهبة، فلا يحب سواه، وكل ما يحب غيره فإنما يحب تبعاً لمحبته، وكونه وسيلة إلى زيادة محبته، ولا يخاف سواه، ولا يرجو سواه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يرغب إلا إليه، ولا يُرهب إلا منه، ولا يحلف إلا باسمه، ولا يُنذر إلا له، ولا يُتاب إلا إليه، ولا يُطاع إلا أمره، ولا يُتحسب إلا به، ولا يُستعان فى الشدائد إلا به، ولا يلتجأ إلا إليه، ولا يسجد إلا له، ولا يذبح إلا له وباسمه، ويجتمع ذلك كله فى حرف واحد وهو أن لا يعبد إلا إياه بجميع أنواع العبادة، فهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، ولهذا حرم على النار من شهد أن لا إله إلا الله حقيقة الشهادة، ومحال أن يدخل النار من تحقق بحقيقة هذه الشهادة وقام بها، كما قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ**﴾ [المعارج:33] فيكون قائماً بشهادته فى ظاهره، وباطنه فى قلبه،

(1) صحيح : رواه أحمد (21529،21622) والحاكم (1/ 351،500) وأبو داود (3116) وصححه الألباني في صحيح الجامع (6479) وصحيح سنن أبي داود.

وقالبه؛ فإن من الناس من تكون شهادته ميتة، ومنهم من تكون نائمة إذا نبهت انتبهت، ومنهم من تكون مضطجعة، ومنهم من تكون إلى القيام أقرب، وهى فى القلب بمنزلة الروح فى البدن، فروح ميتة، وروح مريضة إلى الموت أقرب، وروح إلى الحياة أقرب، وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن.

وفى الحديث الصحيح عنه ﷺ «**إنى لأَعْلَمُ كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجدت روحه لها رُوحاً**»(1) فحياة الروح بحياة هذه الكلمة فيها، كما أن حياة البدن بوجود الروح فيه، وكما أن من مات على هذه الكلمة فهو فى الجنة يتقلب فيها،فمن عاش على تحقيقها، والقيام بها فروحه تتقلب فى جنة المأوى، وعيشه أطيب عيش. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾[النازعات:40-41] فالجنة مأواه يوم اللقاء.

وجنة المعرفة، والمحبة، والأنس بالله، والشوق إلى لقائه، والفرح به، والرضا به وعنه؛ مأوى روحه فى هذه الدار، فمن كانت هذه الجنة مأواه ها هنا كانت جنة الخلد مأواه يوم الميعاد، ومن حرم هذه الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرماناً، والأبرار فى النعيم، وإن اشتد بهم العيش، وضاقت عليهم الدنيا، والفجار فى جحيم وإن اتسعت عليهم الدنيا، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[النحل:97] وطيب الحياة جنة الدنيا، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[الأنعام:125] فأى نعيم أطيب من شرح الصدر؟ وأى عذاب أمر من ضيق الصدر؟.

وقال تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس:62-64] فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشاً، وأنعمهم بالاً، وأشرحهم صدراً، وأسرّهم قلباً، وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة.

(1) صحيح : رواه ابن ماجه (3795) في الأدب وأحمد في المسند (1378) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (3077).

قال النبي ﷺ : «**إذا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الجَنَّة فَارتَعُوا، قالوا: وَمَا رِيَاضُ الجَنَّة قال: حِلَقُ الذِّكْر**»(١).

ومن هذا قوله ﷺ : «**ما بين بيتي ومنبري رَوْضَة من رياض الجَنَّة**»(٢).

ومن هذا قوله -وقد سألوه عن وصاله في الصوم- «**إنيَّ لَسْتَ كَهَيْئَتِكُمْ، إني أظَلُّ عِنْدَ ربي يطعمني ويسقيني**»(٣) فأخبر ﷺ أن ما يحصل له من الغَذاء عند ربه يقوم مقام الطعام، والشراب الحسي، وأن ما يحصل له من ذلك أمر يختص به لا يشاركه فيه غيره، فإذا أمسك عن الطعام والشراب فله عنه عوض يقوم مقامه وينوب منابه، ويغني عنه، كما قيل:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها ... عن الشراب وتلهيها عن الزَّاد

لها بوجهك نور تستضيء به ... ومن حديثك في أعقابها حَادي

إذا شكَتْ من كَلاَل السَّير أوْعَدَهَا ... رَوحُ اللِّقَاء، فَتَحْيَا عند ميعاد

وكلما كان وجود الشيء أنفع للعبد وهو إليه أحوج كان تألمه بفقده أشد، وكلما كان عدمه أنفع له كان تألمه بوجوده أشد، ولا شيء على الإطلاق أنفع للعبد من إقباله على الله، واشتغاله بذكره، وتنعمه بحبه، وإيثاره لمرضاته، بل لا حياة له ولا نعيم، ولا سرور، ولا بهجة إلا بذلك، فعدمه آلم شيء له وأشده عذاباً عليه، وإنما تغيب الروح عن شهود هذا العذاب والألم لاشتغالها بغيره، واستغراقها في ذلك الغير، فتغيب به عن شهود ما هي فيه من ألم الفوات بفراق أحب شيء إليها وأنفعه لها، وهذه منزلة السكران المستغرق في سكره الذي احترقت داره، وأمواله، وأهله، وأولاده.

وهو لاستغراقه في السكر لا يشعر بألم ذلك الفوات وحسرته، حتى إذا صحا، وكشف عنه غطاء السكر، وانتبه من رقدة الخمر، فهو أعلم بحاله حينئذ.

(1، 2) سبق تخريجه.

(3) صحيح : رواه البخاري (1863) في الصوم، ومسلم (1103) في الصيام، والترمذي (778) في الصوم، وأحمد (25523)، وأبو داود (2360).

وهكذا الحال سواء عند كشف الغطاء، ومعاينة طلائع الآخرة، والإشراف على مفارقة الدنيا، والانتقال منها إلى الله، بل الألم، والحسرة، والعذاب هناك أشد بأضعاف مضاعفة، فإن المصاب في الدنيا يرجو جبر مصيبته بالعوض، ويعلم أنه قد أصيب بشيء زائل لا بقاء له، فكيف بمن مصيبته بلا عوض عنه، ولا بدل منه، ولا نسبة بينه وبين الدنيا جميعها؟ فلو قضى الله سبحانه عليه بالموت من هذه الحسرة والألم لكان العبد جديراً به، فإن الموت ليعود أعظم أمنيته، وأكبر حسراته، هذا لو كان الألم على مجرد الفوات، فكيف وهناك من العذاب على الروح، والبدن بأمور أخرى وجودية ما لا يقدر قدره؟ فتبارك من حمل هذا الخلق الضعيف هذين الألمين العظيمين، اللذين لا تحملهما الجبال الرواسي.

فاعرض الآن على نفسك أعظم محبوب لك في الدنيا، بحيث لا تطيب لك الحياة إلا معه، فأصبحت وقد أخذ منك،وحيل بينك وبينه أحوج ما كنت إليه، كيف يكون حالك؟ هذا ومنه كل عوض، فكيف بمن لا عوض عنه؟ كما قيل:

مِنْ كُلِّ شيءٍ إذا ضَيَّعْتَهُ عِوَضٌ   وَمَا مِنَ اللهِ إن ضَيَّعْتَهُ عِوَضُ

وفي أثر إلهي: «ابن آدم، خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب، ابن آدم، اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فُتُّكَ فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء».

فصل

المحبة المحمودة والمحبة المذمومة

ولما كانت المحبة جنساً تحته أنواع متفاوتة في القدر والوصف، كان أغلب ما يذكر فيها في حق الله تعالى ما يختص به ويليق به من أنواعها، وما لا تصلح إلا له وحده، مثل العبادة والإنابة ونحوها، فإن العبادة لا تصلح إلا له وحده، وكذلك الإنابة، وقد تذكر المحبة باسمها المطلق، كقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[المائدة:54] وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة:165].

واعظم أنواع المحبة المذمومة: المحبة مع الله التى يسوى المحب فيها بين محبته لله ومحبته للند الذى اتخذه من دونه.

وأعظم أنواعها المحمودة محبة الله وحده، ومحبة ما أحب، وهذه المحبة هى أصل السعادة، ورأسها التى لا ينجو أحد من العذاب إلا بها، والمحبة المذمومة الشركية هى أصل الشقاوة، ورأسها التى لا يبقى فى العذاب إلا أهلها، فأهل المحبة الذين أحبوا الله، وعبدوه وحده لا شريك له، لا يدخلون النار، ومن دخلها بذنوبه فإنه لا يبقى فيها منهم أحد.

ومدار القرآن على الأمر بتلك المحبة ولوازمها؛ والنهى عن المحبة الأخرى ولوازمها، وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين، وذكر قصص النوعين، وتفصيل أعمال النوعين وأوليائهم ومعبود كليهما، وإخباره عن فعله بالنوعين، وعن حال النوعين فى الدور الثلاثة: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، والقرآن جاء فى شأن النوعين.

وأصل دعوة جميع الرسل عليهم السلام من أولهم إلى آخرهم: إنما هى عبادة الله وحده لا شريك له؛ المتضمنة لكمال حبه، وكمال الخضوع والذل له، والإجلال والتعظيم، ولوازم ذلك من الطاعة والتقوي.

وقد جاء فى الصحيحين من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «**والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»[1].

وفى صحيح البخارى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يا رسول الله، والله لأنت أحب إلى من كل شئ إلا من نفسي، فقال: «**لا يا عمر حتى أكون أحب اليك من نفسك**» قال: والذى بعثك بالحق لأنت أحب إلى من نفسي، قال: «**الآن يا عمر**»[2] فإذا كان هذا شأن محبة عبده ورسوله ﷺ ووجوب تقديمها على محبة نفس الإنسان، وولده، ووالده والناس أجمعين، فما الظن بمحبة مرسله سبحانه وتعالى، ووجوب تقديمها على محبة ما سواه؟.

---

(1) صحيح: رواه البخاري (15) في الإيمان، ومسلم (44) في الإيمان والنسائي (5013، 5014) وابن ماجه (67) وأحمد (12403) (12739).

(2) صحيح: رواه البخاري في الأيمان والنذور (6257).

ومحبة الرب سبحانه وتعالى تختص عن محبة غيره فى قدرها، وصفتها، وإفراده سبحانه بها، فإن الواجب له من ذلك كله أن يكون أحب إلى العبد من ولده، ووالده، بل من سمعه، وبصره، ونفسه التى هى بين جنبيه، فيكون إلهه الحق ومعبوده أحب إليه من ذلك كله، والشئ قد يحب من وجه دون وجه، وقد يحب بغيره، وليس شئ يحب لذاته من كل وجه إلا الله وحده، ولا تصلح الألوهية إلا له، و: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:22] والتأله: هو المحبة، والطاعة، والخضوع.

فصل

الحب أصل الحركة

وكل حركة فى العالم العلوى والسفلى فأصلها المحبة، فهى علتها الفاعلية والغائية.

وذلك لأن الحركات ثلاثة أنواع: حركة اختيارية إرادية، وحركة طبيعية، وحركة قسرية.

والحركة الطبيعية أصلها السكون، وإنما يتحرك الجسم إذا خرج عن مستقره، ومركزه الطبيعي، فهو يتحرك للعود إليه، وخروجه عن مركزه، ومستقره إنما هو بتحريك القاسر المحرك له، فله حركة قسرية تتحرك بتحريك محركه وقاسره، وحركة طبيعية بذاتها يطلب بها العود إلى مركزه، وكلا حركتيه تابعة للقاسر المحرك، فهو أصل الحركتين. والحركة الاختيارية الإرادية هى أصل الحركتين الأخريين، فصارت الحركات الثلاثة تابعة للإرادة والمحبة.

والدليل على انحصار الحركات فى هذه الثلاث: أن المتحرك إن كان له شعور بالحركة فهى الإرادية، وإن لم يكن له شعور بها، فإما أن تكون على وفق طبعه أو لا، فالأولى هى الطبيعية، والثانية القسرية، إذا ثبت هذا فما في السموات، والأرض، وما بينهما من حركات الأفلاك، والشمس، والقمر، والنجوم، والرياح، والسحاب، والمطر، والنبات، وحركات الأجنة فى بطون أمهاتها، فإنما هى بواسطة الملائكة المدبرات أمراً والمقسمات أمراً، كما دلت على ذلك نصوص من القرآن، والسنة فى غير موضع، والإيمان بذلك من تمام الإيمان بالملائكة، فإن الله وكل بالرحم ملائكة، وبالقَطْر ملائكة، وبالنبات ملائكة، وبالرياح ملائكة،

وبالأفلاك، والشمس، والقمر، والنجوم، ووكّل بكل عبد أربعة من الملائكة، كاتبين عن يمينه، وشماله، وحافظين من بين يديه، ومن خلفه، ووكّل ملائكة بقبض روحه، وتجهيزها إلى مستقرها من الجنة والنار، ووكل ملائكة بمساءلته وامتحانه في قبره، وعذابه هناك أو نعيمه، وملائكة تسوقه إلى المحشر إذا قام من قبره، وملائكة بتعذيبه في النار أو نعيمه في الجنة، ووكل بالجبال ملائكة، وبالسحاب ملائكة تسوقه حيث أمرت به، وبالقطر ملائكة تنزله بأمر الله بقدر معلوم كما شاء الله، ووكّل ملائكة بغرس الجنة. وعمل آلتها، وفرشها، وثيابها، والقيام عليها، وملائكة بالنار كذلك، فأعظم جند الله الملائكة، ولفظ «الملك» يشعر بأنه رسول منفّذ لأمر غيره، فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، وهم يدبرون الأمر ويقسمونه بأمر الله وإذنه، قال تعالى إخباراً عنهم: ﴿**وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا**﴾ [مريم:64] وقال تعالى: ﴿**وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى**﴾[النجم:26] وأقسم سبحانه بطوائف من الملائكة المنفذين لأمره في الخليقة كما قال: ﴿**وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا**﴾[الصافات:1-3] وقال: ﴿**وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا**﴾ [المرسلات:1-6] وقال تعالى: ﴿**وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا**﴾[النازعات:1-5] وقد ذكرنا معنى ذلك وسر الإقسام به في كتاب (أيمان القرآن).

وإذا عرف ذلك فجميع تلك المحبات والحركات والإرادات والأفعال: هي عبادة منهم لرب الأرض والسموات، وجميع الحركات الطبيعية والقسرية تابعة لها، فلولا الحب ما دارت الأفلاك، ولا تحركت الكواكب النيرات، ولا هبّت الرياح المسخرات، ولا مرت السحب الحاملات، ولا تحركت الأجنة في بطون الأمهات، ولا انصدع عن الحب أنواع النبات، ولا اضطربت أمواج البحار الزاخرات، ولا تحركت المدبرات والمقسمات، ولا سبحت بحمد فاطرها الأرضون والسموات، وما فيها من أنواع المخلوقات، فسبحان من ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**﴾ [الإسراء:44].

فصـل

الحب لله وحـده

فإذا عرف ذلك فكل حى له إرادة ومحبة وعمل بحسبه، وكل متحرك فأصل حركته المحبة والإرادة، ولا صلاح للموجودات إلا بأن تكون حركاتها ومحبتها لفاطرها وبارئها وحده، كما لا وجود لها إلا بإبداعه وحده.

ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:22] ولم يقل سبحانه: لما وجدتا ولكانتا معدومتين، ولا قال: لعدمتا، إذ هو سبحانه قادر أن يبقيهما على وجه الفساد، لكن لا يمكن أن يكونا على وجه الصلاح والاستقامة إلا بأن يكون الله وحده هو معبودهما، ومعبود ما حوتاه، وسكن فيهما، فلو كان للعالم إلهان لفسد نظامه غاية الفساد، فإن كل إله كان يطلب مغالبة الآخر، والعلو عليه، وتفرّده دونه بالإلهية، إذ الشركة نقص فى كمال الإلهية، والإله لا يرضى لنفسه أن يكون إلهاً ناقصاً، فإن قهر أحدهما الآخر كان هو الإله وحده والمقهور ليس بإله، وان لم يقهر أحدهما الآخر لزم عجز كل منهما ونقصه، ولم يكن تام الإلهية، فيجب أن يكون فوقهما إله قاهر لهما حاكم عليهما، وإلا ذهب كل منهما بما خلق، وطلب كل منهما العلو على الآخر، وفى ذلك فساد أمر السموات والأرض ومن فيهما، كما هو المعهود من فساد البلد إذا كان فيه ملكان متكافئان، وفساد الزوجة إذا كان لها بعلان، والشَّوْل إذا كان فيه فحلان.

وأصل فساد العالم إنما هو من اختلاف الملوك والخلفاء، ولهذا لم يطمع أعداء الإسلام فيه فى زمن من الأزمنة إلا فى زمن تعدد ملوك المسلمين واختلافهم، وانفراد كل منهم ببلاد، وطلب بعضهم العلو على بعض.

فصلاح السموات والأرض، واستقامتهما، وانتظام أمر المخلوقات على أتم نظام من أظهر الأدلة على أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شئ قدير، وأن كل معبود من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل إلا وجهه الأعلى، قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (91) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون:91-92].

وقال: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ (21) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22) لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:21-23]

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:42]، فقيل: المعنى لابتغوا السبيل إليه بالمغالبة والقهر، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض، ويدل عليه قوله في الآية الأخرى: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون:91].

قال شيخنا ﷺ: والصحيح أن المعنى: لابتغوا إليه سبيلاً بالتقرب إليه وطاعته، فكيف تعبدونهم من دونه؟ وهم لو كانوا آلهة كما يقولون لكانوا عبيداً له، قال: ويدل على هذا وجوه:

منها: قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء:57] أي هؤلاء الذين تعبدونهم من دوني هم عبادي كما أنتم عبادي، ترجون رحمتي وتخافون عذابي، فلماذا تعبدونهم من دوني؟.

الثاني: أنه سبحانه لم يقل لابتغوا على سبيلاً، بل قال: ﴿لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:42] وهذا اللفظ إنما يستعمل في التقرب، كقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:35]. وأما في المغالبة فإنما يستعمل بعلى، كقوله: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء:34].

الثالث: أنهم لم يقولوا إن آلهتهم تغالبه وتطلب العلو عليه، وهو سبحانه قد قال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ [الإسراء:42] وهم إنما كانوا يقولون: إن آلهتهم تبتغي التقرب إليه وتقربهم زلفى إليه، فقال: لو كان الأمر كما تقولون لكانت تلك الآلهة عبيداً له، فلماذا تعبدون عبيده من دونه؟.

فصل

آثار المحبة

والمحبة لها آثار، وتوابع، ولوازم، وأحكام، سواء كانت محمودة، أو مذمومة، نافعة أو ضارة: من الوجد، والذوق، والحلاوة، والشوق والأنس والإتصال بالمحبوب، والقرب منه، والانفصال عنه، والبعد منه، والصد، والهجران، والفرح والسرور، والبكاء والحزن، وغير ذلك من أحكامها ولوازمها.

والمحبة المحمودة هي المحبة النافعة التي تجلب لصاحبها ما ينفعه في دنياه وآخرته، وهذه المحبة هي عنوان السعادة، والضارة هي التي تجلب لصاحبها ما يضره في دنياه وآخرته، وهي عنوان شقاوته.

ومعلوم أن الحى العاقل لا يختار محبة ما يضره ويشقيه، وإنما يصدر ذلك عن جهل وظلم؛ فإن النفس قد تهوى ما يضرها، ولا ينفعها، وذلك ظلم من الإنسان لنفسه. إما بأن تكون جاهلة بحال محبوبها بأن تهوى الشئ وتحبه غير عالمة بما فى محبته من المضرة، وهذا حال من اتبع هواه بغير علم، وإما عالمة بما فى محبته من المضرة لكن تؤثر هواها على علمها، وقد تتركب محبتها من أمرين: اعتقاد فاسد، وهوى مذموم، وهذا حال من اتبع الظن وما تهوى الأنفس؛ فلا تقع المحبة الفاسدة إلا من جهل، أو اعتقاد فاسد، أو هوى غالب، أو ما تركب من ذلك وأعان بعضه بعضاً فتنفق شبهة وشهوة، شبهة يشتبه بها الحق بالباطل وتزين له أمر المحبوب، وشهوة تدعوه إلى حصوله، فيتساعد جيش الشبهة والشهوة على جيش العقل والإيمان، والغلبة لأقواهما.

وإذا عرف هذا فتوابع كل نوع من أنواع المحبة له حكم متبوعه، فالمحبة النافعة المحمودة التى هى عنوان سعادة العبد توابعها كلها نافعة له، حكمها حكم متبوعها؛ فإن بكى نفعه، وإن حزن نفعه، وإن فرح نفعه، وإن انقبض نفعه، وإن انبسط نفعه؛ فهو يتقلب فى منازل المحبة وأحكامها في مزيد وربح وقربة، والمحبة الضارة المذمومة توابعها وآثارها كلها ضارة لصاحبها مبعدة له من ربه، كيفما تقلب في آثارها ونزل في منازلها فهو فى خسارة وبعد.

وهذا شأن كل فعل تولد عن طاعة ومعصية، فكل ما تولَّد من الطاعة فهو زيادة لصاحبها وقربة، وكل ما تولَّد عن المعصية فهو خسران لصاحبه وبُعْد، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:120-121].

فأخبر سبحانه فى الآية الأولى: أن المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب لهم به عمل صالح.

وأخبر فى الثانية: أن أعمالهم الصالحة التى باشروها تكتب لهم أنفسها، والفرق بينهما: أن الأول ليس من فعلهم، وإنما تولد عنه، فكتب لهم به عمل صالح، والثانى نفس أعمالهم فكتب لهم.

فليتأمل قتيل المحبة هذا الفصل حق التأمل ليعلم ما له وما عليه:

سَيَعْلَمُ يَوْمَ العَرْضِ أيَّ بِضَاعَةٍ أضَاعَ وعِنْدَ الوَزْنِ مَا كَانَ حَصَّلا

فصل

المحبة أصل كل دين

وكما أن المحبة والإرادة أصل كل فعل كما تقدم؛ فهي أصل كل دين سواء أكان حقًا أو باطلاً، فإن الدين هو من الأعمال الباطنة والظاهرة، والمحبة والإرادة أصل ذلك كله، والدين هو الطاعة والعبادة والخُلُقُ، فهو الطاعة اللازمة الدائمة التي صارت خلقاً وعادة، ولهذا فسر الخلق بالدين في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:4].

قال الإمام أحمد عن ابن عيينة: قال ابن عباس: «لعلى دين عظيم».

وسئلت عائشة عن خُلُق رسول الله ﷺ فقالت: «كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنُ»[1].

والدين فيه معنى الإذلال والقهر، وفيه معنى الذل، والخضوع، والطاعة؛ فلذلك يكون من الأعلى إلى الأسفل. كما يقال: دنته فدان، أي قهرته فذل.

قال الشاعر:

هُوَ دَانَ الرَّبَابَ إذ كَرِهُوا الدِّ ينَ فأضحوا بعِزَّةٍ وصِيَالِ

ويكون من الأدنى إلى الأعلى، كما يقال: دنت الله، ودنت لله. وفلان لا يدين الله ديناً، ولا يدين الله بدين، فدان الله: أي أطاع الله وأحبه وخافه، ودان لله: أي تخشع له وخضع وذل وانقاد.

والدين الباطن لابد فيه من الحب والخضوع كالعبادة سواء، بخلاف الدين الظاهر؛ فإنه لا يستلزم الحب، وإن كان فيه انقياد وذل في الظاهر.

وسمى الله سبحانه وتعالى يوم القيامة يوم الدين فإنه اليوم الذي يدين فيه الناس بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وذلك يتضمن جزاءهم وحسابهم، فلذلك فسّر بيوم الجزاء ويوم الحساب.

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الواقعة:86-87]

(1) صحيح: رواه مسلم (746) في صلاة المسافرين، والنسائي (1601) في قيام الليل، وأحمد في المسند (23748).

أي هلا تردون الروح إلى مكانها إن كنتم غير مربوبين ولا مقهورين ولا مجزيين. وهذه الآية تحتاج إلى تفسير؛ فإنها سيقت للاحتجاج عليهم في إنكارهم البعث والحساب، ولابد أن يكون الدليل مستلزماً لمدلوله، بحيث ينتقل الذهن منه إلى المدلول، لما بينهما من التلازم؛ فكل ملزوم دليل على لازمه، ولا يجب العكس.

ووجه الاستدلال: أنهم إذا أنكروا البعث والجزاء فقد كفروا بربهم، وأنكروا قدرته وربوبيته وحكمته، فإما أن يقروا بأن لهم رباً قاهراً لهم متصرفاً فيهم، كما سيميتهم إذا شاء، ويحييهم إذا شاء، ويأمرهم وينهاهم، ويثيب محسنهم ويعاقب مسيئهم، وإما أن يقروا برب هذا شأنه، فإن أقروا به آمنوا بالبعث والنشور، والدين الأمري والجزائي، وإن أنكروه وكفروا به، فقد زعموا أنهم غير مربوبين ولا محكوم عليهم، ولا لهم رب يتصرف فيهم كما أراد، فهلا يقدرون على دفع الموت عنهم إذا جاءهم، وعلى رد الروح إلى مستقرها إذا بلغت الحلقوم؟ وهذا خطاب للحاضرين، عند المحتضر، وهم يعاينون موته: أي فهلاّ تردّون روحها إلى مكانها إن كان لكم قدرة وتصرف، ولستم مربوبين ولا مقهورين لقاهر قادر، تمضي عليكم أحكامه، وتنفذ فيكم أوامره، وهذا غاية التعجيز لهم؛ إذ تبيَّن عجزهم عن ردِّ نفس واحدة من مكان إلى مكان، ولو اجتمع على ذلك الثقلان، فيا لها من آية دالة على ربوبيته سبحانه، ووحدانيته، وتصرفه في عباده، ونفوذ أحكامه فيهم، وجريانها عليهم.

الـديـن ديـنـان

والدين دينان: دين شرعي أمري، ودين حسابي جزائي، وكلاهما لله وحده؛ فالدين كله لله أمراً أو جزاء، والمحبة أصل كل واحد من الدينين، فإن ما شرعه سبحانه وأمر به فإنه يحبه ويرضاه، وما نهى عنه فإنه يكرهه ويبغضه لمنافاته لما يحبه ويرضاه؛ فهو يحب ضده، فعاد دينه الأمري كله إلى محبته ورضاه.

ودين العبد لله به إنما يقبل إذا كان عن محبة ورضي، كما قال ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالاسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً**»[1] فهذا الدين قائم بالمحبة، وبسببها شرع، ولأجلها شرع، وعليها أسس. وكذلك دينه الجزائي فإنه يتضمن مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وكل من الأمرين محبوب للرب، فإنهما عدله وفضله، وكلاهما من صفات كماله وهو سبحانه يحب صفاته وأسماءه،

(1) صحيح: رواه مسلم (34) في الإيمان، والـ[illegible] (262[illegible]) في [illegible]

ويحب من يحبها، وكل واحد من الدينين فهو صراطه المستقيم الذى هو عليه سبحانه فهو على صراط مستقيم، فى أمره ونهيه وثوابه وعقابه. كما قال تعالى إخباراً عن نبيه هود عليه الصلاة والسلام أنه قال لقومه: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:54-56].

ولما علم نبى الله هود عليه السلام أن ربه على صراط مستقيم فى خلقه وأمره ونهيه، وثوابه وعقابه، وقضائه وقدره، ومنعه وعطائه، وعافيته وبلائه، وتوفيقه وخذلانه، لا يخرج فى ذلك عن موجب كماله المقدس، الذي تقضيه أسماؤه وصفاته، من العدل والحكمة والرحمة، والإحسان، والفضل، ووضع الثواب فى موضعه، والعقوبة فى موضعها اللائق بها، ووضع التوفيق والخذلان والعطاء والمنع والهداية والإضلال، كل ذلك فى أماكنه ومحاله اللائقة به، بحيث يستحق على ذلك كمال الحمد والثناء -أوجب له ذلك العلم والعرفان، إذ نادى على رؤوس الملأ من قومه بجنان ثابت وقلب غير خائف بل متجرد لله ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:54-56].

ثم أخبر عن عموم قدرته وقهره لكل ما سواه، وذل كل شئ لعظمته، فقال: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فكيف أخاف من ناصيته بيد غيره، وهو فى قبضته وتحت قهره وسلطانه دونه ومثل هذا الأمر أجهل الجهل وأقبح الظلم.

ثم أخبر أنه سبحانه على صراط مستقيم، فى كل ما يقضيه ويقدره فلا يخاف العبد جوره ولا ظلمه، فلا أخاف ما دونه، فإن ناصيته بيده، ولا أخاف جوره ولا ظلمه، فإنه على صراط مستقيم. فهو سبحانه ماض فى عبده حكمه، عدل فيه قضاؤه، له الملك وله الحمد، لا يخرج تصرفه فى عباده عن العدل والفضل، إن أعطى، وأكرم، وهدى، ووفق فبفضله ورحمته، وإن منع، وأهان، وأضل، وخذل، وأشقى فبعدله وحكمته، وهو على صراط مستقيم فى هذا وهذا.

وفي الحديث الصحيح: «**ما أصاب عبداً قط هم ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن العظيم**

ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي، إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرجاً» قالوا: يا رسول الله ألا نتعلمهن؟ قال «**بل ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن**»(١).

وهذا يتناول حكم الرب الكوني والأمري وقضاءه الذي يكون باختيار العبد وغير اختياره، وكلا الحكمين ماض في عبده، وكلا القضاءين عدل فيه، فهذا الحديث مشتق من هذه الآية، وبينهما أقرب نسب.

فصل

عشق الصور

ونختم الجواب بفصل متعلق بعشق الصور وما فيه من المفاسد العاجلة والآجلة، وإن كانت أضعاف ما يذكره ذاكر، فإنه يفسد القلب بالذات، وإذا فسد القلب فسدت الإرادات، والأقوال، والأعمال، وفسد ثغر التوحيد كما تقدم، وكما سنقرره أيضاً إن شاء الله.

والله سبحانه وتعالى إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس وهم اللوطية والنساء. فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف وما راودته وكادته به، وأخبر عن الحال التى صار إليها يوسف بصبره وعفَّته وتقواه، مع أن الذى ابْتُلى به أمر لا يصبر عليه إلا من صبَّره الله، فإن مواقعَة الفعل بحسب قوة الداعى وزوال المانع، وكان الداعى ها هنا فى غاية القوة، وذلك من وجوه:

أحدها: ما ركبه الله سبحانه فى طبع الرجل من ميله إلى المرأة، كما يميل العطشان إلى الماء، والجائع إلى الطعام، حتى إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء، وهذا لا يُذَمُّ إذا صادف حلاً، بل يحمد كما فى كتاب «الزهد» للإمام أحمد من حديث يوسف بن عطية الصفار، عن ثابت البنانى عن أنس عن النبي ﷺ: «**حُبِّبَ إلى من دُنياكم النساء والطيبُ، أصْبِرُ عن الطعام والشراب ولا أصْبِرَ عَنْهُنَّ**»(٢).

الثاني: أن يوسف عليه السلام كان شاباً، وشهوة الشاب وحدته أقوى.

الثالث: أنه كان عزباً ليس له زوجة ولا سرية تكسر ثورة الشهوة.

---

(1) صحيح: رواه أحمد في المسند (3704) (4306) والحاكم في المستدرك (1/ 509) وابن حبان (2372) موارد وصححه الألباني فى صحيح موارد الظمآن وانظر الصحيحة (199).

(2) صحيح: (الشطر الأول) رواه أحمد (13623) والطبراني في الأوسط (5772) والحاكم في المستدرك (2/ 160) والأسرار المرفوعة (406) والشطر الأول منه صححه الألباني من رواية أنس وانظر صحيح الجامع (3124).

الرابع: أنه كان في بلاد غربة يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتى له في وطنه، وبين أهله ومعارفه.

الخامس: أن المرأة كانت ذات منصب وجمال، بحيث إن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها.

السادس: أنها غير ممتنعة ولا أبية، فإن كثيراً من الناس يزيل رغبته في المرأة إباؤها وامتناعها، لما يجد في نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها، وكثير من الناس يزيده الإباء، والامتناع إرادة وحباً، كما قال الشاعر:

وزادني كلفاً في الحبِّ أنْ منعت ... وأحب شيء إلى الإنسان ما منعا

فطباع النفس مختلفة، فمنهم من يتضاعف حبُّه عند بذل المرأة ورغبتها ويضمحل عند إبائها وامتناعها، وأخبرني بعض القضاة أن إرادته وشهوته تضمحل عند امتناع امرأته، أو سريته، وإبائها، بحيث لا يعاودها، ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع فيشتد شوقه كلما منع، ويحصل له من اللذة بالظفر نظيرها ما يحصل من اللذة بالظفر بالضدِّ بعد امتناعه ونفاره، واللذة بإدراك المسألة بعد استصعابها وشدة الحرص على إدراكها.

السابع: أنها طلبت وأرادت وراودت وبذلت الجهد، فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة إليها، بل كانت هي الراغبة الذليلة، وهو العزيز المرغوب إليه.

الثامن: أنه في دارها وتحت سلطانها وقهرها، بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له، فاجتمع داعي الرغبة والرهبة.

التاسع: أنه لا يخشى أن تَنِمَّ عليه هي ولا أحد من جهتها، فإنها هي الطالبة الراغبة، وقد غلقت الأبواب وَغيبت الرقباء.

العاشر: أنه كان في الظاهر مملوكاً لها في الدار، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكر عليه، وكان الأنس سابقاً على الطلب، وهو من أقوى الدواعي، كما قيل لامرأة شريفة من أشراف العرب: ما حملك على الزنى؟ قالت: «قرب الوساد وطول السواد» تعني قرب وساد الرجل من وسادتي، وطول السواد بيننا.

الحادي عشر: أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال. فأرته إياهن وشكت حالها إليهن لتستعين بهن عليه، فاستعان هو بالله عليهن فقال: **﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾** [يوسف:33].

الثانى عشر: أنها توعدته بالسجن والصَّغَار، وهذا نوع إكراه، إذ هو تهديد من يغلب على الظن وقوع ما هدد به، فيجتمع داعى الشهوة وداعى السلامة من ضيق السجن والصغار.

الثالث عشر: أن الزوج لم يظهر من الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما، ويبعد كلاً منهما عن صاحبه. بل كان غاية ما قابلها به أن قال ليوسف: ﴿**أَعْرِضْ عَنْ هَذَا**﴾ [يوسف:29] وللمرأة: ﴿**وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ**﴾ [يوسف:29]. وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع. وهذا لم يظهر منه غيرة.

ومع هذه الدواعى كلها فآثر مرضاة الله وخوفه، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنى ﴿**قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ**﴾ [يوسف:33] وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه وكان من الجاهلين، وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه.

وفى هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على ألف فائدة، لعلّنا إن وفق الله أن نفردها فى مصنف مستقل.

فصل

عشق اللوطية

والطائفة الثانية، الذين حكى الله عنهم العشق: هم اللوطية. كما قال تعالى: ﴿**وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ [الحجر:67-72] فهذه الأمة عشقت. فحكاه سبحانه عن طائفتين، عشق كل منهما ما حرم عليه من الصور ولم يُبال بما فى عشقه من الضرر.

وهذا داء أعيا الأطباء دواؤه، وعز عليهم شفاؤه، وهو لعمر الله الداء العضال، والسم القتَّال، الذى ما علق بقلب إلا وعزَّ على الورى استنقاذه من إساره، ولا اشتعلت ناره فى مهجة إلا وصعب على الخلق تخليصها من ناره.

وهو أقسام

تارة يكون كفراً، كمن اتخذ معشوقه نداً، يحبه كما يحب الله، فكيف إذا كانت محبته أعظم من محبة الله فى قلبه؟ فهذا عشق لا يغفر لصاحبه، فإنه من

أعظم الشرك، والله لا يغفر أن يشرك به وإنما يغفر بالتوبة [illegible] ما دون ذلك. وعلامة العشق الشركى الكفري: أن يُقدم العاشق رضى معشوقه على رضى ربه، وإذا تعارض عنده حق معشوقه وحظه، وحق ربه وطاعته، قدم حق معشوقه على حق ربه وآثر رضاه على رضاه، وبذل لمعشوقه أنفس ما يقدر عليه، وبذل لربه - إن بذل- أردأ ما عنده، واستفرغ وسعه فى مرضاة معشوقه وطاعته والتقرب إليه، وجعل لربه -إن أطاعه- الفضلة التى تفضل عن معشوقه من ساعاته.

فتأمل حال أكثر عشاق الصور تجدها مطابقة لذلك، ثم ضع حالهم فى كفة وتوحيدهم وإيمانهم فى كفة، ثم زن وزناً يرضى الله به ورسوله ويطابق العدل، وربما صرح العاشق منهم بأن وصل معشوقه أحب إليه من توحيد ربه. كما قال الفاسق الخبيث:

يَتَرشَّفْنَ مِنْ فَمِي رَشَفَاتٍ ... هُنَّ أَحْلَى فِيْهِ مِنَ التَّوحِيْدِ

وكما صرح الخبيث الآخر أن وصل معشوقه أشهى إليه من رحمة ربه -فعياذاً بك اللهم من هذا الخذلان- فقال:

وصلك أشهى إلى فؤادى ... من رحمة الخالق الجليل

ولا ريب أن هذا العشق من أعظم الشرك، وكثير من العشاق يصرح بأنه لم يبق فى قلبه موضع لغير معشوقه ألبتة، بل قد ملك عليه قلبه كله فصار عبداً محضاً من كل وجه لمعشوقه: فقد رضى هذا من عبودية الخالق جلّ جلاله بعبودية مخلوق مثله، فإن العبودية هى كمال الحب والخضوع، وهذا قد استفرغ قوة حبه، وخضوعه، وذله لمعشوقه فقد أعطاه حقيقة العبودية.

ولا نسبة بين مفسدة هذا الأمر العظيم ومفسدة الفاحشة، فإن تلك ذنب كبير لفاعله حكم أمثاله، ومفسدة هذا العشق مفسدة الشرك. وكان بعض الشيوخ من العارفين يقول: لأن أُبْتَلَىَ بالفاحشة مع تلك الصورة أَحَبُّ إلىَّ من أن أبتلى فيها بعشق يتعبد لها قلبى ويشغله عن الله.

فصل

دواء العشق

ودواء هذا الداء القتال أن يعرف أن ما ابتلى به من هذا الداء المضاد للتوحيد، إنما هو من جهله وغفلة قلبه عن الله، فعليه أن يعرف توحيد ربه وسننه وآياته أولاً. ثم يأتى من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكرة فيه:

ويكثر اللجأ والتضرع إلى الله سبحانه فى صرف ذلك عنه، وأن يراجع بقلبه إليه. وليس له دواء أنفع من الإخلاص لله، وهو الدواء الذى ذكره الله فى كتابه حيث قال: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:24].

فأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل بإخلاصه، فإن القلب إذا خلص وأخلص عـمله لله لم يتـمكن منه عـشق الصور، فـإنه إنما يتمكن من قلب فارغ، كما قال:

أتانى هَوَاهَا قبل أن أعرفَ الهَوَى فصـــادف قلباً خاليـــاً فَتَمَكَّنَـا

وليعلم العاقل أن العقل والشرع يوجبان تحصيل المصالح وتكميلها وإعدام المفاسد وتقليلها، فإذا عرض للعاقل أمر يرى فيه مصلحة ومفسدة، وجب عليه أمران: أمر علمي، وأمر عملي، فالعلمى طلب معرفة الراجح من طرفى المصلحة والمفسدة، فإذا تبين له الرجحان وجب عليه إيثار الأصلح له.

اضـرار العشـق (عشـق الصـور)

ومن المعلوم أنه ليس فى عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية، بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف ما يقدر فيه من المصلحة وذلك من وجوه:

أحدها: الاشتغال بحب المخلوق وذكره عن حب الرب تعالى وذكره، فلا يجتمع فى القلب هذا وهذا إلا ويقهر أحدهما الآخر، ويكون السلطان والغلبة له.

الثاني: عذاب قلبه بمعشوقه، فإن من أحب شيئاً غير الله عذب به ولا بدَّ، كما قيل:

فما فى الأرض أشقى من محب وإن وجـــد الهوى حلـو المــــذاق

تــراه باكيــاً فى كــــل حــين مخـــافـــة فرقــــة أو لاشتيــاقِ

فيبكى إن نــأوا شوقــاً إليهــم ويبكـــى إن دنـــوا حـــذر الفـراقِ

فتسخـــن عينــه عنــد الفـــراق وتسخـــن عينــه عنـــد الــتلاقى

والعشق، وإن استعذبه صاحبه، فهو من أعظم عذاب القلب.

الثالث: أن العاشق قلبه أسير فى قبضة غيره يسومه الهوان، ولكن لسكرة العشق لا يشعر بمصابه، فقلبه كعصفورة فى كف طفلٍ يسومها حياض الردى والطفل يلهو ويلعب، كما قال بعض هؤلاء:

ملكت فؤادى بالقطيعة والجفا وأنت خلى البال تلهو وتلعب
فعيش العاشق عيش الأسير الموثق وعيش الخلى عيش المسيب المطلق
طليق برأى العين وهو أسير عليل على قطب الهلاك يدور
وميت يرى فى صورة الحى غادياً وليس له حتى النشور نشور
أخو غمرات ضاع فيهن قلبه فليس له حتى الممات حضور

الرابع: أنه يشتغل به عن مصالح دينه ودنياه، فليس شئ أضيع، لمصالح الدين والدنيا من عشق الصور، أما مصالح الدين فإنها منوطة بلم شعث القلب وإقباله على الله، وعشق الصور أعظم شئ تشعيثاً وتشتيتاً له. وأما مصالح الدنيا فهى تابعة فى الحقيقة لمصالح الدين، فمن انفرطت عليه مصالح دينه وضاعت عليه، فمصالح دنياه أضيع وأضيع.

الخامس: أن آفات الدنيا والآخرة أسرع إلى عشاق الصور من النار فى يابس الحطب.

وسبب ذلك: أن القلب كلما قرب من العشق، وقوى اتصاله به بعد من الله، فأبعد القلوب من الله قلوب عشاق الصور، وإذا بعد القلب من الله طرقته الآفات، وتولاه الشيطان من كل ناحية ومن تولاه عدوه واستولى عليه لم يدع أذى يمكنه من إيصاله إليه إلا أوصله، فما الظن بقلب تمكن منه عدوه وأحرص الخلق على غيه وفساده، وبعد منه وليه ومن لا سعادة ولا فلاح ولا سرور إلا بقربه وولايته؟.

السادس: أنه إذا تمكن من القلب واستحكم وقوى سلطانه، أفسد الذهن وأحدث الوسواس، وربما ألحق صاحبه بالمجانين الذين فسدت عقولهم فلا ينتفعون بها.

وأخبار العشاق فى ذلك موجودة فى مواضعها، بل بعضها مشاهد بالعيان، وأشرف ما فى الإنسان عقله، وبه يتميز عن سائر الحيوانات، فإذا عدم عقله التحق بالحيوان البهيم، بل ربما كان حال الحيوان أصلح من حاله، وهل أذهب عقل مجنون ليلى وأضرابه إلا ذلك؟ وربما زاد جنونه على جنون غيره، كما قيل:

قالوا: جننت بمن تهوى فقلت لهم: العشق أعظم مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يُصرع المجنون فى الحين

السابع: أنه ربما أفسد الحواس أو بعضها، إما إفساداً معنويًا أو صوريًا، أما الفساد المعنوى فهو تابع لفساد القلب، فإن القلب إذا فسد فسدت العين والأذن واللسان.

فيرى القبيح حسناً منه ومن معشوقه كما فى المسند مرفوعاً: «**حبك الشئ يعمى ويصم**»[1] فهو يعمى عين القلب عن رؤية مساوئ المحبوب وعيوبه، فلا ترى العين ذلك، ويصم أذنه عن الإصغاء إلى العذل فيه، فلا تسمع الأذن ذلك، والرغبات تستر العيوب، فالراغب فى الشئ لا يرى عيوبه، حتى إذا زالت رغبته فيه أبصر عيوبه، فشدة الرغبة غشاوة على العين، تمنع من رؤية الشئ على ما هو به، كما قيل:

هويتـــك إذ عيـــنى عليهـــا غشـاوة ... فَلَمَّـــا انجلت قطعت نفسى أَلُومُهَـــا

والداخل فى الشئ لا يرى عيوبه، والخارج منه الذى لم يدخل فيه لا يرى عيوبه، ولا يرى عيوبه إلا من دخل فيه ثم خرج منه، ولهذا كان الصحابة الذين دخلوا فى الإسلام بعد الكفر خيراً من الذين ولدوا فى الإسلام.

قال عمر بن الخطاب ﷺ: «إنما تنتقض عرى الإسلام عروة عروة، إذا ولد فى الإسلام من لم يعرف الجاهلية».

وأما فساد الحواس ظاهراً فإنه يمرض البدن وينهكه، وربما أدى إلى تلفه، كما هو المعروف فى أخبار من قتلهم العشق.

وقد رفع إلى ابن عباس وهو بعرفة شاب قد انتحل حتى عاد جلداً على عظم، فقال: ما شأن هذا؟ قالوا: به العشق، فجعل ابن عباس يستعيذ بالله من العشق عامة يومه.

الثامن: أن العشق كما تقدم هو الإفراط فى المحبة، بحيث يستولى المعشوق على قلب العاشق، حتى لا يخلو من تخيله وذكره والفكر فيه، بحيث لا يغيب عن خاطره وذهنه، فعند ذلك تشتغل النفس عن استخدام القوى الحيوانية والنفسانية فتتعطل تلك القوي، فيحدث بتعطيلها من الآفات على البدن والروح ما يعزّ دواؤه ويتعذر. فتتغير أفعاله وصفاته ومقاصده، ويختل جميع ذلك، فتعجز البشر عن صلاحه، كما قيل:

الحـــب أول ما يكـــون لُجَاجَـــةً ... يأتـــى بهـــا وتســـوقـــه الأَقْـــدَارَ

حتى إذا خاض الفتى لُجَجَ الهوى ... جـــاءت أمـــور لا تطـــاق كِبَـــارُ

(1) ضعيف: رواه أبو داود (5130) في الأدب، وأحمد في المسند (21186) (27000) وكشف الخفاء (1095) وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود وانظر الضعيفة (1868).

والعشق مبادئه سهلة حلوة، وأوسطه هم وشغل قلب وسقم، وآخره عطب وقتل، إن لم تتداركه عناية من الله، كما قيل:

وعش خالياً فالحب أوله عَنّى   وأوسطه سَقَم وآخره قَتْلُ

وقال الآخر:

تَوَلَّع بالعشق حتى عَشِقْ   فلما اسْتَقَلَّ به لم يُطِقْ

رأى لُجَّةً ظنها مَوْجَةً   فلما تمكن منها غَرِقْ

والذنب له، وهو الجاني على نفسه، وقد قعد تحت المثل السائر.

«يداك أوكتا وفوك نفخ».

فصل

مقامات العاشق

والعاشق له ثلاث مقامات: مقام ابتداء، ومقام توسط، ومقام انتهاء.

فأما مقام ابتدائه، قالوا: يجب عليه فيه مدافعته بكل ما يقدر عليه إذا كان الوصول إلى معشوقه متعذراً قدراً وشرعاً، فإن عجز عن ذلك وأبى قلبه إلا السفر إلى محبوبه -وهذا مقام التوسط والانتهاء- فعليه كتمان ذلك، وأن لا يفشيه إلى الخلق، ولا يشبب بمحبوبه ويهتكه بين الناس، فيجمع بين الشرك والظلم. فإن الظلم في هذا الباب من أعظم أنواع الظلم، وربما كان أعظم ضرراً على المعشوق وأهله من ظلمه في ماله. فإنه يعرض المعشوق بهتكه في عشقه إلى وقوع الناس فيه وانقسامهم إلى مصدق ومكذب، وأكثر الناس يصدق في هذا الباب بأدنى شبهة، وإذا قيل: فلان فعل بفلان أو بفلانة كذبه واحد وصدقه تسعمائة وتسعة وتسعون.

وخبر العاشق المتهتك عند الناس في هذا الباب يفيد القطع اليقيني، بل إذا أخبرهم المفعول به عن نفسه كذباً وافتراء على غيره جزموا بصدقه جزماً لا يحتمل النقيض، بل لو جمعهما مكان واحد اتفاقاً، لجزموا أن ذلك عن وعد واتفاق بينهما، وجزمهم في هذا الباب على الظنون، والتخيل، والشبه، والأوهام، والأخبار الكاذبة، كجزمهم بالحسيات المشاهدة، وبذلك وقع أهل الإفك في الطيبة المطيبة، حبيبة رسول الله ﷺ، المبرأة من فوق سبع سموات، بشبهة مجيء صفوان بن

المعطل بها وحده خلف العسكر، حتى هلك من هلك، ولولا أن تولى الله سبحانه وتعالى براءتها والذبَّ عنها وتكذيب قاذفها، لكان أمراً آخر.

والمقصود: أن في إظهار المبتلى عشق من لا يحل له الاتصال به من ظلمه وأذاه ما هو عدوان عليه وعلى أهله، وتعرض لتصديق كثير من الناس ظنونهم فيه، فإن استعان عليه بمن يستميله إليه، إما برغبة أو رهبة تعدى الظلم وانتشر، وصار ذلك الواسطة ديوثاً ظالماً، وإذا كان النبي ﷺ قد لعن الرائش -وهو الواسطة بين الراشي والمرتشي في إيصال الرشوة- فما ظنك بالديوث الواسطة بين العاشق والمعشوق في الوصل، فيتساعد العاشق والديوث على ظلم المعشوق وظلم غيره ممن يتوقف حصول غرضه على ظلمه في نفس، أو مال، أو عرض؟ فإنه كثيراً ما يتوقف المطلوب فيه على قتل نفس يكون حياتها مانعة من غرضه، وكم من قتيل طُلَّ دَمُه بهذا السبب من زوج وسيد وقريب، وكم خبيت امرأة على بعلها وجارية وعبد على سيدهما، وقد لعن رسول الله ﷺ من فعل ذلك وتبرأ منه، وهو من أكبر الكبائر.

وإذا كان النبي ﷺ قد نهى أن يخطب الرجل على خطبة أخيه، أو أن يستام على سوم أخيه، فكيف بمن يسعى في التفريق بين رجل وبين امرأته وأمته حتى يتصل بهما؟

وعشاق الصور ومساعدوهم من الدياثية لا يرون ذلك ذنباً، فإن طلب العاشق وصل معشوقه ومشاركة الزوج والسيد، ففي ذلك من إثم ظلم الغير ما لعله لا يقصر عن إثم الفاحشة، إن لم يرب عليها، ولا يسقط حق الغير بالتوبة من الفاحشة، فإن التوبة وإن أسقطت حق الله فحق العبد باق له المطالبة به يوم القيامة، فإن ظلم الوالد بإفساد ولده وفلذة كبده ومن هو أعز عليه من نفسه، فظلم الزوج بإفساد حبيبه والجناية على فراشه، أعظم من ظلمه بأخذ ماله كله ولهذا يؤذيه ذلك أعظم مما يؤذيه أخذ ماله، ولا يعدل ذلك عنده إلا سفك دمه، فيا له من ظلم أعظم إثماً من فعل الفاحشة، فإن كان ذلك حقاً لغاز في سبيل الله وقف له الجاني الفاعل يوم القيامة، وقيل له: «**خذ من حسناته ما شئت**» كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ. ثم قال رسول الله ﷺ: «**فما ظنكم**»[1] أي فما تظنون يبقى له من حسناته؟ فإن انضاف إلى ذلك أن يكون المظلوم جاراً، أو ذا رحم محرم، تعدد الظلم فصار ظلماً مؤكداً لقطيعة الرحم وأذى الجار، و«**لا يدخل الجنة قاطع رحم**»[2]، ولا «**من لا يأمن جاره بوائقه**»[3].

(1) سبق تخريجه.

(2) صحيح: رواه البخاري (5984) في الأدب، ومسلم (2556) في البر والصلة والترمذي (1909) في البر والصلة، وأحمد في المسند (16291، 16322، 16331).

(3) صحيح: رواه مسلم (46) في الإيمان، وأحمد في المسند (7818، 8227، 8638).

فإن استعان العاشق على وصال معشوقه بشياطين من الجن -إما بسحر أو استخدام أو نحو ذلك- ضم إلى الشرك والظلم كفر السحر، فإن لم يفعله هو ورضى به كان راضياً بالكفر غير كاره لحصول مقصده به، وهذا ليس ببعيد من الكفر.

والمقصود: أن التعاون فى هذا الباب تعاون على الإثم والعدوان.

وأما ما يقترن بحصول غرض العاشق من الظلم المنتشر المتعدى ضرره فأمر لا يخفى، فإنه إذا حصل له مقصوده من المعشوق فللمعشوق أغراض أخر يريد من العاشق إعانته عليها، فلا يجد من إعانته بدًا، فبقى كل منهما يعين الآخر على الظلم والعدوان، فالمعشوق يعين العاشق على ظلم من يتصل به من أهله، وأقاربه، وسيده، وزوجه، والعاشق يعين المعشوق على ظلم من يكون غرض المعشوق متوقفاً على ظلمه، فكل منهما يعين الآخر على أغراضه التى فيها ظلم الناس، فيحصل العدوان والظلم للناس بسبب اشتراكهما فى القبح لتعاونهما بذلك على الظلم، كما جرت به العادة بين العشاق والمعشوقين، من إعانة العاشق لمعشوقه على ما فيه ظلم وعدوان وبغي، حتى ربما يسعى له فى منصب لا يليق به ولا يصلح لمثله، وفى تحصيل مال من غير حله، وفى استطالته على غيره. فإذا اختصم معشوقه وغيره أو تشاكيا لم يكن إلا فى جانب المعشوق، ظالماً كان أو مظلوماً، هذا إلى ما ينضم إلى ذلك من ظلم العاشق للناس بالتحيل على أخذ أموالهم، والتوصل بها إلى المعشوق بسرقة، أو غصب، أو خيانة، أو يمين كاذبة، أو قطع طريق، أو نحو ذلك، وربما أدى ذلك إلى قتل النفس التى حرم الله ليأخذ ماله ليتوصل به إلى معشوقه.

وكل هذه الآفات وأضعافها وأضعاف أضعافها تنشأ من عشق الصور، وتحمل على الكفر الصريح، وقد تَنَصَّر جماعة ممن نشئوا فى الإسلام بسبب العشق، كما جرى لبعض المؤذنين حين أبصر امرأة جميلة على سطح، ففتن بها فنزل ودخل عليها وسألها نفسها فقالت: هى نصرانية، إن دخلت فى دينى تزوجت بك، ففعل، فرقى فى ذلك اليوم على درجة عندهم فسقط منها فمات. ذكر هذا عبد الحق فى كتاب «العاقبة» له.

وإذا أراد النصارى أن يُنَصِّر الأسير، أروه امرأة جميلة وأمروها أن تطمعه فى نفسها، حتى إذا تمكن حبها من قلبه بذلت له نفسها إن دخل فى دينها، فهنالك: **﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾** [إبراهيم:27].

وفي العشق من ظلم كل واحد من العاشق والمعشوق لصاحبه بمعاونته على الفاحشة وظلمه لنفسه ما فيه. وكل منهما ظالم لنفسه وصاحبه، وظلمهما متعد إلى الغير كما تقدم، وأعظم من ذلك ظلمهما بالشرك، فقد تضمن العشق أنواع الظلم كلها.

والمعشوق إذا لم يتق الله فإنه يعرض العاشق للتلف، وذلك ظلم منه، أن يطمعه في نفسه ويتزين له ويستميله بكل طريق حتى يستخرج منه ماله، ونفعه، ولا يمكنه من نفسه، لئلا يزول غرضه بقضاء وطره منه، فهذا يسومه سوء العذاب، والعاشق ربما قتل معشوقه ليشفي نفسه منه، ولا سيما إن جاد بالوصال لغيره. فكم للعشق من قتيل من الجانبين، وكم قد أزال من نعمة، وأفقر من غنى، وأسقط من مرتبة، وشتت من شمل، وكم أفسد من أهل للرجل وولده، فإن المرأة إذا رأت بعلها عاشقاً لغيرها اتخذت هي معشوقاً لنفسها، فيصير الرجل متردداً بين خراب بيته بالطلاق وبين القيادة، فمن الناس من يؤثر هذا، ومنهم من يؤثر هذا.

فعلى العاقل أن لا يحكم على نفسه عشق الصور لئلا يؤديه ذلك إلى هذه المفاسد، أو أكثرها، أو بعضها، فمن فعل ذلك فهو المفرط بنفسه المغرور بها، فإذا هلكت فهو الذي أهلكها. فلولا تكراره النظر إلى وجه معشوقه وطمعه في وصاله لم يتمكن عشقه من قلبه، فإن أول أسباب العشق الاستحسان سواء تولد عن نظر أو سماع. فإن لم يقارنه طمع في الوصال وقارنه الإياس من ذلك لم يحدث له العشق، فإن اقترن به الطمع فصرفه عن فكره، ولم يشتغل قلبه به لم يحدث له ذلك، فإن أطال مع ذلك الفكر في محاسن المعشوق وقارنه خوف ما هو أكبر عنده من لذة وصاله. إما خوف ديني كدخول النار وغضب الجبار واحتقاب الأوزار. وغلب هذا الخوف على ذلك الطمع والفكر لم يحدث له ذلك العشق. فإن فاته هذا الخوف فقارنه خوف دنيوي كخوف إتلاف نفسه، أو ماله، أو ذهاب جاهه، وسقوط مرتبته عند الناس وسقوطه من عين من يعز عليه، وغلب هذا الخوف لداعي العشق دفعه. وكذلك إذا خاف من فوات محبوب هو أحب إليه وأنفع من ذلك المعشوق وقدم محبته على محبة ذلك المعشوق اندفع عنه العشق، فإن انتفى ذلك كله وغلبت محبة المعشوق لذلك، انجذب إليه القلب بكليته، ومالت إليه النفس كل الميل.

فإن قيل: فد ذكرتم آفات العشق ومضاره ومفاسده، فهلا ذكرتم منافعه وفؤائده التى من جملتها: رقة الطبع، وترويح النفس، وخفتها، وزوال ثقلها، ورياضتها، وحملها على مكارم الأخلاق، من الشجاعة والكرم والمروءة ورقة الحاشية ولطف الجانب؟.

وقد قيل ليحيى بن معاذ الرازي: إن ابنك قد عشق فلانة، فقال: الحمد لله الذى صيره إلى طبع الآدمي.

وقال بعضهم: العشق داء أفئدة الكرام.

وقال غيره العشق لا يصلح إلا لذى مروءة ظاهرة وخليقة طاهرة، أو لذى لسان فاضل وإحسان كامل، أو لذى أدب بارع، وحس ناصع.

وقال آخر: العشق يشجع جنان الجبان، ويصفى ذهن الغبي، ويسخى كف البخيل، ويذل عزة الملوك، ويسكن نوافر الأخلاق، وهو أنيس من لا أنيس له، وجليس من لا جليس له.

وقال آخر: العشق يزيل الأثقال، ويلطف الروح، ويصفى كدر القلب، ويوجب الارتياح لأفعال الكرام، كما قال الشاعر:

سيهلك فى الدنيا شَفِيْقٌ عليكم ... إذا غَالَهُ من جانب الحب غَائِلَه
كريم يميت السِّرَّ حتى كأنه ... إذا استَفْهَمُوه عن حديثك جَاهِلُهُ
يود بأن يُمسى سقيما لعلها ... إذا سمعت عنه بشكوى تُراسِلُه
ويهتز للمعروف فى طلب العلا ... لتحمد يوماً عند ليلى شَمَائِلُه

فالعشق يحمل على مكارم الأخلاق.

وقال بعض الحكماء: العشق يروض النفس، ويهذب الأخلاق، إظهاره طبعي، وإضماره تكلفي.

وقال آخر: من لم تبتهج نفسه بالصوت الشجى والوجه البهي، فهو فاسد المزاج، محتاج إلى علاج، وأنشد فى ذلك:

إذا أنت لم تَعْشَق ولم تدر ما الهوَىَ فَمَـــا لَكَ فى طِـيْبِ الحياة نَصِـيبُ

وقال آخر:

إذا أنت لم تَعْشَقْ ولم تدر ما الهوَىَ فأنـــت وعـــير فـــى الفَـــلاَة سَـــوَاءُ

وقال آخر:

إذا أنت لم تعشق ولم تَدرِ ما الهوى فكن حجراً من جانب الصخر جَلْمَداً

وقال آخر:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فقـــم فَاعْتَلِــفْ تِبْناً، فأنــت حمَــارُ

وقال بعض العشاق أولو العفة والصيانة: عفوا تشرفوا، واعشقوا تظرفوا.

وقيل لبعض العشاق: ما كنت تصنع لو ظفرت بمن تهوي؟ فقال: كنت أمتع طرفى بوجهه، وأروِّح قلبى بذكره وحديثه، وأستر منه ما لا يحب كشفه، ولا أصير بقبيح الفعل إلى ما ينقض عهده. ثم أنشد:

أخلـــو به فأعــف عنه تكَـــرُّماً خـــــوف الدِّيـــانة لســت من عَشَّاقهْ

كالمـــــاء فى يـد صائـــم يَلْـتَدُّهُ ظمـــأ، فيصـــبر عــن لذيــذ مَذَاقِـــهْ

وقال إسحاق بن راهويه: أرواح العشاق عطرة لطيفة، وأبدانهم رقيقة خفيفة، نزهتهم المؤانسة، وكلامهم يحيى موات القلوب، ويزيد فى العقول، ولولا العشق والهوى لبطل نعيم الدنيا.

وقال آخر: العشق للأرواح بمنزلة الغذاء للأبدان، إن تركته ضرك، وإن أكثرت منه قتلك، وفى ذلك قيل:

خَلِيْلِـــيَّ إنَّ الحـــب فيه لَـــذَاذَةٌ وفيـــه شقـاء دائـــم وكُـــرُوبُ

على ذاك ما عيـش يطيـــب بغيـره ولا عَيْـــشٌ إلا بالحبيـــب يَطيـــبُ

ولا خـير فى الدنيا بغــير صَبَـابَـةٍ ولا فى نعيـــم ليـس فيه حَبِيـــبُ

وذكر الخرائطى عن أبى غسان قال: مر أبو بكر الصديق رضي الله عنه بجارية وهى تقول:

وهَوَيْتُهُ مـــنْ قَبْـلِ قَطْـعِ تَمَائمـى   مُتَمَايِــلاً مثل القَضِـــيب النَّاعِمِ

فسألها: أحرة أنت أم مملوكة؟ قالت: بل مملوكة، فقال: من هواك؟ فتلكأت: فأقسم عليها. فقالت:

وأنا التى لعب الهـــوى بفؤادهــــا   قتـــلت بحب محمـد بن القاسم

فاشتراها من مولاها، وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبى طالب فقال: هؤلاء فتن الرجال، وكم والله قد مات بهن كريم، وعطب بهن سليم.

وجاءت جارية إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه تستعدى على رجل من الأنصار، فقال لها عثمان: ما قصتك؟ فقالت: كلفت يا أمير المومنين بابن أخيه،

فما أنفك أراعيه، فقال عثمان: إما أن تهبها لابن أخيك. أو أعطيك ثمنها من مالي، فقال: أشهدك يا أمير المؤمنين أنها له.

ونحن لا ننكر فساد العشق الذى متعلقه فعل الفاحشة بالمعشوق، وإنما الكلام فى العشق العفيف، من الرجل الظريف، الذى يأبى له دينه وعفته ومروءته أن يفسد ما بينه وبين الله، وما بينه وبين معشوقه بالحرام، وهذا عشق السلف الكرام، الأئمة الأعلام، فهذا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد الفقهاء السبعة عشق حتى اشتهر أمره، ولم ينكر عليه، وعد ظالماً من لامه، ومن شعره:

كتمــت الهوى حتى أضَرَّ بك الكَتْمُ   ولامـك أقْـــوامٌ ولومُهُـــمْ ظُلْـــمُ

فنم عليــك الكاشحـــون وقبلهـــم   عليك الهوى قد نم لو ينفع الكَتْـــمُ

فأصبحت كالهندى إذا مات حســرة   على إثر هند أو كمـــن شفـه سُقْـمُ

تجنبــت إتيـــان الحبيـــب تأثمــاً   ألا إن هجران الحبـيب هو الإثـــم

فـــذق هجـــرها، قد كنت تزعم أنـه   رشــاد ألا يا ربما كـذب الزَّعْـــمُ

وهذا عمر بن عبد العزيز وعشقه مشهور لجاريه فاطمة بنت عبد الملك، وكانت جارية بارعة الجمال، وكان معجباً بها، وكان يطلبها من امرأته ويحرص على أن تهبها له، فتأبى، ولم تزل الجارية فى نفس عمر، فلما استخلف أمرت فاطمة

بالجارية فأصلحت، وكانت مثلاً فى حسنها وجمالها، ثم دخلت على عمر، وقالت، يا أمير المؤمنين إنك كنت معجباً بجاريتى فلانة، وسألتها فأبيت عليك، والآن فقد طابت نفسى لك بها، فلما قالت له ذلك استبان الفرح فى وجهه، وقال: عجلى على بها، فلما دخلت بها عليه ازداد بها عجباً، وقال لها: ألقى ثيابك، ففعلت ثم قال لها: على رسلك، أخبرينى لمن كنت؟ ومن أين صرت لفاطمة؟ فقالت: أغرم الحجاج عاملاً له بالكوفة مالاً، وكنت فى رقيق ذلك العامل، فأخذنى وبعث بى إلى عبد الملك فوهبنى لفاطمة، قال: وما فعل ذلك العامل؟ قالت: هلك، قال: وهل ترك ولداً؟ قالت: نعم، قال: فما حالهم؟ قالت: سيئة، فقال: شدى عليك ثيابك واذهبى إلى مكانك، ثم كتب إلى عامله على العراق: أن ابعث إلىَّ فلان بن فلان على البريد، فلما قدم قال له: ارفع إلى جميع ما أغرمه الحجاج لأبيك، فلم يرفع إليه شيئاً إلا دفعه إليه، ثم أمر بالجارية فدفعت إليه ثم قال له: إياك وإياها، فلعل أباك قد ألم بها، فقال الغلام: هى لك يا أمير المؤمنين، قال: لا حاجة لى بها، قال: فابتعها مني، قال: لست إذاً ممن نهى النفس عن الهوى، فلما عزم الفتى على الانصراف بها قالت: أين وجدك بى يا أمير المؤمنين؟ قال: على حاله، ولقد زاد. ولم تزل الجارية فى نفس عمر، حتى مات رحمه الله.

وهذا أبو بكر محمد بن داود الظاهرى العالم المشهور فى فنون العلم من: الفقه، والحديث، والتفسير، والأدب، وله قول فى الفقه، وهو من أكابر العلماء، وعشقه مشهور.

قال نفطويه: دخلت عليه فى مرضه الذى مات فيه، فقلت: كيف تجدك؟ فقال: حب من تعلم أورثنى ما ترى، فقلت: وما يمنعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه؟ فقال: الاستمتاع على وجهين: أحدهما: النظر المباح، والآخر: اللذة المحظورة، فأما النظر المباح فهو الذى أورثنى ما ترى، وأما اللذة المحظورة فمنعنى منها ما حدثنى أبى حدثنا سويد بن سعيد حدثنا على بن مُسهر عن أبى يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه: **«من عشق وكتم وعف وصبر، غفر الله له وأدخله الجنة»**[1].

---

(1) موضوع: أخرجه الخطيب في تاريخه (5/ 252).

ثم أنشد:

انظر إلى السحر يجرى فى لَوَاحظه   وانظر إلى دَعَجٍ طَرْفه السَّاجي

وانظر إلى شَعَرات فوق عارضه   كأنهن نمالٌ دَبَّ فى عَاجِ

ثم أنشد:

لمَا لهم أنكروا سَواداً بخَدَّيه   ولا ينكرون ورد الغصُون

إن يكن عيب خده برد الشعر   فَعَيْبُ العيون شَعْرُ الجُفُون

فقلت له: نفيت القياس فى الفقه وأثبته فى الشعر؟ فقال: غلبة الوجد وملكة النفس دعت إليه، ثم مات من ليلته، وبسبب معشوقه صنف كتاب «الزهرة».

ومن كلامه فيه: «من يئس ممن يهواه ولم يمت من وقته سلاه، وذلك أن أول روعات اليأس تأتى القلب وهو غير مستعد لها، فأما الثانية فتأتى القلب وقد وطأته لها الروعة الأولى».

والتقى هو وأبو العباس بن سريج فى مجلس أبى الحسن على بن عيسى الوزير، فتناظرا فى مسألة من الإيلاء، فقال له ابن سريج: أنت بأن تقول: من دامت لحظاته كثرت حسراته، أحذق منك بالكلام على الفقه، فقال: لئن كان ذلك فإنى أقول:

أُنَزِّهُ فى رَوْضِ المَحَاسِنِ مُقْلَتى   وأمنع نفسى أن تنال مُحَرَّماً

وأحمل من ثقل الهوى ما لو أنهُ   يصب على الصخر الأصم تَهَدَّماً

وينطق طرفى عن مُتَرجَم خَاطرى   فلولا اختلاسى ودَّهُ لَتكَلَّمَا

رأيت الهوَى دعوى من الناس كلهم   فلست أرى ودا صحيحاً مسلَّمَا

فقال له أبو العباس بن سريج: بم تفخر علي؟ ولو شئت لقلت:

ومطاعم كالشُّهْد فى نَغَمَاتِه   قد بت أمْنَعُهُ لذيذ سناته

بصبابة وبحسنه وحديثه   وأنز اللَّحَظَات عن وجناته

حتى إذا ما الصُّبح لاحَ عَمُودُهُ   ولى بخَاتَم ربه وبراته

فقال أبو بكر: يحفظ عليه الوزير ما أقر به حتى يقيم شاهد على أنه ولى بخاتم ربه وبراءته، فقال ابن سريج: يلزمنى فى هذا ما يلزمك فى قولك:

أنزه فى روض المحاسـن مُقْلَتـى وأمنـع نفسـى أن تنـال مُحَرَّمَاً

فضحك الوزير، وقال: لقد جمعتما لطفاً وظرفاً، ذكر ذلك أبو بكر الخطيب فى تاريخه. وجاءته يوماً فتيا مضمونها:

يا ابن داود، يا فَقِيْـهَ العـراق أفتينـا فى قَوَاتـل الأحْـداق

هل عليـها بما أتـت من جنـاح أم حَـلالٌ لهـا دم العُـشَّاق؟

فكتب الجواب بخطه تحت البيتين:

عندى جواب مسائل العُشَّـاق فاسمعـه من قَـرح الحَشَا مُشْتَاق

لما سألت عن الهـوى هَيَّجْتَـنى وأرقت دمعـاً لـم يكـن بمُـرَاق

إن كان معشوقاً يعذب عاشقـاً كـان المُعَـذَّبُ أنعـم العشـاق

قال صاحب كتاب «منازل الأحباب» شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد صاحب كتاب «الإنشاء»: وقلت فى جواب البيتين على قافيتها مجيباً:

قـل لمن جـاء سائلاً عن لحَـاظ هُـنَّ يلعـبن فى دم العُشَّـاق

ما على السَّيف فى الورى من جُنَاحٍ إن ثنـى الحَـدُّ عن دم مُهْـرَاقَ

وسيـوف اللِّحَـاظ أولـى بـأن تصفـح عما جنت على العُشَّاقَ

إنما كـل مـن قتلـن شَهِـيدٌ ولهـذا يَفْنَى ضَنَـى وهُوَ بـاَقَ

ونظير ذلك فتوى وردت على الشيخ أبى الخطاب محفوظ بن أحمد الكلوذانى شيخ الحنابلة فى وقته رحمه الله:

قُلْ للإمـام الخَطَّـاب مسألـةٌ جَـاءَتْ إليكَ وما خَلْقٌ سواكَ لهـا

ماذا على رجلٍ رَامَ الصَّلاَة فَمُـد لاَحَتْ لخَاطِـرِه ذَاتُ الجَمَـال لها

فأجاب تحت سؤاله:

قُلْ لأديـب الذى وافى بمسـألة سَـرَّتْ فـؤادى لما أن أصَخْتُ لَهَا

إن التـــي فتنتــه عـــن عبـــادته   خريدة ذات حســـن فانثنـــى وَلَهَـــا
إن تاب ثم قَضَـى عنـــه عـــبادته   فرحمة الله تَغْشَى من عَصَـــى وَلَهَـــا

وقال عبد الله بن معمر القيسي: حججت سنة، ثم دخلت ذات ليلة مسجد المدينة لزيارة قبر رسول الله ﷺ، فبينا أنا جالس ليلة بين القبر والمنبر، إذ سمعت أنيناً فأصغيت إليه، فإذا هو يقول:

أشجاك نوح حمائم فى السحـــر   فأهجـــن منـــك بلابـــل الصـــدر
أم عـــز نومـــك ذكـــر غانيـــة   أهـدت إليـــك وســـاوس الفكـــر
يا ليلـــة طالـــت علـــى دنـــف   يشكـــو السهـــاد وقلـــة الصـــبر
أسلمت من تهوى لحـــر جـــوى   متـــوقـــداً كتـــوقـــد الجمـــر
فالبدر يشهـــــد أننـــى كلـــف   مغرى بحـــب شبيهـــة البـــدر
ما كنت أحســـب أهيـــم بهـــا   حتـــى بليـــت وكنـــت لا أدرى

ثم انقطع الصوت، فلم أدر من أين جاء، وإذا به قد أعاد البكاء والأنين، ثم أنشد:

أشجـــاك من ريا خيـــال زائـــر   والليـــل مسود الذوائـــب عاكـــر
واغتال مهجتك الهوى برسيســـه   واهتاج مقلتـــك الخيـــال الزائـــر
ناديت: ريـــا والظـــلام كأنـــه   يـــم تـــلاطـــم فيـــه مـــوج زاخـــر
والبـد يـــسرى فى السمـــاء كأنه   ملك ترجـــل والنجـــوم عســـاكر
وترى به الجوزاء ترقص فى الدجى   رقص الحبيب علاه ســكر ظـــاهـــر
يا ليل طلـت علـى محـب مالـــه   إلا الصبـــاح مساعـــد ومـــوازر
فأجابني: مت حتف أنفك واعلمن   أن الهوى لهو الهـــوان الحـــاضـــر

قال: وكنت ذهبت عند ابتدائه بالأبيات فلم ينتبه إلا وأنا عنده، فرأيت شاباً مقتبلاً شبابه قد خرق الدمع فى خده خرقين، فسلمت عليه، فقال: اجلس من أنت؟ قلت: عبد الله بن معمر القيسي، قال: ألك حاجة؟ قلت: نعم، كنت

جالساً في الروضة فما راعني إلا صوتك. فبنفسي أفديك، فما الذي تجد؟ فقال: أنا عتبة بن الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري، غدوت يوماً إلى مسجد الأحزاب فصليت فيه، ثم اعتزلت غير بعيد، فإذا أنا بنسوة قد أقبلن يتهادين مثل القطا، وإذا في وسطهن جارية بديعة الجمال، كاملة الملاحة، فوقفت عليّ فقالت:

يا عتبة، ما تقول في وصل من تطلب وصلك؟ ثم تركتني وذهبت فلم أسمع لها خبراً، ولا قفوت لها أثراً، وأنا حيران أنتقل من مكان إلى آخر، ثم صرخ وأكب مغشياً عليه، ثم أفاق كأنما صبغت وجنتاه بورس، وهو يقول:

أراكم بقلبي من بلاد بعيدة — فيا هل تروني بالفؤاد على بعدي

فؤادي وطرفي يأسفان عليكم — وعندكم روحي وذكركم عندي

ولست ألذ العيش حتى أراكم — ولو كنت في الفردوس في جنة الخلد

فقلت: يا ابن أخي تب إلى ربك واستغفره من ذنبك، فبين يديك هول المطالع، فقال: ما أنا بسال حتى يئوب القارظان، ولم أزل معه إلى أن طلع الصبح، فقلت: قم بنا إلى مسجد الأحزاب، فلعل الله أن يكشف كربتك، فقال: أرجوا ذلك إن شاء الله ببركة طلعتك، فذهبنا حتى أتينا مسجد الأحزاب فسمعته يقول:

يا للرجال ليوم الأربعاء أما — ينفك يحدث لي بعد النهى طربا

ما إن يزال غزال منه يقتلني — يأتي إلى مسجد الأحزاب منتقباً

يخبر الناس أن الأجر همته — وما أتى طالباً للخير محتسباً

لو كان يبغي ثواباً ما أتى صلفا — مضمخاً بفتيت المسك مضمخاً

ثم جلسنا حتى صلينا الظهر، وإذا بالنسوة قد أقبلن وليست الجارية فيهن، فوقفن عليه، وقلن له: يا عتبة ما ظنك بطالبة وصلك، وكاسفة بالك؟ قال: وما بالها؟ قلن: أخذها أبوها وارتحل بها إلى أرض السماوة، فسألتهن عن الجارية، فقلن: هي ريا ابنة الغطريف السلمي، فرفع عتبة رأسه إليهن وقال:

خليلي ريا قد أجد بكورها — وسارت إلى أرض السماوة عيرها

خليلي إني قد عشيت من البكا — فهل عند غيري مُقلة أستعيرها؟

فقلت له: إنى قد وردت بمال جزيل أريد به أهل الستر، ووالله لأبذلنه أمامك حتى تبلغ رضاك وفوق رضاك، فقم بنا إلى مسجد الأنصار، فقمنا وسرنا حتى أشرفنا على ملأ منهم، فسلمت فأحسنوا الرد، فقلت: أيها الملأ، ما تقولون فى عتبة وأبيه؟ قالوا: من سادات العرب، قلت: فإنه قد رمى بداهية من الهوي، وما أريد منكم إلا المساعدة إلى السماوة، فقالوا: سمعاً وطاعة، فركبنا وركب القوم معنا حتى أشرفنا على منازل بنى سليم، فأعلم الغطريف بنا فخرج مبادراً فاستقبلنا، وقال: حييتم يا كرام، فقلنا: وأنت فحياك الله، إنا لك أضياف، فقال: نزلتم أكرم منزل، ثم نادى: يا معشر العبيد، أنزلوا القوم، ففرشت الأنطاع والنمارق وذبحت الذبائح، فقلنا: لسنا بذائقى طعامك حتى تقضى حاجتنا، فقال: وما حاجتكم؟ قلنا: نخطب عقيلتك الكريمة لعتبة بن الحباب بن المنذر، فقال: إن التى تخطبونها أمرها إلى نفسها، وأنا أدخل أخبرها، ثم دخل مغضباً على ابنته، فقالت: يا أبت ما لى أرى الغضب فى وجهك؟ فقال: قد ورد الأنصار يخطبونك مني، فقالت: سادات كرام، استغفر لهم النبي ﷺ ، فلمن الخطبة منهم؟ فقال: لعتبة بن الحباب، قالت: والله لقد سمعت عن عتبة هذا أنه يفى بما وعد، ويدرك إذا قصد، فقال: أقسمت لأزوجنك به أبداً، ولقد نمى إلى بعض حديثك معه، فقالت: ما كان ذلك، ولكن إذا أقسمت، فإن الأنصار لا يردون رداً قبيحاً، حسن لهم الرد، فقال: بأى شئ؟ قالت: أغلظ لهم المهر، فإنهم يرجعون ولا يجيبون، فقال: ما أحسن ما قلت: ثم خرج مبادراً، فقال: إن فتاة الحى قد أجابت، ولكنى أريد لها مهر مثلها، فمن القائم به؟ فقال عبد الله بن معمر: أنا، فقل ما شئت، فقال: ألف مثقال من الذهب، ومائة ثوب من الأبراد، وخمسة أكرشة عنبر، فقال عبد الله: لك ذلك كله، فهل أجبت؟ قال: أجل، قال عبد الله: فأنفذت نفراً من الأنصار إلى المدينة، فأتوا بجميع ما طلب، ثم صنعت الوليمة، وأقمنا على ذلك أياماً، ثم قال: خذوا فتاتكم وانصرفوا مصاحبين، ثم حملها فى هودج وجهزها بثلاثين راحلة من المتاع والتحف، فودعناه وسرنا، حتى إذا بقى بيننا وبين المدينة مرحلة واحدة، خرجت علينا خيل تريد الغارة أحسبها من سليم، فحمل عليها عتبة بن الحباب، فقتل منهم رجالاً، وجرح آخرين، ثم رجع وبه طعنة تفور دماً، فسقط إلى الأرض، وانثنى بخده، فطردت

عنا الخيل وقد قضى عتبة نحبه، فقلنا: واعتبتاه، فسمعتنا الجارية، فألقت نفسها من البعير، وجعلت تصيح بحرقة، وأنشدت:

تصـــبرت لا أني صـــبرت وإنمـــا أعلــــل نفســى أنها بك لاحقـــة

فلو أنصفت روحي لكانت إلى الردى أمامــك من دون الــبريــة سابقــه

فما أحــد بــعدي وبعـدك منصـــف خليلاً ولا نفس لنفـــس موافقـــه

ثم شهقت وقضت نحبها، فاحتفرنا لهما قبراً واحداً ودفناهما فيه، ثم رجعت إلى المدينة فأقمت سبع سنين، ثم ذهبت إلى الحجاز ووردت المدينة، فقلت: والله لأتين قبر عتبة أزوره، فأتيت القبر، فإذا عليه شجرة عليها عصائب حمر وصفر، فقلت لأرباب المنزل، ما يقال لهذه الشجرة؟ قالوا: شجرة العروسين.

ولو لم يكن في العشق من الرخصة المخالفة للتشديد إلا الحديث الوارد بالحسن من الأسانيد، وهو حديث سويد بن سعيد، عن علي بن مُسهر، عن أبي يحيى القتات، عن مجاهد، عن ابن عباس يرفعه: «**من عشق وعف، وكتم فمات، فهو شهيد**»[1] ورواه سويد أيضاً، عن ابن مسهر، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة مرفوعاً، ورواه الخطيب، عن الأزهري، عن المعافى بن زكريا، عن قطبة، عن ابن الفضل، عن أحمد بن مسروق عنه، ورواه الزبير بن بكار، عن عبد العزيز الماجشون، عن عبد العزيز بن أبي حازم، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس.

وهذا سيد الأولين والآخرين ورسول رب العالمين ﷺ نظر إلى زينب بنت جحش رضي الله عنها فقال: «**سبحان مقلب القلوب**»[2] وكانت تحت زيد بن حارثة مولاه، فلما هم بطلاقها قال له: «**اتق الله وأمسك عليك زوجك**» فلما طلقها زوجها الله سبحانه من رسوله ﷺ من فوق سبع سماوات، فكان هو وليها وولي تزويجها من رسوله ﷺ، وعقد نكاحها فوق عرشه، وأنزل على رسوله ﷺ: ﴿**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ**﴾ [الأحزاب: 37].

---

(1) موضوع: انظر ضعيف الجامع (5698).

(2) باطل بهذا السياق: رواه ابن سعد في الطبقات (8/ 80-81).

وهذا داود نبي الله عليه السلام لما كان تحته تسع وتسعون امرأة، ثم أحب تلك المرأة فتزوجها وكمل بها المائة.

وقال الزهري: أول حب كان في الإسلام، حب النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها، وكان مسروق يسميها: حبيبة رسول الله ﷺ.

وقال أبو قيس مولى عبد الله بن عمرو: «أرسلني عبد الله بن عمرو إلى أم سلمة أسألها: أكان النبي ﷺ يقبل أهله وهو صائم؟ فقالت: لا، فقال: إن عائشة رضي الله عنها قالت: **كان يقبلها وهو صائم فقالت: أم سلمة رضي الله عنها: إن النبي ﷺ كان إذا رأى عائشة لا يتمالك عنها**»[1].

وذكر سعيد بن إبراهيم، عن عامر بن سعد، عن أبيه، قال: كان إبراهيم الخليل ﷺ يزور هاجر في كل يوم من الشام على البراق لشغفه بها، وقلة صبره عنها!!.

وذكر الخرائطي أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما اشترى جارية رومية، فكان يحبها حباً شديداً، فوقعت ذات يوم عن بغلة له، فجعل يمسح التراب عن وجهها ويقبلها، وكانت تكثر أن تقول له: يا بطرون أنت قالون، تعني يا مولاي أنت جيد، ثم إنها هربت منه، فوجد عليها وجداً شديداً، وقال:

قد كنت أحسبني قالون فانصرفت ... فاليوم أعلم أني غير قالون

قال أبو محمد بن حزم: وقد أحب من الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين كثير، وقال رجل لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين، رأيت امرأة فعشقتها، فقال: ذلك ما لا تملك.

فالجواب، وبالله التوفيق.

إن الكلام في هذا الباب لابد فيه من التمييز بين الحرام والجائز، والنافع والضار، ولا يحكم عليه بالذم والإنكار، ولا بالمدح والقبول من حيث الجملة، وإنما يبين حكمه وينكشف أمره بذكر متعلقه، وإلا فالعشق من حيث هو لا يحمد ولا يذم، ونحن نذكر النافع من الحب والضار، والجائز والحرام.

---

(1) ضعيف: رواه أحمد (25993) والطحاوى (1/ 346)، قال الألباني: وإسناده على شرط مسلم وفي إسناده موسى بن علي احتج به مسلم. وتكلم فيه بعضهم فقال ابن معين: «لم يكن بالقوى» والحديث يعارض ما صح من فعله ﷺ وتقبيله لأم سلمة ﷺ وهو في صحيح مسلم وانظر الإرواء (934).

المحبة النافعة

اعلم أن أنفع المحبة على الإطلاق، وأوجبها وأعلاها، وأجلها محبة من جبلت القلوب على محبته، وفطرت الخليقة على تأليهه، وبها قامت الأرض والسماوات، وعليها فطرت المخلوقات، وهى سر شهادة أن لا إله إلا الله، فإن الإله هو الذى تألهه القلوب بالمحبة والإجلال، والتعظيم والذل له والخضوع، والتعبد والعبادة لا تصلح إلا له وحده، والعبادة هى كمال الحب مع كمال الخضوع والذل، والشرك فى هذه العبودية من أظلم الظلم الذى لا يغفره الله، والله تعالى يحب لذاته من جميع الوجوه، وما سواه فإنما يحب تبعاً لمحبته.

وقد دل على وجوب محبته سبحانه جميع كتبه المنزلة، ودعوة جميع رسله، وفطرته التى فطر عباده عليها، وما ركب فيهم من العقول، وما أسبغ عليهم من النعم، فإن القلوب مفطورة مجبولة على محبة من أنعم عليها وأحسن إليها، فكيف بمن كل الإحسان منه، وما بخلقه جميعهم من نعمة فمنه وحده لا شريك له، كما قال تعالي: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل:53] وما تعرف به إلى عباده من أسمائه الحسنى وصفاته العلا، وما دلت عليه آثار مصنوعاته من كماله ونهاية جلاله وعظمته.

والمحبة لها داعيان: الجمال، والجلال، والرب تعالى له الكمال المطلق من ذلك، فإنه جميل يحب الجمال بل الجمال كله له، والإجلال كله منه، فلا يستحق أن يحب لذاته من كل وجه سواه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:31] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (54) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (55) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة:54-56].

والولاية أصلها الحب، فلا موالاة إلا بحب، كما أن العداوة أصلها البغض، والله ولى الذين آمنوا وهم أولياؤه، فهم يوالونه بمحبتهم له، وهو يواليهم بمحبته لهم، فالله تعالى يوالى عبده بحسب محبته له.

ولهذا أنكر سبحانه على من اتخذ من دونه أولياء بخلاف من والى أولياءه، فإنه لم يتخذهم أولياء من دونه، بل موالاته لهم من تمام موالاته.

وقد أنكر على من يسوى بينه وبين غيره فى المحبة، وأخبر أن من فعل ذلك فقد اتخذ من دونه أنداداً يحبهم كحب الله، قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾[البقرة:165] وأخبر عمن يسوى بينه وبين الأنداد فى الحب، أنهم يقولون فى النار لمعبوديهم: ﴿**تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[الشعراء:97-98].

وبهذا التوحيد فى الحب أرسل الله سبحانه جميع رسله، وأنزل جميع كتبه، وأطبقت عليه دعوة جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم، ولأجله خلقت السماوات والأرض، والجنة والنار، فجعل الجنة لأهله، والنار للمشركين به فيه.

وقد أقسم النبي ﷺ أنه: «**لا يؤمن عبد حتى يكون هو أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»[1] فكيف بمحبة الرب جل جلاله؟.

وقال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**لا، حتى أكون أحب إليك من نفسك**» أى لا تؤمن حتى تصل محبتك إلى هذه الغاية.

وإذا كان النبي ﷺ أولى بنا من أنفسنا فى المحبة ولوازمها أفليس الرب جل جلاله وتقدست أسماؤه وتبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره، أولى بمحبة عباده من أنفسهم؟ وكل ما منه إلى عبده المؤمن يدعوه إلى محبته، مما يحب العبد ويكره، فعطاؤه ومنعه، ومعافاته وابتلاؤه، وقبضه وبسطه، وعدله، وفضله، وإماتته وإحياؤه، ولطفه، وبره، ورحمته وإحسانه، وستره وعفوه، وحمله وصبره على عبده، وإجابته لدعائه وكشف كربه، وإغاثة لهفته، وتفريج كربته من غير حاجة منه إليه، بل مع غناه التام عنه من جميع الوجوه، كل ذلك داع للقلوب إلى تألهه، ومحبته، بل تمكينه عبده من معصيته وإعانته عليها، وستره حتى يقضى وطره منها وكلاءته وحراسته له، ويقضى وطره من معصيته، يعينه ويستعين عليها بنعمه -من

(1) صحيح: رواه البخاري (15)، ومسلم (44) والترمذي (2515)، والنسائي (5013،5014).

أقوى الدواعي إلى محبته، فلو أن مخلوقاً فعل بمخلوق أدنى شئ من ذلك لم يملك قلبه عن محبته، فكيف لا يحب العبد بكل قلبه وجوارحه من يحسن إليه على الدوام بعدد الأنفاس، مع إساءته؟ فخيره إليه نازل، وشره إليه صاعد، يتحبب إليه بنعمه وهو غنى عنه، والعبد يتبغض إليه بالمعاصى وهو فقير إليه، فلا إحسانه وبره وإنعامه عليه يصده عن معصيته، ولا معصية العبد ولؤمه، يقطع إحسان ربه عنه.

فألأم اللؤم تخلف القلوب عن محبة من هذا شأنه، وتعلقها بمحبة سواه.

وأيضاً، فكل من تحبه من الخلق ويحبك إنما يريدك لنفسه وغرضه منك، والله تعالى يريدك لك، كما فى الأثر الإلهى «**عبدى كلٌّ يريدك لنفسه، وأنا أريدك لي**» فكيف لا يستحيى العبد أن يكون ربه له بهذه المنزلة، وهو معرض عنه مشغول بحب غيره، قد استغرق قلبه بمحبة سواه؟.

وأيضاً، فكل من تعامله من الخلق إن لم يربح عليك لم يعاملك، ولابد له من نوع من أنواع الربح، والرب تعالى إنما يعاملك لتربح أنت عليه أعظم الربح وأعلاه، والدرهم بعشرة أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والسيئة بواحدة وهى أسرع شئ محواً.

وأيضاً فهو سبحانه خلقك لنفسه، وخلق كل شئ لك فى الدنيا والآخرة، فمن أولى منه باستفراغ الوسع فى محبته وبذل الجهد فى مرضاته؟.

وأيضاً فمطالبك -بل مطالب الخلق كلهم جميعاً- لديه، وهو أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، أعطى عبده قبل أن يسأله فوق ما يؤمله، يشكر القليل من العمل وينميه، ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه، يسأله من فى السموات والأرض، كل يوم هو فى شأن، لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه كثرة المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، بل يحب الملحين فى الدعاء، ويحب أن يسأل، ويغضب إذا لم يُسأل، يستحى من عبده حيث لا يستحى العبد منه، ويستره حيث لا يستر نفسه، ويرحمه حيث لا يرحم نفسه، دعاه بنعمه وإحسانه وأياديه إلى كرامته ورضوانه فأبى، فأرسل رسله فى طلبه، وبعث إليه معهم عهده، ثم نزل إليه سبحانه نفسه وقال: «**من**

يسألنى فأعطيه؟ من يستغفرنى فأغفر له؟»[1] كما قيل: أدعوك للوصل تأبى، أبعث رسولى فى الطلب، أنزل إليك بنفسي، ألقاك فى النوم.

وكيف لا تحب القلوب من لا يأتى بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، ولا يجيب الدعوات، ويقيل العثرات، ويغفر الخطيئات، ويستر العورات، ويكشف الكربات، ويغيث اللهفات، وينيل الطلبات سواه؟.

فهو أحق من ذُكر، وأحق من شكر، وأحق من عبد، وأحق من حمد، وأبصر من ابتغي، وأرأف من مَلَك، وأجود من سئل، وأوسع من أعطى، وأرحم من استرحم، وأكرم من قصد، وأعز من التجئ إليه، وأكفى من توكل العبد عليه، أرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأشد فرحاً بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض المهلكة إذا يئس من الحياة ثم وجدها.

وهو الملك لا شريك له، والفرد فلا ند له، كل شئ هالك إلا وجهه، لن يطاع إلا بإذنه، ولن يعصى إلا بعلمه، يطاع فيشكر، وبتوفيقه ونعمته أطيع، ويُعصى فيغفر، ويعفو وحقه أضيع، فهو أقرب شهيد، وأجل حفيظ، وأوفى بالعهد، وأعدل قائم بالقسط، حال دون النفوس، وآخذ بالنواصي، وكتب الآثار، ونسخ الآجال، فالقلوب له مفضية، والسر عنده علانية، والغيب لديه مكشوف، وكل أحد إليه ملهوف، وعنت الوجوه لنور وجهه، وعجزت العقول عن إدراك كنهه، ودلت الفطر والأدلة كلها على امتناع مثله وشبهه، أشرقت لنور وجهه الظلمات، واستنارت له الأرض والسماوات، وصلحت عليه جميع المخلوقات، لا ينام ولا ينبغى له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، ويرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، ولو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه:

ما اعتاض باذل حبه لسـواه من عـوض، ولو ملـك الوجـود بأسره

(1) صحيح : رواه البخاري (6321) في الدعوات ، ومسلم (758) في صلاة المسافرين.

فصـــل

كمال اللذة في كمال المحبوب وكمال المحبة

وها هنا أمر عظيم يجب على اللبيب الاعتناء به، وهو أن كمال اللذة والفرح والسرور، ونعيم القلب وابتهاج الروح تابع لأمرين:

أحدهما: كمال المحبوب في نفسه وجماله، وأنه أولى بإيثار المحبة من كل ما سواه.

والأمر الثاني: كمال محبته، واستفراغ الوسع في حبه، وإيثار قربه، والوصول إليه بكل شيء.

وكل عاقل يعلم أن اللذة بحصول المحبوب بحسب قوة محبته، فكلما كانت المحبة أقوى كانت لذة المحبة أكمل، فلذة من اشتد ظمؤه بإدراك الماء الزلال، ومن اشتد جوعه بأكل الطعام الشهي، ونظائر ذلك على حسب شوقه وشدة إرادته ومحبته.

وإذا عرف هذا، فاللذة والسرور والفرح أمر مطلوب في نفسه، بل هو مقصود كل حي وعاقل، وإذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها فهي تذم إذا أعقبت ألماً أعظم منها، أو منعت لذة خيراً منها وأجلَّ، فكيف إذا أعقبت أعظم الحسرات، وفوتت أعظم اللذات والمسرات؟ وتحمد إذا أعانت على لذة عظيمة دائمة مستقرة لا تنغيص فيها ولا نكد بوجه ما، وهي لذة الآخرة ونعيمها وطيب العيش فيها، قال الله تعالى: ﴿**بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ**﴾[الأعلى:16-17] وقال السحرة لفرعون لما آمنوا: ﴿**فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ**﴾ [طه:72-73].

والله سبحانه خلق الخلق لينيلهم هذه اللذة الدائمة في دار الخلد، وأما هذه الدار فمنقطعة، ولذاتها لا تصفو أبداً ولا تدوم، بخلاف الآخرة، فإن لذاتها دائمة، ونعيمها خالص من كل كدر وألم، وفيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، مع الخلود أبداً، ولا تعلم نفس ما أخفى الله لعباده فيها من قرة أعين، بل فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهذا المعنى الذي قصده الناصح لقومه بقوله: ﴿**يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ**

الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر:38-39] فأخبرهم أن الدنيا متاع يتمتع بها إلى غيرها، وأن الآخرة هى المستقر.

وإذا عُرِف أن لذات الدنيا، ونعيمها متاع ووسيلة إلى لذات الآخرة، ولذلك خلقت الدنيا ولذاتها، فكل لذة أعانت على لذة الآخرة وأوصلت إليها لم يذم تناولها، بل يحمد بحسب إيصالها إلى لذة الآخرة.

رؤيــة اللــه

إذا عرف هذا، فأعظم نعيم الآخرة ولذاتها: هو النظر إلى وجه الرب جل جلاله، وسماع كلامه منه، والقرب منه، كما ثبت فى الصحيح فى حديث الرؤية: «**فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه**»[1] وفى حديث آخر: «**إنه إذا تجلى لهم ورأوه نسوا ما هم فيه من النعيم**»[2].

وفى النسائى ومسند الإمام أحمد من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فى دعائه: «**وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم، والشوق إلى لقائك**»[3].

وفى كتاب «السنة» لعبد الله ابن الإمام أحمد مرفوعاً: «**كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن، إذا سمعوه من الرحمن فكأنهم لم يسمعوه قبل ذلك**».

وإذا عرف هذا، فأعظم الأسباب التى تحصل هذه اللذة هو أعظم لذات الدنيا على الإطلاق، وهو لذة معرفة الله سبحانه وتعالى ولذة محبته، فإن ذلك هو جنة الدنيا ونعيمها العالي، ونسبة لذاتها الفانية إليه كتفلة فى بحر، فإن الروح والقلب والبدن إنما خلق لذلك، فأطيب ما فى الدنيا معرفته ومحبته، وألذ ما فى الجنة رؤيته ومشاهدته، فمحبته ومعرفته قرة العيون، ولذة الأرواح، وبهجة القلوب، ونعيم الدنيا وسرورها، بل لذات الدنيا القاطعة عن ذلك تنقلب آلاماً وعذاباً، ويبقى صاحبها فى المعيشة الضنك، فليست الحياة الطيبة إلا بالله.

---

(1) صحيح: رواه مسلم (181) في الإيمان، والترمذي (2552) في صفة الجنة وابن ماجه (187).
(2) ضعيف: رواه ابن ماجه (184) وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه برقم (33).
(3) سبق.

وكان بعض المحبين تمر به أوقات فيقول: إن كان أهل الجنة فى مثل هذا إنهم لفى عيش طيب، وقد تقدم ذلك، وكان غيره يقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

وإذا كان صاحب المحبة الباطلة التى هى عذاب على قلب المحب، يقول فى حاله:

وما الناس إلا العاشقون ذَوُو الهوى فــلا خير فيمــن لا يحــب ويعشق

ويقول:

أُفٍّ لدنيـــا إذا مـا لـــم يكـــن صاحب الدنيا محبــــاً أو حبيبــاً

وقال آخر:

ولا خير فى الدنيا ولا فـى نعيمهـا وأنــت وحيد مفــرد غــير عاشــق

وقال آخر:

اسْكُـــن إلى سكَـــنٍ تَلَــذُّ بحبـــه ذهـــب الزمـــان وأنـــت منفــرد

وقال:

تَشَكَّـــى المحبون الصبـــابة ليتنـــى تحملت ما يلقون من بينهـم وحدى

فكانت لقلبى لــذة الحـــب كلهـــا فلم يلقها قبلى محـــب ولا بعـــدى

فكيف بالمحبة التى هى حياة القلوب وغذاء الأرواح، وليس للقلب لذة، ولا نعيم، ولا فلاح، ولا حياة إلا بها؟ وإذا فقدها القلب كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها، والأذن إذا فقدت سمعها، والأنف إذا فقد شمه، واللسان إذا فقد نطقه، بل فساد القلب إذا خلا من محبة فاطره وبارئه وإلهه الحق، أعظم من فساد البدن إذا خلا من الروح، وهذا الأمر لا يصدق به إلا من فيه حياة، وما لجرح بميت إيلام.

والمقصود: أن أعظم لذات الدنيا هو السبب الموصل إلى أعظم لذة فى الآخرة، ولذات الدنيا ثلاثة أنواع:

فأعظمها وأكملها: ما أوصل إلى لذة الآخرة، ويثاب الإنسان على هذه اللذة أتم ثواب، ولهذا كان المؤمن يثاب على ما يقصد به وجه الله من أكله، وشربه، ولباسه،

ونكاحه، وشفاء غيظه بقهر عدو الله وعدوه، فكيف بلذة إيمانه، ومعرفته بالله، ومحبته له، وشوقه إلى لقائه، وطمعه فى رؤية وجهه الكريم فى جنات النعيم؟.

النوع الثاني: لذة تمنع لذة الآخرة وتعقب آلاماً أعظم منها، كلذة الذين اتخذوا من دون الله أوثاناً مودة بينهم فى الحياة الدنيا، يحبونهم كحب الله، ويستمتعون بعضهم ببعض، كما يقولون فى الآخرة إذا لقوا ربهم: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:128-129].

ولذة أصحاب الفواحش والظلم والبغى فى الأرض والعلو بغير الحق. وهذه اللذات فى الحقيقة إنما هى استدراج من الله لهم ليذيقهم بها أعظم الآلام ويحرمهم بها أكمل اللذات، بمنزلة من قدم لغيره طعاماً لذيذاً مسموماً يستدرجه به إلى هلاكه، قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف:182-183].

قال بعض السلف فى تفسيرها: كلما أحدثوا ذنباً أحدثنا لهم نعمة ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:44-45].

وقال تعالى فى أصحاب هذه اللذة: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون:55-56].

وقال فى حقهم: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:55].

وهذه اللذة تنقلب آخراً آلاماً من أعظم الآلام، كما قيل:

مآرب كانت فى الحياة لأهلها عذاباً، فصارت فى المعاد عذاباً

النوع الثالث: لذة لا تعقب لذة فى دار القرار ولا ألماً، ولا تمنع أصل لذة دار القرار، وإن منعت كمالها، وهذه اللذة المباحة التى لا يستعان بها على لذة الآخرة، فهذه زمانها يسير، ليس لتمتع النفس بها قدر، ولا بد أن تشغل عما هو خير وأنفع منها.

وهذا القسم هو الذى عناه النبى ﷺ بقوله: «**كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل، إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته امرأته، فإنهن من الحق**»[1].

فما أعان على اللذة المطلوبة لذاتها فهو حق، وما لم يعن عليها فهو باطل.

فصل

الحب الذى لا ينكر ولا يذم

فهذا الحب لا ينكر ولا يذم، بل هو أحمد أنواع الحب، وكذلك حب رسول الله ﷺ ، وإنما نعنى المحبة الخاصة، والتى تشغل قلب المحب وفكره وذكره بمحبوبه، وإلا فكل مسلم فى قلبه محبة لله ورسوله، لا يدخل فى الإسلام إلا بها، والناس متفاوتون فى درجات هذه المحبة تفاوتاً لا يحصيه إلا الله، فبين محبة الخليلين ومحبة غيرهما ما بينهما، فهذه المحبة هى التى تلطف وتخفف أثقال التكاليف، وتسخى البخيل، وتشجع الجبان، وتصفى الذهن، وتروض النفس، وتطيب الحياة على الحقيقة، لا محبة الصور المحرمة، وإذا بليت السرائر يوم اللقاء، كانت سريرة صاحبها من خير سرائر العباد، كما قيل:

سيبقى لكم فى مضمر القلب والحشا سريرة حب يوم تبلى السرائر

وهذه المحبة هى التى تنور الوجه، وتشرح الصدر، وتحيى القلب، وكذلك محبة كلام الله، فإنها من علامة محبة الله، وإذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله، فانظر محبة القرآن من قلبك والتذاذك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهى والغناء المطرب بسماعهم، فإن من المعلوم أن من أحب محبوباً كان كلامه وحديثه أحب شئ إليه، كما قيل:

إن كنت تزعم حبى فلم هجرت كتابي؟
أما تأملت ما فيه من لذيذ خطابي

---

(1) ضعيف : رراه الترمذي في فضائل الجهاد (1637) وأبو داود (2513) والنسائي (3578) وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود.

وقال عثمان بن عفان ﷺ: «لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله» وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه وهو غاية مطلوبه؟ وقال النبي ﷺ يوماً لعبد الله بن مسعود ﷺ: «**اقرأ علي**» فقال: أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ فقال: «**إني أحب أن أسمعه من غيري**» فاستفتح فقرأ سورة النساء، حتى إذا بلغ قوله: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾ [النساء:41] قال: «**حسبك**» فرفع رأسه فإذا عينا رسول الله ﷺ تذرفان من البكاء[1].

وكان الصحابة إذا اجتمعوا وفيهم أبو موسى يقولون: يا أبا موسى ذكرنا ربنا، فيقرأ، وهم يستمعون، فلمحبى القرآن من الوجد، والذوق واللذة، والحلاوة، والسرور أضعاف ما لمحبى السماع الشيطاني، فإذا رأيت الرجل، ذوقه ووجده وطربه وتشوقه إلى سماع الأبيات دون سماع الآيات، وفى سماع الألحان دون سماع القرآن، كما قيل:

تقرأ عليك الختمة وأنت جامد كالحجر، وبيت من الشعر ينشد تميل كالنشوان!!

فهذا من أقوى الأدلة على فراغ قلبه من محبة الله وكلامه، وتعلقه بمحبة سماع الشيطان، والمغرور يعتقد أنه على شئ.

ففى محبة الله وكلامه ورسوله ﷺ أضعاف أضعاف ما ذكر السائل من فوائد العشق ومنافعه، بل لا حب على الحقيقة أنفع منه، وكل حب سوى ذلك باطل، إن لم يعن عليه ويسوق المحبة إليه.

فصل

محبة الزوجات

وأما محبة الزوجات: فلا لوم فيها، بل هي من كماله، وقد امتن سبحانه بها على عباده فقال: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الروم:21] فجعل المرأة سكناً

(1) صحيح: رواه البخاري (5056،5049) وأحمد في المسند، وأبو داود (3668) والترمذي (3250).

للرجل يسكن قلبه إليها، وجعل بينهما خالص الحب، وهو المودة المقرونة بالرحمة، وقد قال تعالى عقيب ذكره ما أحل لنا من النساء وما حرم منهن: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا**﴾[النساء:26-28].

ذكر سفيان الثورى فى تفسيره عن ابن طاوس عن أبيه: كان إذا نظر إلى النساء لم يصبر.

وفى الصحيحين من حديث جابر عن النبي ﷺ: أنه رأى امرأة فأتى زينب فقضى حاجته منها، وقال: «**إن المرأة تقبل فى صورة شيطان، وتدبر فى صورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله، فإن ذلك يرد ما فى نفسه**»(١)

ففى الحديث عدة فوائد:

منها: الإرشاد إلى التسلى عن المطلوب بجنسه، كما يقوم الطعام مقام الطعام، والثوب مقام الثوب.

ومنها: الأمر بمداواة الإعجاب بالمرأة المورث لشهوتها بأنفع الأدوية، وهو قضاء وطره من أهله، وذلك ينقض شهوته، وهذا كما أرشد المتحابين إلى النكاح، كما فى سنن ابن ماجه مرفوعاً: «**لم ير للمتحابين مثل النكاح**»(٢).

فنكاح المعشوقة هو دواء العشق الذى جعله الله دواء شرعاً، وقد تداوى به داود ﷺ، ولم يرتكب نبى الله محرماً، وإنما تزوج المرأة وضمها إلى نسائه لمحبته لها، وكانت توبته بحسب منزلته عند الله وعلو مرتبته، ولا يليق بنا المزيد على هذا.

---

(1) صحيح : رواه مسلم (1403) ورواه أحمد في المسند (14128، 14262، 14334، 14826) وأبو داود (2151) في النكاح .

(2) صحيح : رواه ابن ماجه (1847) والحاكم في المستدرك (2/ 160) وصححه الألباني في صحيح الجامع (5200) وصحيح ابن ماجه رقم (1509).

وأما قصة زينب بنت جحش: فزيد كان قد عزم على طلاقها ولم توافقه، وكان يستشير النبي ﷺ في فراقها، وهو يأمره بإمساكها، فكلم رسول الله ﷺ أنه مفارقها ولا بد، فأخفى في نفسه أنه يتزوجها إذا فارقها زيد، وخشى مقالة الناس: إن رسول الله ﷺ تزوج زوجة ابنه، فإنه كان قد تبنى زيداً قبل النبوة، والرب تعالى يريد أن يشرع شرعاً عاماً فيه مصالح عباده، فلما طلقها زيد وانقضت عدتها منه أرسله إليها يخطبها لنفسه، فجاء زيد واستدبر الباب بظهره، وعظمت في صدره لما ذكرها رسول الله ﷺ فناداها من وراء الباب: يا زينب! إن رسول الله ﷺ يخطبك، فقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي، وقامت إلى محرابها فصلت، فتولى الله عز وجل نكاحها من رسوله ﷺ بنفسه، وعقد له النكاح فوق عرشه، وجاء الوحي بذلك ﴿**فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا**﴾ [الأحزاب:37] فقام رسول الله ﷺ لوقته فدخل عليها، فكانت تفخر على نساء النبي ﷺ بذلك وتقول: أنتن زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات. فهذه قصة رسول الله ﷺ مع زينب.

ولا ريب أن النبي ﷺ كان قد حبب إليه النساء، كما في الصحيح عن أنس عنه ﷺ: «**حبب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة**»[(1)] هذا لفظ الحديث، لا ما يرويه بعضهم «**حبب إلي من دنياكم ثلاث**»: زاد الإمام أحمد في كتاب «الزهد» في هذا الحديث: «**أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن**» وقد حسده أعداء الله اليهود على ذلك فقالوا: ما همه إلا النكاح. فرد الله سبحانه عن رسول الله ﷺ ونافح عنه فقال: ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا**﴾[النساء:54].

وهذا خليل الله إبراهيم كان عنده سارة أجمل نساء العالمين، وأحب هاجر وتسرى بها.

وهذا داود عليه السلام كان عنده تسع وتسعون امرأة فأحب تلك المرأة وتزوجها فكمل المائة، وهذا سليمان ابنه عليه السلام كان يطوف في الليلة على تسعين امرأة، وقد سئل رسول الله ﷺ عن أحب الناس إليه فقال: «عائشة» وقال عن خديجة: «**إني رزقت حبها**»[(2)].

---

(1) سبق.
(2) صحيح: رواه مسلم (2435) في فضائل الصحابة.

فمحبة النساء من كمال الإنسان، قال ابن عباس: «خير هذه الأمة أكثرها نساء»، وقد ذكر الإمام أحمدﷺ أن عبد الله بن عمر وقع فى سهمه يوم جلولاء جارية كأن عنقها إبريق فضة، قال عبد الله: فما صبرت أن قبلتها والناس ينظرون، وبهذا احتج الإمام أحمد على جواز الاستمتاع من المسبية قبل الاستبراء بغير الوطء، بخلاف الأمة المشتراة.

والفرق بينهما أن انفساخ الملك لا يتوهم فى المسبية، بخلاف المشتراة، فقد ينفسخ فيها الملك، فيكون مستمتعاً بأمة غيره.

وقد شفع النبيﷺ لعاشق أن تواصله معشوقته بأن تتزوج به فأبت، وذلك فى قصة مغيث وبريرة لما رآه يمشى خلفها بعد فراقها ودموعه تجرى على خديه، فقال لها رسول اللهﷺ: «**لو راجعتيه؟**» فقالت: أتأمرنى يا رسول الله فقال: «**لا، إنما أشفع**» فقالت: لا حاجة لى به. فقال لعمه: «**يا عباس ألا تعجب من حب مغيث بريرة، ومن بغضها له؟!**»[1] ولم ينكر عليه حبها، وإن كانت قد بانت منه، فإن هذا ما لا يملكه.

وكان النبيﷺ يسوىٰ بين نسائه فى القسم ويقول: «**اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمنى فيما لا أملك**»[2] يعنى فى الحب. وقد قال تعالى: ﴿**وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ**﴾ [النساء:129] يعنى فى الحب والجماع.

ولم يزل الخلفاء الراشدون والرحماء من الناس يشفعون للعشاق إلى معشوقهم الجائز وصلهن، كما تقدم من فعل أبى بكر وعثمان، وكذلك على فقد أتى بغلام من العرب وجد فى دار قوم بالليل، فقال له: ما قصتك؟ قال: لست بسارق، ولكنى أصدقك:

---

(1) صحيح : رواه أبو داود (2231) في الطلاق، والنسائي (5417) في آداب القضاة، وابن ماجه (2075) في الطلاق، والدارمي (2292) وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(2) ضعيف : رواه أبو داود (2134) والنسائي (6943) في عشرة النساء وابن ماجه (1971) في النكاح، والدارمي (2207) في النكاح وأحمد في المسند (24587) والترمذي (1140) وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود.

تعلقــت في دار الرِّياحيَ خَــوْدةً ... يَذلُّ لها من حُسن منظــرها البــــدر
لها في بنات الروم حسن ومنصب ... إذا افتخرت بالحُسْن خافتها الفَخْــــر
فلما طرقت الدار من حــر مهجتي ... أبيــت وفيها من تَوَقُّــدهــا الجــمر
تبادر أهل الدار بي ثم صيحــــوا ... هــو اللص محتوماً له القتــل والأسر

فلما سمع علي بن أبي طالب ﷺ شعره رق له، وقال للمهلب بن رباح: اسمح له بها، فقال: يا أمير المؤمنين، سله من هو؟ فقال: النهاس بن عيينة، فقال: خذها فهي لك.

واشترى معاوية جارية فأعجب بها إعجاباً شديداً، فسمعها يوماً تنشد أبياتاً منها:

وفارَقْتهُ كالغصن يهتــز في الثَّــرَى ... طريراً وسيمــاً بعدمــا طَرَّ شـاربُه

فسألها، فأخبرته أنها تحب سيدها، فردها إليه، وفي قلبه منها.

وذكر الزمخشري في «ربيعه» أن زبيدة قرأت في طريق مكة على حائط:

أما فــي عباد اللـــه أو في إمائـــه ... كريم يُجَلِّي الهم من ذاهب العقــلِ؟
له مقلــة أمــا الأماقــي قريحــة ... وأما الحشا فالنار منه على وَجــــلِ

فنذرت أن تحتال لقاتلهما إن عرفته حتى تجمع بينه وبين من يحبه، فبينا هي بالمزدلفة، إذ سمعت من ينشد البيتين، فطلبته، فزعم أنه قالهما في ابنة عم له نذر أهلها أن لا يزوجوها منه، فوجهت إلى الحي، فما زالت تبذل لهم المال حتى زوجوها منه، وإذا المرأة أعشق له منه لها، فكانت تعده من أعظم حسناتها، وتقول: ما أنا بشئ أسر مني من جمعي بين ذلك الفتى والفتاة.

قال الخرائطي: وكان لسليمان بن عبد الملك غلام وجارية يتحابان، فكتب الغلام إلى الجارية يوماً:

ولقــــد رأيتك في المنــــام كأنمــا ... عاطيتـــني من ريق فــيْك البـارد
وكأن كفـــك في يــدي وكأننـــا ... بتنا جميعـــاً في فــراش واحـــد
فَطَفقْــتُ يومــي كُلَّــه متراقــداً ... لأراك في نومـــي، ولســت براقـد

فأجابته الجارية تقول:

خيراً رأيـــت وكـــل ما أبصـــرته ستنـــاله منى بـــرغم الحـــاســـد
إنى لأرجـــو أن تكـــون معانقـــى فتبيت منـــى فـــوق ثـــدى ناهـــد
وأراك بـــين خلاخـــلى ودمالجـــى وأراك فـــوق ترائبـــى ومـجاسدى

فبلغ سليمان ذلك فأنكحها الغلام، وأحسن حالهما على فرط غيرته.

وقال جامع بن برخية: سألت سعيد بن المسيب مفتى المدينة: هل فى حُبِّ دَهَمَنَا من وِزْرٍ؟.

فقال سعيد: إنما تلام على ما تستطيع من الأمر. فقال سعيد: والله ما سألنى أحد عن هذا، ولو سألتنى لما كنت أجيب إلا به.

أقسام عشق النساء

فعشق النساء ثلاثة أقسام: قسم هو قربة وطاعة، وهو عشق امرأته وجاريته، وهذا العشق عشق نافع، فإنه أدعى إلى المقاصد التى شرع الله لها النكاح، وأكف للبصر، والقلب عن التطلع إلى غير أهله، ولهذا يحمد هذا العاشق عند الله، وعند الناس.

وعشق هو مقت من الله وبعد من رحمته، وهو أضر شئ على العبد فى دينه ودنياه، وهو عشق المردان، فما ابتلى به إلا من سقط من عين الله، فطرد عن بابه، وأبعد قلبه عنه، وهو من أعظم الحجب القاطعة عن الله، كما قال بعض السلف: إذا سقط العبد من عين الله، ابتلاه بمحبة المردان، وهذه المحبة هى التى جلبت على قوم لوط ما جلبت، فما أتوا إلا من هذا العشق، قال تعالى: **﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾** [الحجر:72].

ودواء هذا الداء: الاستغاثة بمقلب القلوب، وصدق اللجأ إليه، والاشتغال بذكره، والتعوض بحبه وقربه، والتفكر فى الألم الذى يعقبه هذا العشق، واللذة التى تفوته به، فيترتب عليه فوات أعظم محبوب، وحصول أعظم مكروه، فإذا

أقدمت نفسه على هذا وآثرته، فليكبر عليها تكبير الجنازة، وليعلم أن البلاء قد أحاط بها.

والقسم الثالث من العشق: عشق مباح، كعشق من وصفت له امرأة جميلة، أو رآها فجأة من غير قصد، فتعلق قلبه بها، ولم يحدث له ذلك العشق معصية، فهذا لا يملك ولا يعاقب عليه، والأنفع له مدافعته والاشتغال بما هو أنفع له منه، ويجب الكتم، والعفة، والصبر فيه على البلوى، فيثيبه الله على ذلك ويعوضه على صبره لله وعفته، وتركه طاعة هواه، وإيثار مرضاة الله وما عنده.

فصل

أقسام الناس فى العشق

والعشاق ثلاثة أقسام:

منهم من يعشق الجمال المطلق.

ومنهم من يعشق الجمال المقيد، سواء طمع فى وصاله أو لا،

ومنهم من لا يعشق إلا من يطمع فى وصاله.

وبين هذه الأنواع الثلاثة تفاوت فى القوة والضعف.

فعاشق الجمال المطلق، يهيم قلبه فى كل واد، وله فى كل صورة جميلة مراد:

فيوما بحزوي، ويوماً بالعقيق وبالعذيب يوماً، ويوماً بالخُليصاء
وتارة ينتحى نَجْداً وآونة شُعْبَ العقيق وطَوْراً قصر تيماء

فهذا عشقه أوسع، ولكنه غير ثابت كثير التنقل.

يَهيمُ بهذا ثم يعشق غيره ويَسلاهُم من وقته حين يُصبح

وعاشق الجمال المقيد أثبت على معشوقه، وأدوم محبة له، ومحبته أقوى من محبة الأول، لاجتماعهما فى واحد، ولكن يضعفهما عدم الطمع فى

الوصـال، وعاشـق الجمـال الذى يطمع فى وصـاله أعـقل العـشاق أقـوى، لأن الطمع يمده ويقويه.

فصـل

حديث من «عشق فعفَ»

وأما حديث «**من عشق فعف**» فهـذا يرويه سويد بن سعيد، وقد أنكره حفاظ الإسلام عليه.

قال ابن عدى فى كامله: هذا الحديث أحد ما أُنكر على سويد.

وكذا ذكر البيهقى وابن طاهر فى الذخيرة والتذكرة، وأبو الفرج بن الجوزى وعـده فى الموضـوعـات، وأنكره أبو عـبـد الله الحاكم على تسـاهله، وقـال: أنا أتعجب منه.

قلت:والصواب فى الحديث أنه من كلام ابن عباس موقوفاً عليه، فغلط سويد فى رفعه.

قال محمد بن خلف بن المرزبان: حدثنا أبو بكر الأزرق، عن سويد به، فعاتبه على ذلك، فأسقط ذكر النبي ﷺ، وكان بعد ذلك يُسأل عنه فلا يرفعه، ولا يشبه هذا كلام النبوة.

وأما رواية الخطيب له عن الزهرى: حدثنا المعافى بن زكريا، حدثنا قطبة بن الفضل، حدثنا أحمد بن محمد بن مسروق، حدثنا سويد بن مسهر، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة مرفوعاً، فمن أبين الخطأ، ولا يحمل هشام، عن أبيه، عن عائشة مثل هذا عند من شم أدنى رائحة من الحديث، ونحن نشهد الله أن عائشة ما حدثت بهذا عن رسول الله ﷺ قط، ولا حدث به عروة عنها، ولا حدث به عنه هشام قط.

وأما حديث ابن الماجشون، عن عبد العزيز بن أبى حازم، عن ابن أبى نجيح،

عن مجاهد، عن ابن عباس مرفوعاً، فكذب على ابن الماجشون، فإنه لم يحدث بهذا، ولا حدث به عنه الزبير بن بكار، وإنما هذا من تركيب بعض الوضاعين، ويا سبحان الله! كيف يحتمل هذا الإسناد مثل هذا المتن؟ فقبح الله الوضاعين.

وقد ذكره أبو الفرج بن الجوزى من حديث محمد بن جعفر بن سهل حدثنا يعقوب بن عيسى، عن ولد عبد الرحمن بن عوف، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد مرفوعاً، وهذا غلط قبيح، فإن محمد بن جعفر هذا هو الخرائطي، ووفاته سنة سبع وعشرين وثلاثمائة، فمحال أن يدرك شيخه يعقوب بن أبى نجيح، لا سيما وقد رواه فى كتاب «الاعتدال» عن يعقوب هذا، عن الزبير، عن عبد الملك، عن عبد العزيز، عن ابن أبى نجيح، والخرائطى هذا مشهور بالضعف فى الرواية، ذكره أبو الفرج فى كتاب «الضعفاء».

وكلام حفاظ الإسلام فى إنكار هذا الحديث هو الميزان، وإليهم يرجع فى هذا الشأن، وما صححه ولا حسنه أحد يعول فى علم الحديث عليه، ويرجع فى التصحيح إليه، ولا من عادته التسامح والتساهل، فإنه لم يصف نفسه له، ويكفى أن ابن طاهر الذى يتساهل فى أحاديث التصوف، ويروى منها الغث والسمين والمنخنقة والموقوذة، قد أنكره وشهد ببطلانه.

نعم ابن عباس غير مستنكر ذلك عنده.

وقد ذكر أبو محمد بن حزم عنه: أنه سئل عن الميت عشقاً، فقال: «قتيل الهوى لا عقل له ولا قود» ورفع إليه بعرفات شاب قد صار كالفرخ، فقال: ما شأنه؟ قالوا: العشق، فجعل عامة يومه يستعيذ من العشق.

فهذا نفس: **«من عشق وعف وكتم ومات فهو شهيد»**.

ومما يوضح ذلك: أن النبي ﷺ عدَّ الشهداء فى الصحيح، فذكر المقتول فى الجهاد، والمبطون، والحرق والنفساء يقتلها ولدها، والغرق، وصاحب ذات الجنب، ولم يذكر منهم من يقتله العشق.

وحسب قتيل العشق أن يصح له هذا الأثر عن ابن عباس على أنه لا يدخل تحته حتى يصبر لله، ويعف لله ويكتم لله، وهذا لا يكون إلا مع قدرته على معشوقه، وإيثار محبة الله وخوفه ورضاه، وهذا من أحق من دخل تحت قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:40-41] وتحت قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:46].

فنسأل الله العظيم، رب العرش الكريم، أن يجعلنا ممن آثر حبه على هواه، وابتغى بذلك قربه ورضاه.

تمت الفتوى الشريفة بحمد الله وعونه، فجزاه الله تعالى خير الجزاء، وأسكنه أعلى فراديس الجنان، وأصوله وفروعه وأشياخه وتلامذته، وأعاد علي وعلى ذريتي من بركاتهم، وحشرنا في زمرتهم في جنة الفردوس تحت لواء سيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان، والحمد لله رب العالمين.



الفهـــرس

الموضـــوع — الصفحة

ص ١ الأصل